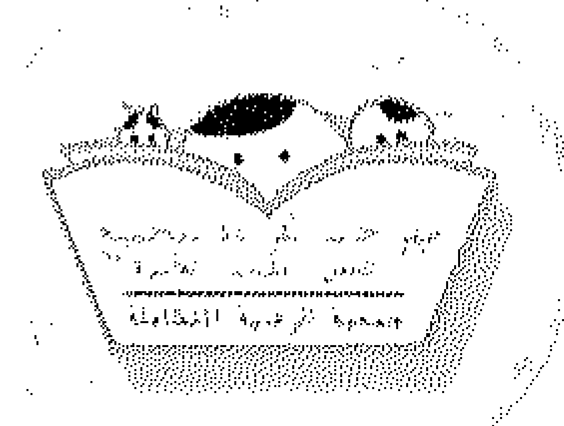



# المرأة الجديدة

إقبال بركة

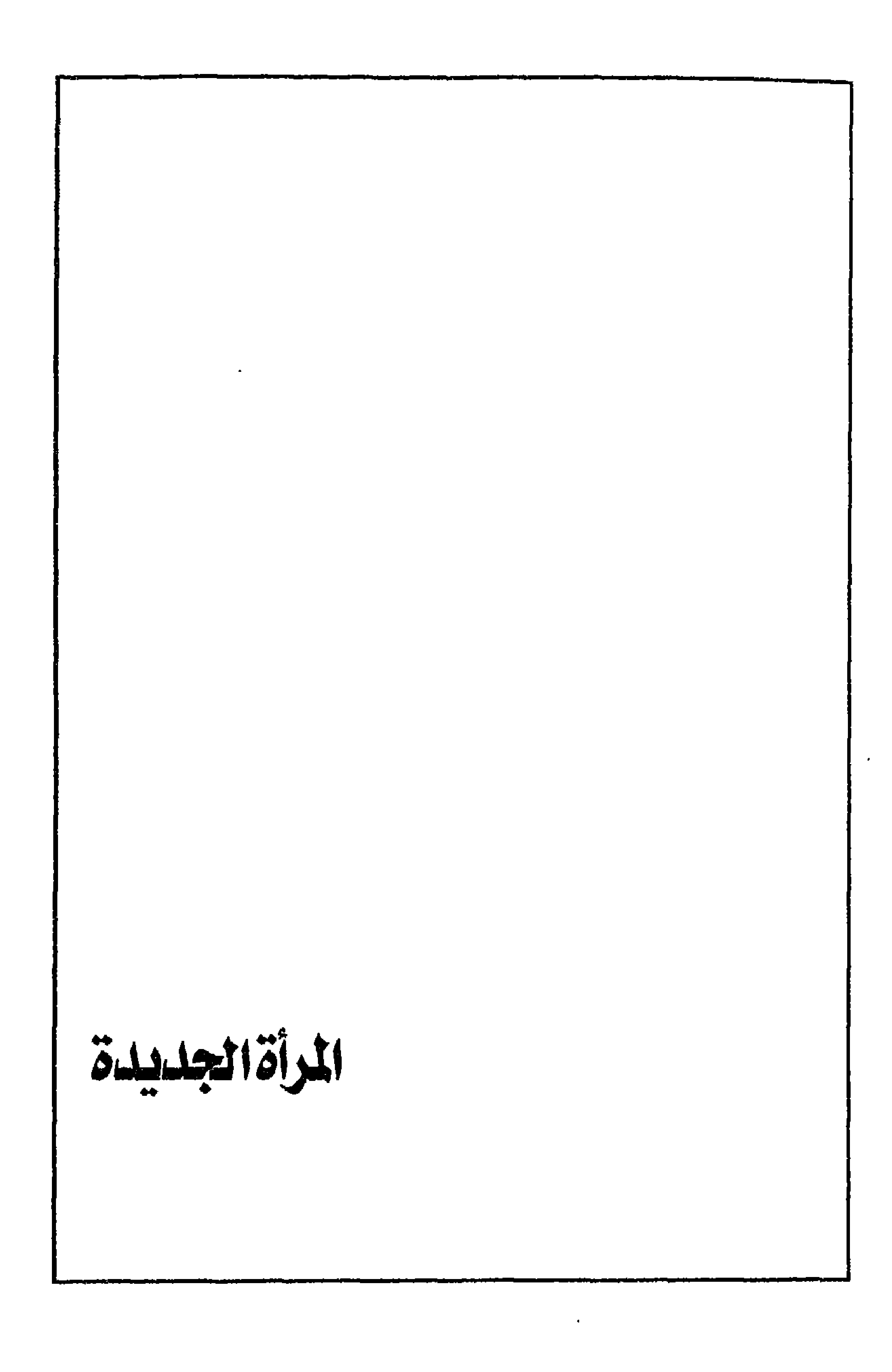


الأعمال الخاصة

**إهـــــداء ٢٠٠٧**

الدكتور / عاطف رمضان دياب

**جمهورية مصر العربية**



# المرأة الجديدة



# المرأة الجديدة

بقلم

إقبال بركة




# مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

## مكتبة الأسـرة

## برعاية السيدة سوزان مبارك

## (سلسلة الأعمال الخاصة)

## إشراف: غادة الريدى

المرأة الجديدة
بقلم: إقبال بركة

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د.سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

## على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د.سمير سرحان

# حتى لا ننسى

الحرية هى أثمن ما يملك الإنسان؛ ولذا ظل طوال تاريخه يسعى إلى تحقيقها، وإذا كانت حرية الرجل قد سبقت تاريخياً حرية المرأة؛ فإن العصر الحديث قد أشرق على الإنسانية وقد أشرقت معه الدعوة إلى المرأة الجديدة، والمرأة الجديدة هى المرأة الحرة التى تملك من الإنسانية بقدر ما يملك الرجل.

واللافت للنظر أن يكون رجلاً هو أول من بشَّرَ بالمرأة الجديدة فى مصر.. وهذا الرجل هو قاسم أمين الذى خط بيديه ذلك الكتاب الرائع (المرأة الجديدة) الصادر عام ١٩٠٠.

وبعد قرن كامل أو يزيد على كتاب قاسم أمين، أقدم للقارئ فى كل مكان كتابى هذا (المرأة الجديدة).. والفرق بين الكتابين أن قاسم أمين كان يدعو ويبشر بالمرأة الجديدة، أما هذا

الكتاب فيتحدث عن المرأة الجديدة وقد تحققت فى التاريخ تحقيقاً كان مصاحباً لتحقق حرية الأمة المصرية.. ومن هنا فإن القارئ لن يجد فى هذا الكتاب قصة تحرر المرأة فقط، بل سيجد قصة تحرر مصر.

فما بين عامى ١٩٠٠ و٢٠٠٠ كانت هناك قصة مثيرة لأمة تتطلع للحرية وتحطم ما فُرض عليها من قيود لمئات السنين، فضلاً عن قصة المرأة المصرية التى كافحت من أجل أن تنزع عن روحها وشخصيتها أغلال الحريم.

فلقد كانت معركة النضال من أجل تحرير الوطن الحبيب مصر هى الحافز القوى الذى دفع المصريات إلى الخروج إلى الحياة العامة والتعبير عن رفضهن لقوى الاحتلال الباغية.

ولم تكن المرأة المصرية أقل من شقيقها الرجل استعداداً للبذل والتضحية بالمال والجهد والنفس فى سبيل تحقيق تلك

الغاية العزيزة: حرية مصر واستقلالها. لقد انفجر كفاح شعب مصر المرير لمقاومة وإنهاء الاحتلال البريطانى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. وطوال هذه المرحلة لم تتوان المرأة المصرية عن بذل الروح والدم فى سبيل وطنها الحبيب مصر. وقد تزامنت معركة تحرير مصر لترابها المقدس مع معركة انطلاق ابنتها المصرية من أسر الرق والحريم والجاهلية العثمانية، حتى بدا كأن إحداهما لن تنتصر دون الأخرى. وكانت تلك الحلقة الثالثة فى نضال المرأة المصرية لكسر أغلالها والدفاع عن حرية وكرامة بلدها فى آن واحد. وكانت الحلقة الأولى قد بدأت فى بداية القرن التاسع عشر بالدور الذى لعبته النساء (الحرافيش) فى ثورات القاهرة أثناء الغزو الفرنسى لمصر، وخلده المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى، ثم جاءت الحلقة الثانية بعد ذلك بأقل من قرن، أثناء ثورة البطل المصرى أحمد عرابى عندما وقفت النساء المصريات من الطبقة الحاكمة معه،

وناصرنه، وعارضن الخديوى توفيق فى السر والعلن. ثم جاءت الذروة أثناء ثورة ١٩١٩م. ثم تتابعت باقى حلقات كفاح المرأة المصرية طلباً لحرية الوطن وطلباً لحريتها هى: فى الحياة، والسياسة، والفن، والأدب.

وقادت هذه الحلقة، بكل جدارة، الرائدة العظيمة هدى شعراوى. وكما أفسحت مساحة كبيرة لسيرة وأفكار الكاتبة الرائدة ملك حفنى ناصف فى كتابى (المرأة المسلمة فى صراع الطربوش والقبعة) الذى صدر منذ عامين، فإنى أركز فى هذا الكتاب على سيرة وأفكار وخطوات هدى شعراوى.

وهكذا يكتمل الجزء الثانى من تاريخ صراع الطربوش والقبعة فى مصر وتأثيره على مسيرة المرأة المصرية. وقد نشر كلاهما فى باب "حتى لا ننسى" الذى يشرفنى ويسعدنى أن أحرره بانتظام فى أكبر جريدة عربية: الأهرام.

وللقارئ العزيز أن يستنتج ما يراه، ويقرر هل عطل ذلك الصراع مسيرة المرأة فى مصر، أم دفع بها شوطا كبيرا إلى الأمام !!

*******

# المرأة الجديدة

أشرقت شمس القرن العشرين على مصر تحمل ملامح أنثوية جميلة؛ هى المرأة العربية، التى بشر بها قاسم أمين فى كتابه الثانى "المرأة الجديدة" الصادر عام ١٩٠٠م، والتى بدأت تحتل على استحياء موقعها فى الحياة العملية، وظلت تتصاعد حتى توجت جهودها بتأسيس أول اتحاد نسائى مصرى فى مارس ١٩٢٣م. وما بين التاريخين قصة مثيرة لأمة تتطلع للحرية وتحطم أغلالا فرضت عليها لمئات السنين، وامرأة تنزع عن روحها وجسدها شرنقة الحريم.

كان جديدا ذلك العنصر اللطيف الملطف لجفاف الحياة وخشونتها، وتلك اللمسة الساحرة والبسمة الحيية التى بدأ الرجال يرحبون بها ويألفونها بل ويشجعونها: المرأة الجديدة.

بدأ التغيير فى عصر الخديوى إسماعيل عندما رأى المصريون فى حفلات افتتاح قناة السويس النساء الأوروبيات يخالطن الرجال فى القصور والحفلات الفاخرة. ولكن عصر حفيده الشاب عباس حلمى الثانى ( ١٨٩٢-١٩١٤م) شهد نوعية جديدة من النساء الغربيات والعربيات فى شوارع القاهرة وأماكن العمل وخشبة المسرح ومدرج الجامعة: المرأة العاملة البسيطة، والمثقفة التى تحاول أن تجد لها مكانا إلى جانب الرجل المصرى المثقف.

يذكر تعداد ١٨٩٧م أن ٨٪ فقط من الرجال المصريين و٠,٢٪ (اثنين فى الألف) من النساء المصريات (فوق سن السابعة) كانوا يجيدون القراءة والكتابة، وقد ظلت هذه النسبة تتضاعف فى التعدادين التاليين عام ١٩٠٧ وعام ١٩١٤، إلاّ أن نسبة الزيادة فى تعليم المرأة كانت أسرع. وكان للتعليم أثره السحرى، حين أدركت المرأة أنها ليست مجرد أنثى خُلقت لكى يلهو بها الرجل، ولكنها إنسان مثله

حباها الله بنعم لاحصر لها كالعقل والضمير والخيال والمواهب والإرادة والنفس التى تأبى الضيم وتتطلع إلى حياة أفضل لها ولكل العالم.

لقد كانت معركة النضال من أجل تحرير الوطن الحبيب مصر هى الحافز القوى الذى دفع المصريات إلى الخروج إلى الحياة العامة والتعبير عن رفضهن لقوى الاحتلال الباغية، ورغم الحجاب الكثيف الذى ضُرب على النساء المسلمات لقرون عديدة فقد بدأت بعضهن تمزقن الشرنقة التى فُرضت عليهن طويلا، وخرجن يتلمسن النور والهواء ويمارسن حقهن فى الحياة، وفى المشاركة فى بناء نهضة بلادهن، وفى رفع شأن المرأة المصرية والارتقاء بالمرأة الشرقية. وبدأ الرجل المصرى يتعرف إلى المرأة الجديدة، ويكتشف لها خواص وصفات لم يكن يعرفها أو يعترف بها: أدرك المثقف المصرى أن المرأة قادرة على التعبير الأدبى مثله، وربما تفوقت على بعض الرجال، بعد أن تابع عائشة التيمورية التى كانت تكتب الشعر بالفارسية

والتركية والعربية، وزينب فواز التى كان لها الريادة فى شكل جديد من القص لم يكن موجودا بالعربية يسمى "الرواية" التى صدرت عام ١٨٩٣م وعنوانها "حسن العواقب"، ووقعتها "امرأة مصرية"، ولبيبة هاشم التى كانت أول من كتب القصة القصيرة ذات المغزى الأدبى ونشرتها فى مجلتها، كما نشرت رواية بعنوان "قلب الرجل" عام ١٩٠٤م"[1].

ثم هناك ذلك السيل من الصحف النسائية التى غزت الساحة الثقافية منذ ١٨٩٢م، تحررها وتديرها وتنشرها نساء عربيات، ويكاد المرء يشم بين صفحاتها عطر الأنوثة الفواح ممتزجا بعرق الكفاح الشريف والإرادة الحرة.

ولم تكتف المرأة المتعلمة فى مصر بالكتابة فى مشكلاتها والمطالبة بحقوقها المشروعة وإنما تطلعت إلى

(١)(النهضة النسائية فى مصر) روث بارون ترجمة لميس النقاش. المجلس الأعلى للثقافة.

الأجيال الجديدة تحاول أن تنقذها من "الظلم" الذى عانت منه، فتنشر نبوية موسى كتابها "ثمرة الحياة فى تعليم الفتاة"، الذى قررته وزارة المعارف للمطالعة فى مدارسها، وترسل لبيبة هاشم خطابا مفتوحا إلى البرلمان التركى تطالبه بالتوسع فى تعليم البنات، وتنشىء فاطمة راشد جمعية "ترقى المرأة" وتؤسس هدى شعراوى "مبرة محمد على" (لإغاثة ضحايا وباء الحمى الصفراء). ويرحب البعض بتلك الطفرة الهادئة فيوافق الأمير (الملك فيما بعد) أحمد فؤاد على تخصيص قاعة للسيدات بالجامعة الجديدة كل يوم جمعة لممارسة نشاطهن الثقافى بها، وتتشجع هدى شعراوى فتدعو الكاتبة الفرنسية مارجريت كليمان لمحاضرة النساء بالجامعة، موضوعها "الحجاب"، وتبدأ ملك حفنى ناصف التى كانت تلقى المحاضرات بمقر "الجريدة" بتشجيع ورعاية رئيس تحريرها احمد لطفى السيد، فى إلقاء المحاضرات بالجامعة وتتبعها لبيبة هاشم.

تفزع سلطات الاحتلال الإنجليزى من الظاهرة الجديدة ومن سيل الكتابات بأقلام الرجال والنساء التى ترفض وجودهم فى مصر وتطالب بالاستقلال، فيندفع المستشار الإنجليزى ألدون جورست إلى ارغام وزارة محمد سعيد باشا عام ١٩٠٩م، لإعادة قانون فرض الرقابة على الصحف الذى صدر أثناء ثورة عرابى، ويفاجأ المجتمع المصرى بأمر يحدث لأول مرة: المرأة المصرية تدافع عن حرية التعبير وتشارك فى الحملة التى شنتها الصحافة على قانون المطبوعات؛ فإلى جانب قصيدة ملك حفنى التى هاجمت بشدة ذلك القانون، تكتب لبيبة هاشم مقالا بعنوان "كلمة إلى السيدات" تحتج فيه على القانون وتهاجم الحكومة التى أصدرته.

ولم تمنع سياسات القمع التى نفذها المحتلون الإنجليز من ظهور أكثر من مجلة نسائية فى نفس العام (١٩٠٩م)، فأصدرت النساء مجلات "مرشد الأطفال" و"العائلة القبطية"، و"الأعمال اليدوية للسيدات"

و"البرنسيسة". ثم توالت المجلات النسائية التى تحمل أسماء الكاتبات الصحفيات الأوائل مثل الشقيقتين ذكية وفاطمة الكفراوى وإحسان أحمد ثابت فى مجلة "العفاف" ١٩١٠م، والشقيقتين خديجة وسارة الميهية بمجلة "فتاة النيل" ١٩١٣م وغيرهن. وقد ناقشت الكاتبات مسائل مازالت تجد صداها إلى اليوم فى صحف القرن الحادى والعشرين مثل قضية السفور والحجاب وحقوق المرأة فى الاسلام ونقد الممارسات والعادات المسيئة للاسلام كالزار وحفلات الزفاف. وكانت مجلة "العفاف" تنشر تقارير عن الأحياء الفقيرة تركز فيها على نقد السلوك الاجتماعى والجنسى، وتدلل على صحة الدعوة للإصلاح.

ولم يقتصر نشاط النساء المثقفات، أو نموذج المرأة الجديدة على إصدار والكتابة فى المجلات النسائية وحدها، بل كن ينشرن مقالاتهن فى المجلات العلمية والأدبية "كاللطائف" و"المنار" "والهلال" و"المقتطف" ويلقين التشجيع من رؤساء تحريرها، وكن يقمن بإدارة

الصحف النسائية وغيرها، فأرملة صاحب جريدة الأهرام أدارت الجريدة بعد وفاة زوجها عام ١٩٠١م لمدة سبع سنوات، ثم تسلمها بعد ذلك ابنها.

وفى الفن يولع "السميعة" بأغانى المطربات إلى جانب مطربى العصر عبده الحامولى وسلامة حجازى ويوسف المنيلاوى، فتظهر بعد ألمظ التى كانوا يعشقون أغانيها مثل "متع حياتك بالأحباب"، بمبة كشر (توفيت ١٩١٧) وأشهر أغانيها "الحنة يا قطر الندى" وأمينة شخلع (توفيت ١٩٢٤) وأشهر أغانيها "قولوا لعين الشمس ما تحماشى". ويزدهر المسرح فى عهد الخديوى عباس الثانى، وتزدحم مسارح "عباس" و"بريتانيا" و"كازينو دى بارى" بمسرحيات جورج أبيض (ولد١٨٨٠) الذى حضر إلى مصر فى عهد الخديوى عباس الثانى وأعجب به وأرسله على نفقته الخاصة فى بعثة بفرنسا لدراسة التمثيل لمدة ست سنوات. وفرقة سليمان القرداحى وفرقة خليل القبانى وغيرهم، التى تضم ممثلات أغلبهن مسيحيات

شاميات، ويكثر الإقبال على تلك المسرحيات فتضطر إلى الانتشار فى المقاهى، ويذيع صيت الفنانة منيرة المهدية، وتصل إلى مكانة سامية وشهرة كبيرة، إلى درجة أن يجتمع مجلس الوزراء فى بيتها بعدما خلع الانجليز الخديوى عباس الثانى ومنعوا مجلس الوزراء من الاجتماع إبان الحرب العالمية الأولى.

*******

# نهاية عصر "العبيد"

الحرية جوهرة غالية لم يحصل عليها الناس إلا بعد عصور طويلة من الحرمان والقهر، وقد لا يعرف شباب اليوم أو قد لا يصدقون أن الإنسان فى سالف الزمان كان سلعة تباع وتشترى. وأن الذين كانوا يرتكبون تلك الجريمة النكراء كانوا بشرا مثله، ولكنهم لم يكونوا يشعرون بأى إحساس بالذنب، بل يعتبرون تجارة العبيد والجوارى من الأنشطة التجارية التى تدر ربحا طيبا، وينظرون إلى العبيد من الرجال والنساء، على أنهم ظاهرة ضرورية فى المجتمع، بل أن العبيد أنفسهم ظلوا لقرون طويلة لا يقاومون ذلك الوضع الذى نأباه اليوم بشدة، ولا يحلمون بأن العالم سيبرأ منه فى أى عصر من العصور. ومعروف أن سبارتاكوس الذى حاول أن يحرر العبيد فى العصر الرومانى قُبض عليه وقتل نتيجة لوشاية العبيد أنفسهم الذين رفضوا أن يتحرروا ..!. وهكذا انقسمت كل

المجتمعات القديمة إلى طبقتين: الأحرار والعبيد .. الطبقة الأولى لها كل الحقوق وكل متع الحياة .. والثانية لها العمل الشاق والفقر والمعاناة ..

وفى أوروبا ازدهرت تجارة العبيد على يد قباطنة البواخر فى القرن السادس عشر، فى عهد الملكة اليزابيث، التى عاصرها الأديب الإنجليزى الأشهر ويليام شيكسبير، فكانوا يخطفون مواطنى أفريقيا السود ثم يعتقلوهم فى ظروف لا إنسانية فى بواخرهم، ويبيعون من يتبقى منهم على قيد الحياة، وقد وصلت "الشحنة" الأولى من العبيد إلى مدينة جيمس تاون فى المستعمرات الإنجليزية شمال أمريكا عام ١٦١٩. والذين تابعوا المسلسل الأمريكى الشهير "الجذور" قد يتذكرون مدى المعاناة التى كان يعيشها أولئك الأفارقة المساكين، وكيف كان الأوروبيون يعاملونهم معاملة الحيوانات أو بمعنى أصح الوحوش الضارية. وقد نال مؤلف الكتاب الذى أُخذ عنه المسلسل، الكاتب الأمريكى الأسود أليكس هيلى، شهرة مدوية، بعد أن

فضح فى كتابه، وفى المسلسل، حقيقة الإنسان الغربى الذى يدعى التحضر وينظر بازدراء إلى شعوب العالم متباهيا بحضارته وبالديموقراطية ..

لقد كان من الممكن أن تستمر جريمة بيع الرجال والنساء واستغلالهم أبشع الاستغلال تجارة علنية ومشروعة، إلى الأبد لو لم تتحرك غريزة حب الحياة فى قلوب العبيد السود، ولو لم يثوروا على ذلك الوضع المهين ويعلنوا العصيان، ويدفعوا الثمن غاليا. والمتأمل لتاريخ إلغاء الرق فى العالم لابد وأن تصيبه الدهشة من تلك المقاومة الضارية التى يلقاها أى تغيير فى الحياة حتى ولو كان إلى الأفضل. وكيف أن البعض يفعلون المستحيل، بل ويفقدون حياتهم فى سبيل الاحتفاظ بالوضع الراهن، مهما كان سيئا وغير صالح للاستمرار. بدأت الثورة ضد العبودية عام ١٧١٢ عندما ثار العبيد فى ولاية نيويورك، وانتحر ستة منهم، احتجاجا على ما يلاقونه من أهوال على يد "الملاك البيض"، وبالطبع لم تستجب السلطات

الأمريكية، واعتبرت حركتهم تمردا يوجب العقاب الشديد، وقامت بشنق ٢١ من الثوار لكى يكونوا عبرة للآخرين. ولكن النار ظلت مشتعلة تحت الرماد، واشتعلت ثورة الزنوج الثانية عام ١٧٤١، وانتهت بشنق ١٣ عبدا واحراق ١٣ آخرين ونفى ٧١ زنجيا.

لفتت تلك الثورات الأنظار إلى الظروف اللاإنسانية التى يعانى منها عبيد أمريكا، فظهرت معارضة تجارة العبيد بين المواطنين الأمريكيين، وبدأت بعض الولايات الأمريكية بمنع الرق داخل حدودها مثل رود أيلند فى ١٧٧٤، ثم ماساتشوستس فى ١٧٨٣، وحاول نائب فيرجينيا توماس جيفرسون، الذى أصبح رئيسا فيما بعد، أن يقنع الكونجرس الأمريكى بالموافقة على حظر تجارة العبيد فى مارس عام ١٧٨٤، على أن يتم ذلك فى المقاطعات الجديدة واعتبارا من ١٨٠٢، ولكن اقتراحه قوبل بالرفض من أعضاء الكونجرس. وفى عام ١٨٠٨ أصدرت الحكومة الأمريكية قرارا بعدم مشروعية تجارة العبيد ومع

ذلك، تم تهريب ما يزيد عن ٢٥٠,٠٠٠ من العبيد، إناثا وذكورا إلى الولايات المتحدة الأمريكية حتى عام ١٨٦٠ بطرق غير شرعية.

ورغم معاناة الزنوج، استمر عناد الرافضين لإلغاء الرق، وتزايد تشبثهم بفكرة أن الحرية لا يمكن أن يستمتع بها كل البشر، بل المحظوظين فقط، وهى فكرة مازالت تعشش فى أذهان البعض حتى اليوم. وفى فبراير عام ١٨٢٠ بدأت أول هجرة منظمة للزنوج من أمريكا إلى أفريقيا عندما أبحر ٨٦ رجلا وامرأة من السود المحررين إلى سيرا ليون، وفى ١٨٢٢ تأسست دولة ليبيريا من مجموع السود العائدين إلى أفريقيا. وفى أول عام ١٨٣١ بدأ أمريكى يدعى ويليام لويد جاريسون، من بوسطون، حملة لتحرير العبيد فى أمريكا، وأصدر صحيفة "المحرر" "THE LIBERATOR"، ثم تأسست عام ١٨٣٣ أول جمعية للدعوة إلى تحرير العبيد وإلغاء الرق[١].

(1) THE WORLD ALMANAC& BOOK OF FACTS 2000 NEW YORK TIMES.

و قد لعبت سيدة أمريكية تدعى هارييت بيتشر سنو دورا أساسيا فى إذكاء المشاعر المعارضة للاسترقاق، وإثارة التعاطف مع العبيد عندما أصدرت عام ١٨٥٢ رواية عنوانها "كوخ العم توم"، لقيت رواجاً كبيراً واستخدمها المناهضون للرق سلاحا قويا فى دعايتهم[1].

و فى إنجلترا تأسست لجنة معارضة الرق فى لندن عام ١٧٨٧، وتكررت محاولات إصدار قانون بمنع تجارة العبيد على يد لورد إنجليزى يدعى ويليام ويلبرفورس، الذى تقدم أكثر من مرة باقتراح بذلك إلى البرلمان الإنجليزى، لكن البرلمان الإنجليزى كان يرفض الاقتراح بإجماع الآراء ! ولم يصدر قانون بمنع هذه التجارة فى الامبراطورية البريطانية إلا عام ١٨٠٨م، وقد ظل ويلبرفورس يسعى حتى صدر عام ١٨٣٣ قانون بتحرير العبيد فى كل الممتلكات البريطانية، وقد دفعت الحكومة

---

(1) Harriet Beecher Stowe"UNCLE TOM,S CABIN".

البريطانية في ذلك الوقت مبلغ عشرين مليون جنيه إسترليني كتعويضات لأصحاب هؤلاء العبيد[1].

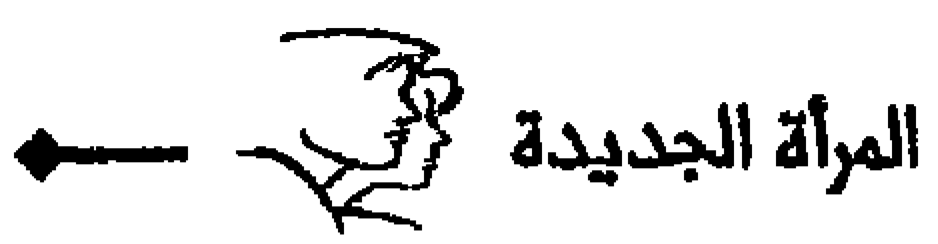
ولاشك أن التطورات الجذرية التي أحدثتها الثورة الصناعية في أوروبا، ثم الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر (١٧٨٩)، وتراكم المعرفة الإنسانية والتقدم العلمي قد أحدثوا تغييرا في الفكر الإنساني، وانتشرت فكرة الحرية والمساواة بين كل المواطنين في كتابات سان سيمون (١٧٦٠- ١٨٢٥) وجون ستيوارت ميل (١٨٠٦-١٨٧٣)، وكارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) ثم ثورة الفلاحين الذين طالبوا بالإصلاح الزراعي عام ١٨٤٨، نفس العام الذي صدر فيه المانيفستو الشيوعي لماركس وإنجلز.

وفي عام ١٨٥٠ وافق الكونجرس الأمريكي، على ضم كاليفورنيا الولاية ٣١ للولايات المتحدة الأمريكية بشرط

---

(١) تاريخ إنجلترا جورج ماكولاي تريفيليان. الطبعة السابعة صفحة ٦٣٨.

امتناعها عن تجارة العبيد، وقوبل هذا القرار بمعارضة شديدة. وأخيرا صدرت الإتفاقية الدولية لإلغاء الرق عام ١٨٥٥م، وكانت هذه الاتفاقية سببا فى اندلاع الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد اشتعل الصراع المسلح بين المؤيدين والمعارضين للرق عام ١٨٥٦ بزعامة جون براون، الذى تم شنقه على يد البحرية الأمريكية فى الثانى من ديسمبر ١٨٥٩ بتهمة الخيانة العظمى، وفقد العديد من اتباعه حياتهم. وأصدرت المحكمة العليا فى ١٨٥٧ قرارا بأن العبيد لا يمكن أن يكونوا أحرارا فى ولاية حرة، والكونجرس ليس من حقه منع تجارة العبيد فى المقاطعات، وأن السود لا يمكن أن يصبحوا مواطنين أمريكيين. وفى ابريل ١٨٦١ اشتعلت الحرب الأهلية الأمريكية وأعلن الرئيس الأمريكى ابراهام لينكولن رسميا تحرير العبيد الأمريكيين أول يناير عام ١٨٦٣م، ولكن بعض المواطنين الأمريكيين المعارضين لتحرير العبيد، لم يقبلوا ذلك بسهولة، ووصل الأمر ببعض المشاغبين أنهم



كانوا يقومون بشنق من يعثرون عليه من السود علنا ودون محاكمة فى شوارع نيويورك. وقد دفع الرئيس الأمريكى لينكولن حياته ثمنا لإصراره على تحرير العبيد ومنحهم حقوقهم الطبيعية فى المواطنة والمساواة والحرية، ففى ١٤ إبريل من عام ١٨٦٥، بعد أيام قليلة من انتهاء الحرب الأهلية بهزيمة واستسلام الجنوب الأمريكى الرافض للمساواة، أطلق ممثل الرصاص على الرئيس لينكولن أثناء مشاهدته مسرحية على مسرح فورد. ورغم ذلك تم إقرار وثيقة إلغاء الرق فى الولايات المتحدة الأمريكية باصلاحاتها فى ٦ ديسمبر ١٨٦٥.

*******

# من أسر الحريم إلى أسر الحكومة

بينما كان الرق فى الغرب يلفظ أنفاسه الأخيرة طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر، ظل فى بلاد المشرق يعتبر من أمور الحياة الطبيعية، وعندما صدرت معاهدة برلين الدولية لإلغاء الرق عام ١٨٥٥ امتنعت الدولة العثمانية عن التوقيع عليها بحجة أن الإسلام لا يحرم الرق. وظلت الدول الإسلامية ممتنعة عن التوقيع على معاهدة الرق الدولية حتى انهارت الامبراطورية العثمانية.

وقد اشتهر سلاطين الدولة العثمانية بتنافسهم على حيازة الأرقاء، من ذكور وإناث، والاحتفاظ فى حريم قصورهم بأكبر عدد من الجوارى والمحظيات، ومن المعروف أن أمهات السلاطين العثمانيين جميعهن كن من الجوارى الشركسيات أو الكرديات أو الروميات أو البلغاريات أو الأرمينيات دون التركيات .. وقد سار حكام مصر على نهج

العثمانيين، فكان محمد على باشا يحتفظ بثلاثين جارية فى حريمه، وعدد من الأغوات، وكانت قصور الأثرياء من الأتراك والمماليك وغيرهم تزدحم بالجوارى والأغوات الذين أعتُبرت كثرتهم من مفاخر الثراء، ودلائل العز والأبهة.

لم يكن الأرقاء يلقون فى المشرق الإسلامى المعاملة القاسية نفسها التى أدت إلى انتحار الزنوج الأمريكيين، وثوراتهم المتتالية على السادة البيض. فالرجال منهم كانوا الأيدى العاملة فى المزارع والمراعى وداخل القصور، وكانو المحاربين والأتباع الذين يصل ولاؤهم للسيد إلى حد الموت فى سبيله. أما الجوارى فقد أحتُفظ بهن داخل الحريم على أن تكون مهمة صغيرات السن الجميلات إشاعة المرح والتسلية فى قصر السيد، وإشباع الرغبات الحسية له ولأصدقائه، والمحظوظات منهن قد يتزوجن من السيد، وقد ينجبن له الوريث أو ولى العهد. ولابد أن حلم البيع لسيد شاب وسيم على قدر كبير من الثراء كان يراود

فتيات العصور الماضية الفقيرات، كما تراودهن اليوم أحلام الخلاص عن طريق الشهرة الفنية، فالفجوة بين الأثرياء والفقراء فى تلك الأزمنة كانت أبعد مما يصل إليه خيالنا اليوم. وكانت بعض الجوارى اللاتى يجلبن من الشمال على قدر كبير من الجمال والثقافة، الأمر الذى أجبر سادتهن على معاملتهن معاملة لم تكن تحظى بها الزوجات الشرعيات. ثم أن وضع المرأة بشكل عام لم يكن أفضل من وضع العبيد ولا كانت النظرة اليهن تختلف كثيرا، على العكس قد يطلق الرجل زوجته الشرعية فتعود إلى أهلها ذليلة محسورة، وتعانى من وضعها كمطلقة بقية عمرها، أما الجارية فكان إذا مَلَّ منها أهداها لصديق أو أعاد بيعها، وقد تجد حظا أوفر مع السيد الجديد .

ومن أمثلة الفرص التى قد تتاح للجارية، وتجعلها تتفوق على الحرة، ما حدث بمصر عام ١٨٣٢م، عندما أنشأ الأمير محمد على مدرسة القابلات (الدايات والحكيمات) فى مصر بمعاونة الطبيب الفرنسى كلوت بك، والتى تعتبر

أول مؤسسة تعليمية مصرية حكومية للنساء فى الشرق الأوسط، وقد فشلت كل الجهود فى إقناع العائلات المصرية بإلحاق بناتهن بالمدرسة. فما كان من الباشا إلاّ أن أرسل بعثة من الموظفين إلى أسواق الجوارى لشراء عدد من الجوارى الحبشيات والسودانيات ليكن الدفعة الأولى من خريجات المدرسة، وأمر بتعيين اثنين من خصيان قصر القلعة لحراستهن فى مقر إقامتهن الجديد الملحق بمستشفى أبى زعبل. وبعد ثلاث سنوات ظل عدد التلميذات بتلك المدرسة أقل بكثير من المطلوب فاشترت الحكومة عشر فتيات أخريات من سوق الجوارى وألحقتهن كطالبات بالمدرسة ليصل العدد إلى عشرين، ثم أخذت الحكومة عشر فتيات من ماريستان (مستشفى) المنصورى، وهى تكية للفقراء منذ العصور الوسطى، وكانت تلك الفتيات قد أرسلن إليها للعلاج، ولم يتسلمهن ذويهن ثانية[1].

(١) (الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط) تحرير ليلى أبو العز. مقال: المرأة والطب السلطة فى مصر فى القرن التاسع عشر: خالد فهمى، ترجمة داليا بسيونى.

كانت الطالبات يتلقين العلم على يد سيدات فرنسيات فى البداية، ثم عينت إحداهن، وتسمى تمرحان، كمساعدة للناظرة عام ١٨٤٧. وأثبتت تمرحان قدراتها كحكيمة فذة، وأصبحت رئيسة مدرسات المدرسة عام ١٨٥٧، وظلت تشغل هذا المنصب حتى وفاتها عام ١٨٦٤، فخلفتها ظريفة عمر. كانت الخريجات يتقاضين مرتبا كبيرا أثناء الدراسة ثم بعد التخرج مرتبا أكبر بالنسبة لذلك الوقت: ٢٥٠ قرشا شهريا ورتبة عسكرية (ملازم ثان) مثل زملائهن الرجال، ووسيلة انتقال (فى العادة حمار) ومقر إقامة، ومنصب فى المؤسسة الصحية العلاجية.

وتشكل خريجات تلك المدرسة التى أحدثت طفرة فى حياة بعض العبيد من الإناث أول دفعة موظفات فى الحكومة المصرية. لقد كانت الحاجة ماسة إليهن لدرجة أن كلوت بك أمر بتعيين ستة منهن كطبيبات بالقاهرة، وذلك من قبل أن يتخرجن !! وقد ظلت الطالبات توزعن وقتهن ما بين الدراسة والوظيفة، وعندما كانت إحداهن تصاب بأى

مرض، وتضطر للتغيب عن العمل، لم يكن لدى المسئولين من يحل محلها، ولم تكن مهمتهن سهلة بل كن يعهد إليهن بالعديد من المهام مثل الإشراف على الدايات التقليديات، وتدريب الجديدات منهن والتوقيع على تصاريح عملهن وإجبارهن على إمداد السلطات بالعدد الحقيقى للمواليد، وكن يقمن بفحص جثث الموتى من النساء وتحديد أسباب الوفاة لعمل تصاريح الدفن أو إبلاغ السلطات عند الاشتباه بوقوع جريمة، وأحيانا كان يطلب منهن التأكد من عذرية الفتيات اللاتى هربن من بيوت أهلهن ..

وقد قوبل عمل النساء فى المؤسسة الطبية باستياء من عامة الشعب ونُظر إليه كبدعة، وأثير حول أعمالهن الكثير من الجدل، خصوصاً من قبل علماء الدين، ولم يكن المصريون، قبل القرن التاسع عشر، معتادين على تدخل الحكومة فى حياتهم وأجسامهم عن طريق تسجيل المواليد والتطعيم ضد الأوبئة والحجر الصحى وتشريح جثث الموتى .. إلخ.

وفى عام ١٨٧٧ وقعت حادثة أثارت جدلاً كبيراً حول عمل الحكيمات وحول الطب الحديث وموظفى وزارة الصحة والدولة بشكل عام. فقد توفيت سيدة فى منتصف العمر تدعى زهرة بنت سيد أحمد، واشتبه ابن المتوفاة، صانع أحذية، فى أن تكون الوفاة جنائية نتيجة لما أشيع من أن زوج بنت زهرة كان يضربها بقسوة لتدخلها فى خلاف بينه وبين زوجته، ولكن الحكيمة آمنة، المسئولة عن الحى، كتبت تقريرا يفيد خلو الجثة مما يدل على شبهة جنائية، وبدلا من أن تثبت على رأيها أفادت بأن أهل المتوفاة إذا كانوا يشكون فى ذلك فعليهم تحويل الجثة إلى القصر العينى لكى يتم تشريحها، وهنا تراجع الابن عن توجيه الاتهام إلى زوج أخته ودفن جثة والدته. ولكن الشكوك عاودته مرة أخرى فطلب تشريح الجثة، على يد رجل بالطبع، وتم ذلك فعلاً، وأثبت المشرح وجود آثار لتعرض زهرة للعنف، كان سبباً للوفاة.

ورغم ذلك قدم الابن طلبا بإسقاط التهم عن زوج

أخته، وأقر هو وأخته بأن أمهما كانت مريضة منذ فترة وأنها توفيت بالقضاء والقدر. ولكن الحكومة لم تتنازل، وقدم كل من المتهم، زوج الابنة، والحكيمة، للمحاكمة وصدر الحكم بحبس الحكيمة عشرة أيام ثم عُدل إلى خصم من راتبها. وعندما استأنف المتهم حكما يحبسه لمدة عام في الليمان، قضت محكمة الاستئناف بسجن الحكيمة آمنة لمدة شهر في سجن النساء في بولاق ورُفعت مدة سجن المتهم إلى عامين، واستأنفت آمنة فقضت المحكمة العليا بتحويلها إلى مجلس صحي وبتخفيف العقوبة على المتهم إلى عام واحد، كان قد قضاه بالفعل، فأُطلق سراحه. وضعت هذه المحاكمة عمل الحكيمات كله رهن المساءلة وأثبتت قدر المعاناة اللاتى كن يواجهنها.

لقد تسببت البداية الشاذة لعمل المرأة كممرضة فى مصر إلى تعقيدات ومشاكل مازالت باقية إلى يومنا هذا، فقد كان من العسير على مجتمع طبقى أن يثق فى قدرات نساء قادمات من أدنى المراتب الاجتماعية: العبيد ونزيلات

مستشفى المشردات، وأن يعترف بمكانة لهن تفوق مكانة الرجال، لمجرد أنهن درسن فى مدرسة جديدة كانت تعتبر بدعة وأمرا غير مقبول.

وهناك قضايا كثيرة تثبت أن أولئك الحكيمات كن يعانين من المؤسسة الطبية ومن المجتمع ومن أزواجهن. ولأنهن كن بلا أهل، فقد قامت الحكومة بدور الأب وكانت تحجزهن داخل المدرسة، فلا يفارقنها إلا إذا تزوجن، وكان الزواج لابد أن يتم عن طريق المؤسسة الطبية، وحتى إذا رغبت إحداهن فى الطلاق، كانت تلك المؤسسة تتدخل، وتعقد جلسات الصلح بين المتخاصمين، وتحكم بالطلاق أو عدمه، وتقضى بأن تتخلى الحكيمة عن نصف راتبها للزوج، وتحتفظ لنفسها بالنصف الآخر. وهكذا بدلا من أن تتحرر العبدات إذا بهن يدخلن فى أسر جديد أشد وطأة من أسر الحريم ... هو أسر الخكومة ..

******

# حكاية الباشوات والجوارى

لما تولى الخديوى إسماعيل حكم مصر كان متأثرا إلى أقصى حد بالفكر الأوروبى وعزم على أن ينضم إلى حركة المطالبين بتحرير الأرقاء، وبالفعل أصدر أمرا إلى حكمدار السودان عام ١٨٦٣م بتعقب تجار الرقيق ومنعهم بالقوة من ممارسة تجارتهم المحرمة، ونفذ الحكمدار أوامر الخديوى فضبط سبعين سفينة مشحونة بالأرقاء واعتقل التجار الذين جلبوهم، أما الأرقاء فقد أطلق سراحهم وأعادهم إلى بلادهم. وفى عام ١٨٦٥ احتل الجيش المصرى بلدة فاشودة لكى يسد الطريق على تجار الرقيق، ووضع بها نقطة حربية دائمة لمنع تجارة الرقيق. وفى ٤ أغسطس عام ١٨٧٧م، أرغمت الحكومة البريطانية الخديوى إسماعيل على توقيع معاهدة معها للتعاون على منع الاتجار بالرقيق فى مصر والسودان، وقد كانت تلك المعاهدة أحد الأسباب الرئيسية لقيام الثورة المهدية فى السودان، خاصة

وأن الخديوى إسماعيل أسند رئاسة مقاومة الاتجار بالرقيق لأجانب ومن بينهم الكولونيل جوردون، الذى أثار مشاعر التجار الذين جمعوا ثروات طائلة من تجارة الرقيق، وكانت طبقة الأعيان، التى تعتمد عليها مصر فى السودان، تستخدم الرقيق كعمال للزراعة ورعى الماشية، وقد انضم هؤلاء إلى المهدى فى عهد الخديوى توفيق، وكانوا سببا فى نجاح ثورته التى تذرع بها الإنجليز لكى يستولوا على السودان ويحتلوه ويستغلوا ثرواته لصالحهم.

الغريب أنه رغم تلك الجهود للتخلص من الرق فإن الخديوى إسماعيل نفسه ظل محتفظا بحريمه ومحظياته حتى آخر أيامه فى مصر، وكان يتكون من أربع عشرة امرأة بين زوجة ومستولدة، وقد تسبب هذا العدد الكبير فى أزمة عند رحيل الخديوى إسماعيل منفيا إلى أوروبا، فلم يكن فى مقدوره أن ينفق على ذلك العدد الضخم من الجوارى والمحظيات وأبنائهن، وبالتالى اضطر لأن يوزع العديد منهن على أقاربه من العائلة المالكة ورجال الحاشية

ليتزوجوهن وينتهى بذلك عصر الحريم في مصر. وابتداء من الخديوى توفيق سيتم تصفية الحريم فى مصر إلى الأبد وسيتخذ سلاطين وملوك مصر زوجة واحدة. ففى عصر توفيق أصبح للقصر الملكى سيدتان فقط هما والدته جلفدان هانم وزوجته الأميرة أمينة بنت الهامى باشا حفيد عباس حلمى الأول، ولما توفيت والدة الخديوى توفيق فى ١٨ مارس ١٨٨٤م انفردت الأميرة أمينة بسيادة البلاط الملكى حتى وفاة زوجها عام ١٨٩٢م، وكانت تحضر معه بعض الاحتفالات الرسمية، وعروض الأوبرا، وتقيم حفلاتها أو استقبالاتها الخاصة، وفى ٢١ يوليو ١٨٨٥م أنعم عليها الخديوى "بنيشان" (الشفقة) فى احتفال كبير.

ويبدو أن الأثرياء المصريين لم يرحبوا كثيرا بالقانون الجديد الذى لم يتقيد به الخديوى إسماعيل نفسه، وألقوا به عرض الحائط، واستمرت عمليات بيع وشراء النساء والأطفال بمصر رغم صدور المعاهدة الثانية لمنع الرقيق فى بروكسل عام ١٨٩٠م. إلى أن وقعت حادثة قلما يشار

لها فى كتب التاريخ المصرية رغم أنها كان لها تأثير كبير على تاريخ الرق فى مصر.

وقعت الحادثة عام ١٨٩٤م فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى حفيد إسماعيل، عندما حضر إلى مصر عن طريق الواحات خمسة من تجار الرقيق (النخاسين) ليبيعوا ست جاريات سودانيات، بضاعة حاضرة جاهزة للبيع[١]. ووصلت الأنباء إلى باشا مصرى يدعى على باشا شريف، كان يرأس المجلس التشريعى، فنسى القانون على الرغم من موقعه الخطير، ورحب بتجار الرقيق . ويبدو أن الصفقة كانت مغرية اذ أنه لم يكتف بشراء جارية لبيته بل اشترى ثلاث جاريات. أما الجاريات الثلاث الأخريات فقد اشتراهن الدكتور عبد الحميد بك شافعى، الذى احتفظ لنفسه بواحدة وأرسل الثانية للشواربى باشا، والثالثة إلى منزل حسين باشا واصف مدير مديرية أسيوط .

(١) مذكرات الأميرة جويدان سعد رضوان كتاب الهلال العدد٣٥٦ أغسطس ١٩٨٠.

كان الإنجليز قد أنشأوا بمصر "مصلحة الرقيق"، لرعاية شئون الرقيق وبحث أحوالهن وما استتبع تطبيق قانون إلغاء الرقيق من إجراءات ومشاكل، وكان يرأس "مصلحة الرقيق" فى ذلك الوقت ضابط إنجليزى يدعى شيفر بك، ومن حسن الحظ أن ضابطا مصريا يعمل بمصلحة الرقيق يدعى (اليوزباشى) محمد ماهر، علم بنبأ تلك الصفقة، فتوجه إلى حيث يقيم التجار الخمسة وألقى القبض على أربعة منهم، بينما استطاع الخامس أن يهرب. وتوجه الضابط بعد ذلك إلى منزل الدكتور الشافعى الذى اعترف بشراء جارية وإرسال الإثنتين الأخريتين إلى صديقيه. واعترف التجار ببيع الجاريات إلى الباشوات المصريين، فتوجه (اليوزباشى) محمد ماهر إلى بيت رئيس المجلس التشريعى على باشا شريف، وطلب التحقيق معه، ولكن الباشا تذرع بحصانته البرلمانية ورفض التحقيق. ورفع (اليوزباشى) محمد ماهر تقريرا بذلك إلى رئيسه الإنجليزى شيفر بك، فاستدعى الباشا إلى مكتبه، ووجه له

تهمة الاشتراك فى الاتجار بالرقيق، فطلب الباشا الاتصال بالخديوى عباس الثانى أو الإبراق له ولكن الضابط الإنجليزى رفض. وعندئذ لجأ الباشا إلى حيلة كان يلجأ اليها أثرياء مصر فى ذلك العهد، وهى الاحتماء بسفارة أجنبية بحجة أنه أحد رعاياها، حتى يتمتع بالامتيازات الأجنبية التى لم تكن قد ألغيت بعد. واتصل الضابط الإنجليزى بسفارة إيطاليا التى زعم الباشا أنه أحد رعاياها. وتشكلت محكمة عسكرية فى ٤ سبتمبر ١٨٩٤م لمحاكمة كل من اشترك فى الجريمة: النخاسين والجوارى والباشوات. وأرسلت المحكمة إلى القنصلية الإيطالية لتسألها هل الباشا المصرى يتمتع بحمايتها أم لا ؟ فردت القنصلية الإيطالية بأن الباشا وإن كان قد قيد نفسه بدفاترها كرعية إيطالية إلاّ أنه لم يدفع الاشتراكات المفروضة على الرعايا الإيطاليين منذ عدة سنين، وعليه فهو لا يعتبر أحد رعاياها !!

وفى ١٣ سبتمبر أصدرت محكمة عسكرية حكمها

بإدانة الدكتور عبد الحميد الشافعى وحبسه مع الشغل، وكذلك إدانة على باشا شريف رئيس المجلس التشريعى بتهمة الاتجار بالرقيق وبراءة الجوارى !

وعندما وصل الحكم إلى على باشا رفع استقالته من رئاسة المجلس التشريعى إلى الخديوى عباس، ليس لارتكابه تلك الجريمة وإنما بحجة مرضه، وطلب العفو من الخديوى فأعفاه.

*******

# الأميرة الثائرة

عندما رغب الخديوى عباس الثانى (الذى حكم مصر من ١٨٩٢م - ١٩١٤م) فى الزواج حاولت أمه أن تزوجه من أميرة عثمانلية ولم تفلح، فقد رفضت كل الأميرات التركيات التنازل وقبول الزواج من خديوى مصر، اللاتى كن يعتبرنها أقل منزلة وتحضرا من بلادهن، وتزوج من جارية بيضاء تدعى إقبال هى أم أولاده، وبعد فترة طلق تلك الجارية وتزوج من سيدة أجنبية تدعى جويدان.

ومن حسن الحظ أن هذه الزوجة تركت بعض مذكراتها التى تصف فيها حياة مجتمع مصر فى بداية القرن العشرين. كانت سيدة مثقفة تحمل معها عددا كبيرا من الكتب وهى مسافرة، وقد درست اللغة العربية وتعمقت فى دراسة القرآن الذى درسته على يد مستشرق يدعى "هس" وكانت ترفض الفوارق بين الطبقات وتتجاهل الاختلافات العنصرية والعقائدية، وكانت عاشقة لزوجها.

وأهمية مذكرات الأميرة جويدان أنها تعطى صورة للحياة داخل القصور المصرية وعلاقة حكام مصر وأمرائها بزوجاتهم وبأفراد الشعب المصرى. تصف الأميرة جويدان زوجها الخديوى عباس فى مذكراتها قائلة:

"كنت أدهش لمنظر وجهه .. إنه وجه جميل، تنبعث من عينيه الرماديتين نظرة حادة، وكان حاجباه يشعران بالشك، ولكن كم كان يتغير هذا الوجه عندما يبتسم، فإنه يصبح جذابا .. ولم أر مثل هذه الجاذبية فى وجه غير وجهه، وكان فمه أجمل شىء فيه، فإنه كان يشبه فم الأطفال، وعندما كنت أقول له ذلك كان يضحك كالأطفال، ثم يقول لى (يا طفلتى) ثم يعقب هذا مداعبا بقوله: "يا عروستى الصغيرة" وفى الواقع كنا نلعب كالأطفال، فكنا نلعب كثيرا مع الكلاب التى كنا نحبها على السواء، وكنا نتسابق فى الغرف والممرات، ويجرى الواحد إثر الآخر، وكنا أحيانا نشرب القهوة بصوت عال جدا كما لو كنا من العامة أو نلفظ نواة تمر الكريز من الفم لنرى أينا يستطيع قذفها

أبعد من الآخر، ولا ضرر فى ذلك فإنها كانت تقع فى حديقتنا، وغاية ما هناك كان الحراس يندهشون. باختصار كنا نحب بعضنا" [1].

وتصف الأميرة جويدان فى مذكراتها حفل زفاف فتاة من الطبقة الموسرة :كانت العروس فى الثالثة عشرة من عمرها ومصابة بالتهاب رئوى حاد ومع ذلك قرر الأهل ألا يرجئوا حفل الزفاف حتى لا يتكبدوا خسائر باهظة بعد أن أتفقوا مع "الأجواق" التمثيلية والمطربين والراقصات، "أضف إلى هذا أن المصريين جميعا يتشاءمون من تأخير الزفاف عن موعده".

وذهبت الأميرة إلى الحفل فذُبحت الذبائح أمام عربتها إكراما لها، وقدمت لها مرآة مرصعة بالجواهر لتتفقد زينتها، واستقبلتها أم العروس وأم العريس وتقول

---

(١)(مذكرات الأميرة جويدان زوجة الخديوى عباس الثانى) بقلم الأميرة جويدان كتاب الهلال العدد ٣٥٦.

الأميرة: "ولم أستطع منع النساء من تقبيل ثوبى وسرت بين مظاهر الترحيب والسلام إلى الصالون الذى أعدوا لى فيه مقعدا كبيرا مغطى بالكشمير، وجلست باقى السيدات على وسائد من حرير (على الأرض طبعا).. وأخيرا رأت الأميرة العروس التى كانت ترتدى" ثوبا من الأطلس موشى بالذهب وعلى رأسها تاج مرصع بالجواهر يتدلى من تحته نقاب يشمل كل جسمها، وفى هذا النقاب أربعة أحجار كريمة عند الجبهة والذقن والخدين ..".

تصف الأميرة حفل الزفاف بالتفصيل ثم تقص على قرائها أغرب هدية تلقتها فى حياتها:

"وفى هذه الليلة وقع ما أدهشنى وعقد لسانى، ولأول مرة فى حياتى أغلق على فلم أعرف ماذا أصنع !!

انحنت أمامى زوجة أحد الوزراء وقالت "يا صاحبة السمو، لقد عجزت عن اختيار هدية تعجب سموكم، فعندكم كل ما تشتهى الأنفس، وليس لى إلاّ أن أقدم لكم

أعـز شـىء عـندى" ويظهـر أن السيدات كـن يعـرفن هـذه الهدية النفيسة، لأنهن كن يتبادلن النظرات !!

ذهبت الهـانم وعـادت تقـود طفـلا صـغيرا فـى يدهـا، يبلغ من العمر خمس سنوات .. أنه طفلها .. ومع ذلك فهى تقدمه هدية لى .. !! "وتحكى الأميرة كيف عقدت الدهشة لسـانها" مـن ذا الـذى يتصـور أن الأطفـال تدخـل فـى بـاب الهدايا .. والسيدة التى أهدتها طفلها لا تعرفها ولا تعرف عـنها شـيئا سـوى أنهـا زوجـة الخديـوى. ويـبدو أن الأمـيرة اضـطرت لقـبول "الهديـة"، واصـطحبت الطفـل معهـا فـى نهاية الحفل. "ولما علم الخديوى بمجمل القصة امتعض فى نفسـه، وأصـبح الطفـل حمـلا ثقـيلا علـينا، ولم نـدر كيف نخلص مـن هـذا الموقف، إلى أن أنقـذ الطفـل نفسـه، فإنـه بعد ثلاثة أيام امتنع عن الطعـام وأكثر مـن البكاء، طالبا أمـه التى تخلت عنه لغرض فـى نفسـها .. فأعدته إلى أمه ومعه عربتان محملتان بالهدايا".

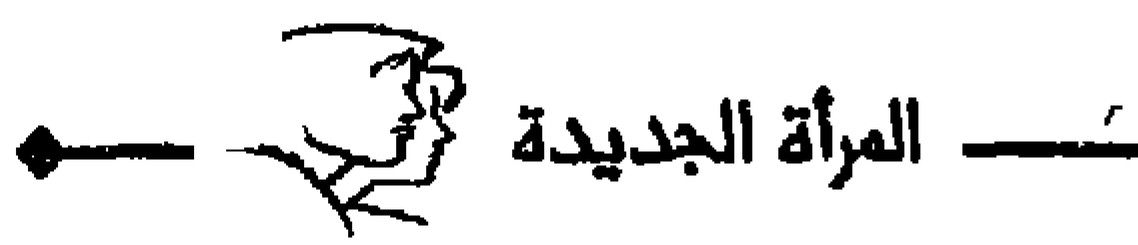
ورغم ثقافة الأميرة جويدان، وذكائها، وحيويتها، ورغم أنها كانت تدخن بشراهة، بل تفتتح إفطار رمضان على سيجارة كبيرة، إلاّ أنها كانت تضطر للتنكر فى زى سكرتيرة أو راهبة، أو ممرضة لكى تصحب الخديوى فى جولاته، فلم تكن التقاليد تسمح للشرقى، حتى ولو كان حاكما، أن يصحب زوجته فى جولات العمل. وقد فرضت التقاليد على الأميرة أن تعيش وحدها فى سراى "مسترد" ويعيش الخديوى فى سراى القبة. ولهذا كانت تعتبر بيتهما الحقيقى سراى (شويكلى) فى القسطنطينية (إستانبول)، فقد شيدت تلك السراى تحت أعينهما وعنايتهما معا منذ كانت رسما على الورق ، وهى المكان الوحيد الذى كانا يقيمان فيه معا. وكان من الممنوعات ذكر الحريم فى الحديث بين الرجال، وبلغ السلطان عبد الحميد، "ظل الله على الأرض" أن الخديوى المصرى الشاب يصحب زوجته إلى أوروبا فأفهمه أن هذا لا يليق إطلاقا. ولم تستسلم جويدان لهذا، وهى تتعجب فى مذكراتها: "ما للسلطان

ومالى ؟ لم يتعرض لحياتى ورحلاتى وأعمالى ؟ ما شأنه فى هذا ؟ لن أفكر لحظة واحدة فى التنازل" وكان الخديوى يقول لها : افعلى ما تريدين يا عزيزتى ..

"ثم جاء يوم الرحيل (من إستنبول)، وكان مقررا أن الخديوى بعد أن يستقبل زائريه الرسميين يذهب مع حاشيته إلى محطة (جالاتا)[1] لركوب قطار الشرق السريع، وقبل موعد السفر بساعتين غادرت (سراى) شويكلى فى زورق بخارى .. ولما وصل الزورق إلى محطة (جالاتا) خرجت منه سيدة أوروبية ترتدى أحدث الأزياء الباريسية (هى الأميرة)، "أسرعت إلى القطار فاستقبلنى الكلب (بوللى) بفرح شديد وهو يثب حولى، ولكنه دهش للقبعة التى لم يألف رؤيتها فأخذ يشمشم فيها مستغربا".

وتختتم زوجة الخديوى عباس الثانى مذكراتها بأربعة فصول عن "الحريم" فتقول فى بدايتها "لو كنت باشا لتركت جميع الجوارى فى قصرى عذارى حتى تنتهى

(١) جالاتا: كلمة تركية تعنى غلطة.



حياتهن التعسة، ولا أفهم مطلقا كيف أن رجلا يملك قليلا من حسن الاختيار ورقة الذوق يستطيع الاعتداء على هذه المخلوقات الذليلة المسكينة .. أشباه النساء اللاتى يتوارثهن الأقرباء بعضهم عن بعض واللاتى ينظر إليهن كمتاع جامد لا حياة فيه". وتقارن الأميرة حياة الحريم بما شرعه الإسلام من كرامة وحرية للمرأة فتجدها تكاد تتناقض مع تعاليم الدين الحنيف ثم تتساءل فى أسى فبأى حق بعد هذا تسمى تلك الدور حريما تشبيها بالكعبة والبيت الحرام ؟ ولو أنصفوا لسموها (بيوت الشرور) ولو اطلع النبى الآن على ما يسمونه "حريما" وما افتراه السلاطين والعلماء على الإسلام لأنكرهم جميعا وبرأ الإسلام منهم. وتقول "كل هذه التعاليم القديمة التى نص عليها الإسلام لعبت بها يد الذين لا ذمة لهم ولا ضمير، وأصبحوا لا يخشون الله إنما يبتغون مرضاة أسيادهم وملوكهم الذين يمنحونهم المال والحياة، فأخذوا يفسرون أوامر الدين وفق الأهواء والأغراض .." [(١)].

---

(١) المرجع السابق صفحة ٨٩ – ٩٠.

إن الكثيرات من الجوارى كن يفضلن الاستمرار فى الحريم على الانطلاق إلى الحرية، ذلك أن الناس فى تلك العهود لم يكونوا يتمتعون بأى قدر من الحرية، وكان الرجل المصرى نفسه محروما من أغلب الحقوق المشروعة ومنها المشاركة فى حكم بلاده، وكان ينظر للحاكم على أنه ظل الله على الأرض، حتى أن أمير الشعراء أحمد شوقى ألف قصيدة فى نهاية عام ١٩٠٠ فى مدح الخديوى عباس يهنئه على حلول شهر رمضان المعظم كان مطلعها:

**عباس ظل الله في مصر ❖ ومجمل الإسلام في العصر**

كانت النساء تسكن داخل الحريم، بينما كان الحريم يسكن فى عقول الرجال. ولعل هذا ما يفسر الحنين الذى لا يزال يراود الكثير من الرجال والنساء ..حتى يومنا هذا إلى عصر الحريم .. !!

وفى مذكراتها تهاجم الأميرة جويدان سلاطين العثمانيين بشدة الذين كانوا يطلقون على أنفسهم لقب

"ظل الله على الأرض" فتقول: "إن الباحث المتعمق فى أعمال السلاطين العثمانيين لا يرى فى أعمالهم أظهر من الخنق والشنق والتسميم والإغراق والحبس، فقد كانوا يعتقدون أن هذه الأساليب تمهد للسلطة وتوطد مركز الخليفة لأنها تبعد المنافسين من الطريق وكانت أنجح الطرق للتخلص من المزاحمين" ومنذ السلطان محمد الفاتح سُن قانون يجعل قتل إخوة السلطان ركنا من أركان حفل تتويجه وقد ظل هذا القانون ساريا لمدة أربعمائة عام حتى إلغاه السلطان عبد المجيد...!

"فالدين لم يقض بغطاء الرأس والوجه وإخفاء الشعر، وإنما جعل ذلك بعض السلاطين غيرة منهم على النساء، والدين لم يأمر النساء إلا بستر أجسامهن لأنهن كن - فى عهد النبى - يسرن بصدور مكشوفة وملابس لا تغطى كل أجسامهن، ولو أن عادة غطاء الرأس كانت معروفة أو جاء بها الإسلام لما استطاع النبى أن يرى زينب زوجة زيد وهى تمشط شعرها فأحبها، وقد ذكر ذلك فى

القرآن : ﴿ وتُخفِي فِي نَفسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ (١).

*******

(١) المرجع السابق.

# الخديوى عباس حلمى الثانى

قليلون من يتذكرون جيدا الخديوى عباس حلمى الثانى أكبر أبناء الخديوى توفيق والحاكم السابع من سلالة محمد على والخديوى الثالث والأخير، وابن عم الملك فاروق آخر ملوك مصر، وذلك على الرغم من أنه عاصر فترة من أخطر وأعقد فترات التاريخ المصرى، وترك لنا مذكراته حول كل ما مر بها من أحداث. ويكفى أن نتذكر أن حكم هذا الخديوى الشاب مر بأحداث مثيرة مثل صعود نجم الزعيم الشاب مصطفى كامل ووفاته ، وتوقيع اتفاقية السودان التى خولت لإنجلترا رسميا حق الاشتراك فى إدارة شئون الحكم فى السودان ورفع العلم الإنجليزى جنبا إلى جنب العلم المصرى فى أرجاء السودان، وتعيين حاكم عام للسودان بناء على طلب الحكومة البريطانية.

ومن الأحداث الغريبة التى استوقفتنى فى أوائل عهده

أن فرمان السلطان العثمانى بإسناد الأريكة الخديوية إلى عباس فصل شبه جزيرة سيناء وما يليه شرقا عن مصر، وأضيفت إلى الحجاز، وتنبه الإنجليز إلى تلك اللعبة الخطرة، فأوعزوا إلى الخديوى الشاب أن يرفض الفرمان، أما هو فلم يجد غضاضة فى ذلك، بل صرح بأنه لا يستطيع أن يغضب السلطان !! ولكن بضغط من الإنجليز وافق السلطان أخيرا على أن يكون لمصر خط الطور وإدارته ..

وفى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى حدثت واقعة دنشواى، التى زلزلت الحياة السياسية فى مصر وأيقظت الوعى الوطنى لدى المصريين، وأنشئت الأحزاب المصرية وتأسست أول جامعة مصرية أهلية وأول نقابة عمالية فى مصر. وكان عباس الثانى رجل أعمال كبير، أقام مشروعات ضخمة ليعيد تكوين ثروته بعد أن تخلى والده عن أملاكه لكى يدفع جزءا من ديون مصر، وفى عام ١٩١٠ شق عباس شارع عماد الدين فى أرض يملكها وبنى مسرح عباس ومسرح بريتانيا وعدة عمارات وصالات

وكازينوهات منها كازينو دى بارى المشهور. وكان أول من حاول تعمير الصحراء وربط الاسكندرية ببرقة (بليبيا)، فأقام خط سكة حديد طوله ٢٣٠ كيلومتر فى مريوط على نفقته الخاصة، ثم باعه إلى الحكومة المصرية بسعر التكلفة (٨٠٠ جنيه للكيلومتر فى الوقت الذى كانت الشركات الانجليزية تتقاضى ٤٠٠٠ جنيه عن الكيلومتر والشركة البلجيكية ألفى جنيه).

وكان عباس الثانى يعشق الزراعة ويشرف بنفسه على إقامة الحدائق والمزارع والبساتين فى المنتزة وإدفينا والإسماعيلية والقبة، وفى عهده بُنى سد أسوان الذى تم تدشينه فى ١٠ ديسمبر ١٩٠٠ وتشكلت بحيرة طولها ٢٠٠ ميل تستوعب مليار متر مكعب من المياه. وبعد وفاة عباس الثانى فى جنيف فى ٢٠ ديسمبر ١٩٤٤، قدرت ثروته بنحو سبعة ملايين من الجنيهات.

وفى عصر عباس الثانى بدأ الليل الطويل ينجلى

ويتحول إلى ما يشبه النهار عندما دخلت مصابيح غاز الاستصباح لتنير شوارع الإسكندرية أولا ثم شوارع العاصمة وبقية المدن الكبرى بعد ذلك، ومع الإنارة بدأ عهد من الاستنارة، وولد العصر الذهبى للثقافة المصرية، بإصدار قاسم أمين لكتابيه "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة"، وشاهد الناس أول عرض سينمائى بالاسكندرية ثم بالقاهرة وأول مسرحية مصرية وقرأوا أول رواية أدبية، وأول مجلة نسائية بمصر، وتوالى صدور ٢٤ مجلة نسائية، منهن ستة مجلات بالإسكندرية. وفى عهده تأسست مكتبة البلدية بالاسكندرية (كتبخانة خصوصية)، والجمعية الخيرية الإسلامية.

وتمثل فترة حكم عباس الثانى بداية الصحوة الوطنية التى أعقبت عقدا من الترقب عاشه المصريون بعد الاحتلال البريطانى لمصر. ولا شك أنه وأغلب مثقفى العصر اطلعوا على أفكار داروين فى كتابه "النشوء والارتقاء"، و قرأوا كتاب المفكر الإنجليزى جون ستيوارت ميل "استعباد المرأة"، وعرفوا شيئاعن كتاب "رأس المال"

لكارل ماركس الذى ظلت مجلداته تصدر تباعا من عام ١٨٦٧ إلى ١٩١٠، وقد أثارت تلك الكتب موجة من التحرر الفكرى التى تدعو إلى حتمية التغيير والتطور وإتاحة فرص الحرية والمشاركة للجميع. وكان لها تأثيرها على الحياة فى مصر حيث بدأ المثقفون يطالبون بالدستور وبحياة نيابية صحيحة.

أورثه والده الخديوى توفيق تركة مثقلة بالمشاكل وصفها بقوله "لقد باتت مصر سوقا ضخمة تباع فيها الضمائر، وتحاك فيها المؤامرات ... فالجيش أفسده نظامه، والأرستقراطية القديمة التى نمت فى ظل الأسرة العلوية على استعداد لخيانة هذه الأسرة، وموظفوا الدولة لم تعد لديهم فكرة الواجب بل حملتهم غرائزهم صوب المصالح الذاتية أكثر من أن تحملهم صوب العمل الشريف المتجرد والتفانى فى خدمة الوطن .. والبورجوازية ناعسة والصحافة ضعيفة .. المجتمع كله فقد روحه المعنوية نتيجة لما حدث عام ١٨٨٢".

ورغم ذلك دافع عباس حلمى الثانى فى مذكراته بحرارة عن والده، الذى جلب الاحتلال لمصر، ولكنه اعترف بأن "المحيطين به كانوا لا يخدمونه بصدق ، وكان يكره العنف، ولكنه أخطأ فى استماعه إلى نصائح أولئك الذين اعتقدوا أن زيادة حقوق الأمة تعادل انخفاض قوة الأسرة الحاكمة"[(١)]. ويقول إنه كان يصدم دائما بالتفاهة الفكرية والمعنوية للوسط المحيط بوالده الخديو توفيق "وكانوا جميعا من المتقدمين فى السن للغاية وليست لهم طاقة".

وقال فى مذكراته إنه منذ وفاة والده "كنت لا أحلم إلا بتخليص مصر وحاكمها من العبودية لإنجلترا". ولم يجد مفرا من اللجوء إلى مثقفى مصر والتقرب إليهم فكان يدعو الشعراء والكتاب وشيخ الأزهر للغداء على مائدته بعيدا عن البروتوكول والرسميات، ومنهم الشاعر عثمان جلال مترجم قصص "لا فونتين"، والشيخ محمد عبده الذى

---

(١) المرجع السابق صفحة ٥١.

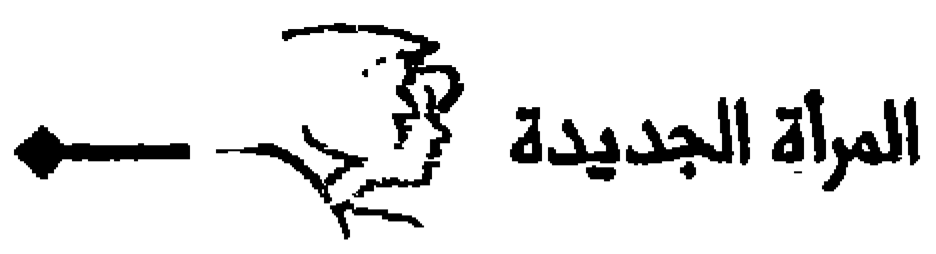
عينه مفتيا للديار المصرية، وقاسم أمين، ومصطفى كامل الذى نشأت بينهما علاقة صداقة متينة.

ومثل الزعيم مصطفى كامل احتمى عباس حلمى الثانى بالدولة العثمانية وفرنسا، ولكن حدثين أعادا له الوعى بعدم جدوى هاتين الدولتين؛ هما اتفاقية الوفاق بين فرنسا وإنجلترا عام ١٩٠٤، وحركة تركيا الفتاة فى تركيا، ولجنة الاتحاد والترقى التى يصف سياستها فى مصر بأنها كانت غير موفقة وإجرامية ، "كانت تركيا قد تخلت ، وروسيا فقدت الأمل ، وها هى ذى فرنسا وقد أغمى عليها، وحولت أنظارها المجهدة إلى مكان آخر.. للمغرب رليدها الجديد".

أدرك عباس أن سياسة اللورد كرومر، المعتمد البريطانى،: "تهدف إلى أن تظهر بوضوح أن الباب العالى وإنجلترا سيكونان دائما متحدين لعرقلة نمو الحريات واستقلال مصر"، و قد بدأ الصراع بين الاثنين منذ الأيام

الأولى لتقلد عباس الحكم، واكتشف بكل أسف ولاء المحيطين به للورد وعجزهم التام عن معاونته. ويقول عن صراعه مع المعتمد الإنجليزى "كنت وحيدا، دون تأييد وكان اللورد كرومر مدعما بدبلوماسية مستنيرة، وبوزارة لندن التى كانت تثق فيه، ويممثل بريطانيا العظمى لدى الباب العالى. ولم يكن ورائى سوى الفراغ: فلا يوجد هناك أى تنظيم، ولا أى رجال، ولا تقاليد، ولا مبادىء، ولم يكن من المسموح لى عمل إعلام، بينما كان لدى خصمى، وتحت تصرفه، البرقيات والصحافة. ولم يكن هناك من يعرف تفكيرى أبدا". وقد وصل الأمر إلى حد اتهام الخديوى عباس الأميرة نازلى فاضل بأنها كانت تحت تأثير لورد كرومر وأنها وراء تأسيس حزب الأمة برئاسة محمد محمود سليمان (عام ١٩٠٧م)، وأن الروح المحركة لذلك الحزب وجريدته هو سعد زغلول الذى بدأ تدريبه فى السياسة تحت إشراف نازلى ..!

أراد كرومر أن يكتفى الملك الشاب (١٨ سنة) بدور



الكومبارس على أن يلعب هو الدور الرئيسى، كما فعل مع والده توفيق، ولكن عباس حلمى فى بداية حكمه لم يرضخ لتهديدات كرومر، وحدثت الأزمة الأولى بينهما فى يناير ١٨٩٣ عندما رغب الخديوى فى التخلص من رئيس النظار مصطفى فهمى باشا، الذى كان يراه مستسلما تماما لسلطات الاحتلال وغير وطنى بسبب أصوله الكريتية، ومعادى لسياسة التعاون مع تركيا ويصفه بأنه "رجل الإنجليز"، ولكن كرومر تصدى له بحزم، ولجأ إلى لندن التى وجدت ذريعة لاستمرار الجيوش البريطانية "لحماية الجاليات الأوروبية وحفظ النظام فى مصر" وانتهت الأزمة بهزيمة للطرفين فقد وافقت الحكومة الإنجليزية على تغيير مصطفى فهمى، ولكن بشرط ألا يعين الخديوى حسين فخرى باشا الذى اختاره، وكان يأمل فيه كثيرا، واضطر الخديوى الشاب إلى تعيين رياض باشا رئيسا للنظار، رغم أنه لم يكن يحبه ولا يثق فى قدراته. وقد لقيت محاولته فى تعيين رئيس نظار وطنى حفاوة كبيرة من الشعب ومن

المثقفين. ثم جاءت الضربة التالية بعد عشرين يوم فقط من تلك الحادثة حينما وجه الخديوى الشاب بعض الانتقادات لقوات الجيش المصرى فى وادى حلفا، وكان قائد الجيش (السردار) كتشنر الإنجليزى، الذى اختاره عباس بنفسه وأرسل للملكة، فيكتوريا يرجوها تعيينه، ومع ذلك غضب كتشنر وقدم استقالته، وأجبر رياض باشا الخديوى الشاب على كتابة خطاب للورد كرومر يناقض تماما النقد الذى وجهه من قبل.

وظلت مناورات الإنجليز تجهض محاولات عباس للسيطرة على الجيش المصرى، الذى كان مفككا تماما، للنهوض بالبلاد، والغريب أن مصر كانت تدفع منذ ١٨٨٢ مائة ألف جنيه من ميزانيتها لتحتفظ بالجيش البريطانى فى وادى النيل[1]!! ثم رفعت بريطانيا هذا المبلغ إلى ١٣٠٠٠٠، كنفقات

(١) كان جيش الاحتلال البريطانى فى ذلك الوقت يتكون من ثلاث كتائب مشاة فى القاهرة، كتيبة فى الإسكندرية، نصفها فى ثكنات سيدى جابر، والنصف = =

للقوات البريطانية فى الخرطوم! أما عباس فيتساءل فى مرارة "ماذا كان جيش الاحتلال هذا، وما الذى كانت تستند اليه ذرائع إنجلترا، ويقوم عليه البنيان الدولى لسياستها فى مصر ؟ "مجرد فزاعة"(خيال مآتة ) وخدعة كبرى !!"

اعتبر عباس حلمى الثانى نفسه مصريا وطنيا يعشق تراب مصر. ويقول فى مقدمة مذكراته: "هذا الحب لمصر هو الذى يوجه قلمى .. إنه يبرر كل ما مكننى من أن أقف فى وجه الإمبريالى الغاشم، والمغتصب الأجنبى لكل حقوقنا المدنية، والعسكرية، والسياسية"(١). وقد وصف اللورد كرومر الخديوى الشاب بعد لقائه الأول بأنه كان "مصريا بحتا"، وقد حاول الإنجليز اغتياله على يد شاب مصرى فى إستنبول ولكن المحاولة باءت بالفشل. وأخيرا

---

الآخر فى رأس التين، وسرية فى قبرص وسفينة حربية فى ميناء الإسكندرية، اختفت بعد انتشار الطاعون .

(١) "عهدى مذكرات عباس حلمى الثانى" خديوى مصر الأخير دار الشروق ترجمة د.جلال يحيى.

أعلنت الحماية على مصر في ١٨ ديسمبر ١٩١٤ بعد بداية الحرب العالمية الأولى بستة شهور وبعدها بيوم واحد أعلنت سلطات الاحتلال البريطانية خلع عباس حلمى الثانى وتعيين عمه الأمير حسين كامل سلطانا على مصر.

******

# الخديوى والزعيم

شاب مصرى فى السادسة عشرة من عمره يؤسس جمعية "إحياء الوطن" وهو تلميذ بالمدرسة الخديوية، ثم يلتحق بمدرسة الحقوق "لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم"، يكتب المقالات فى جريدتى الأهرام والمؤيد ويخطب منددا بالاحتلال البريطانى لوطنه. ومليك يتولى الحكم وهو فى الثامنة عشرة من عمره يمتلىء حماسا وتعروه الآمال فى أن يصلح ما أفسده أبوه الخديوى السابق ويعيد الاستقلال إلى وطنه، يلتقيان ويجد كل منهما فى الآخر السند والصديق.

ولد الخديوى عباس الثانى بالإسكندرية فى ١٤ يوليو ١٨٧٤ وأعتلى عرش مصر لمدة ٢٣ عاما فيما بين عامى ١٩٩٢- ١٩١٤. وفى العام نفسه وبعد شهر واحد ولد الزعيم الوطنى مصطفى كامل فى ١٤ أغسطس ١٨٧٤ [(١)].

(١) الأمر الذى يفسر العلاقة المميزة بينهما، وقد سبقهما بعامين كل من أحمد لطفى السيد وحافظ إبراهيم، ثم ولد بعدهما بعامين الكاتب الثائر مصطفى لطفى-المنفلوطى.

بدأت العلاقة بينهما فى نوفمبر ١٨٩٢ عندما زار الخديوى الشاب (١٨ سنة) مدرسة الحقوق الأميرية، وألقى الطالب مصطفى كامل قصيدة ترحيب به قال فى مطلعها:

**بشرى الحقوق بسيد الأمراء ❖ كنز العلا عباس ذو النعماء**

**بشراك يا دار العدالة والهدى ❖ بمليك مصر وأوجد العظماء**

وقد بلغت العلاقة بينهما ذروتها بعد فترة قصيرة وأصبح للخديوى الشاب شعبية كبيرة بين المصريين حتى أن أحمد شوقى بك فى ٢٣ ديسمبر ١٩٠٠ - ١٣١٨هـ غرة رمضان الأخير فى القرن التاسع عشر أنشأ قصيدة تهنئة "لمولانا العباس المعظم" بحلول الشهر الكريم قال فيها :

**عباس ظل الله في مصر ❖ ومجمل الإسلام فى العصر**

ولكى يظهر المصريون مشاعرهم تجاه حاكمهم الشاب قرروا أن يتم فى ٨ يناير ١٩٠١ الاحتفال بعيد جلوس الخديوى عباس الثانى على الأريكة الخديوية، وقد أغلقت فى ذلك اليوم جميع دواوين الحكومة ومصالحها باعتباره أكبر عيد وطنى للأمة المصرية. وبمناسبة الشهر الكريم تكرم الخديوى المعظم

بالعفو عن الثائر الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى[1] فأعيد قيده فى الجامع الأزهر مرة ثانية.

وكان الخديوى عباس الثانى قد بدأ عهده بالافراج عن الصحفى الثائر عبد الله النديم، والعفو عنه بعد أن توسط قاسم أمين له، وبدأ النديم بعد عودته من منفاه يصدر جريدة "الأستاذ"[2]، ثم سعى التلميذ النجيب مصطفى كامل للالتقاء به والاستماع إلى أحاديثه عن الثورة العرابية، والعبر والدروس التى خرج بها بعد مشاركته فى تلك الثورة. ولم تمض شهور قليلة على ذلك اللقاء إلا وأصدر مصطفى كامل أول مجلة مدرسية يصدرها طالب مصرى هى مجلة "المدرسة" ولم يكن قد

---

(١) المنفلوطى ( ١٨٧٦-١٩٢٤) كان قد كتب قصيدة هجاء فى الخديوى عباس الثانى وسجن بسببها.

(٢) ولكنه عاد إلى الهجوم على الخديوى فأصدر الخديوى أمرا بنفيه مرة أخرى فاختار يافا، وتم إبعاده إلى الشام مع منحه ١٥٠ جنيها. عين الشيخ الإمام محمد عبده مفتيا للديار المصرية (١٨٩٩) واقترح الإمام محمد عبده تعيين سعد زغلول "نائب قاض"، وعين حفنى ناصف قاضيا حتى عام ١٨١٢م، ومنح رتبة البكوية من الدرجة الثالثة، وعين قاسم أمين نائب قاض بمحكمة الاستئناف.

أتم التاسعة عشرة من عمره بعد. وفى العشرين من عمره حصل على إجازة القانون من جامعة تولوز بفرنسا، ومن مدرسة الحقوق الأميرية فى نفس الوقت، وانتظم فى سلك المحاماة، ورغم ذلك لم يعمل بالمحاماة قط و إنما انشغل منذ تخرجه بالدفاع عن القضية الوطنية والدعاية لها داخل مصر وخارجها.

وقد أثارت هذه العلاقة الشريفة غيرة الحاشية الملكية فكانوا يشيعون الشائعات ويتقولون على الخديوى لدى سلطات الاحتلال، حتى استطاعوا فى النهاية أن يبذروا بذور الفرقة بينهما إلى الأبد. وبلغت ذروة المجافاة بعد عقد الاتفاق الودى بين فرنسا وإنجلترا فى إبريل ١٩٠٤، وبعدها فى أغسطس التقى الشابان فى فرنسا بمدينة ديفون ولاحظ مصطفى كامل فتور الخديوى وتحول مشاعره فصارحه بنيته البعد عنه وتحمل مسئولية الكفاح ضد الاحتلال البريطانى لمصر وحده ويصل الأمر إلى أن يرسل مصطفى كامل خطابا صريحا للخديوى فى أكتوبر

من نفس العام يعلنه بنيته قطع تلك العلاقة بينهما، ويقول له في نهايته "وإني ليحلو لي أن أبقى إلى آخر لحظة من حياتي خادما لتلك المبادىء الوطنية العالية التي كنتم سموكم أول الداعين إليها والمنادين بها، وأن تزداد كل يوم اتساعا الهوة التي بيني وبين الذين ادعوا خدمة الوطن ليخدموا مصالحهم ثم انقلبوا عليه بلا خجل ولا حياء ..".

ويظهر من الخطاب أن سياسة "فرّق تَسُد" التي يتبعها الإنجليز في كل مكان يحلون به ، قد أتت نتائجها المرجوة ، فهم لم يتركوا مناسبة إلا واحتجوا لدى الخديوي على تلك الصداقة بينه وبين زعيم شعبي يهاجمهم ليلا ونهارا، في السر والعلن، ويطالبهم بالجلاء عن مصر ويستعدي عليهم الدول والشخصيات العامة ويدبج المقالات لينشرها في مصر والخارج منددا بسياساتهم في مصر. وصل الأمر إلى اتهام صريح للخديوي بأنه هو الذي يحرض الصحفي الشاب ويمده بالمال وبالمعلومات، وعندما زارت الكاتبة الفرنسية جوليت آدم مصر بدعوة من

مصطفى كامل استقبلها الخديوى فى قصره ودعا الكبراء إلى وليمة على شرفها فاحتج الإنجليز واحتجوا أيضا على زيارة مصطفى كامل لملكة البرتغال واتهموا الخديوى بأنه ساهم ماديا فى تمويل جريدتى ليتندار إجبسيان واجيبشيان ستاندرد، ولم يكن ذلك صحيحا إذ أنه كان على قطيعة مع مصطفى كامل منذ ثلاث سنوات.

إن الخديوى عباس حلمى الثانى يبدو فى مذكراته التى كتبها بعد الإطاحة به كما لوكان بطلا قوميا، ولكن الشواهد تؤكد على أن إنكسارة فى مشاعره زعزعت ثقته فى إمكانية النضال ضد الاحتلال البريطانى بعد حادثة فاشودة فى ديسمبر ١٨٩٨ التى انتهت بتخاذل فرنسا وإذعان حكومتها للسياسة الإنجيزية، مما بعث اليأس فى قلوب المصريين، وبدأ الخديوى يستسلم للأمر الواقع فمال نحو الجانب الآخر وخضع لإرادته وزار لندن فى ربيع ١٩٠٠ ، وظل يميل إلى مهادنة الإنجليز حتى وصل إلى حد حضور احتفال باستعراض الجيش البريطانى فى مصر فى نوفمبر

١٩٠٤ بميدان عابدين والوقوف تحت العلم البريطانى، الأمر الذى أثار صدمة كبيرة فى مشاعر الوطنيين المصريين واضطرت القصر إلى اصدار بلاغ رسمى يزعم أن الخديوى حضر ذلك الاحتفال بالصدفة ! لقد حاول الخديوى الشاب أن يسترد السلطة المطلقة التى كانت لأسلافه إلاّ أن الإنجليز تصدوا له، وفى صراعه معهم ظهر للشعب المصرى فى صورة البطل، لكن الحقيقة سرعان ما انكشفت عندما بدأ الخديوى يتراجع عن مواقفه ويتخذ سياسة أخرى خوفا على عرشه، وبذلك اتسعت الفجوة بينه وبين الحركة الوطنية المصرية وعلى رأسها مصطفى كامل.

وفى إبريل ١٩٠٧ استقال اللورد كرومر، أو أقيل نتيجة لأحداث دنشواى المشينة للاحتلال البريطانى، وكانت استقالته انتصارا ساحقا لمصطفى كامل وللحركة الوطنية، وفى مايو، أى بعدها بشهر واحد صرح الخديوى بحديث لجريدة الديلى تلجراف نفى فيه عن نفسه "تهمة" معارضة الاحتلال البريطانى، وامتدح اللورد كرومر، وأعلن استعداده

التام للتعاون مع خلفه ألدون جورست. وكان لدى الزعيم مصطفى كامل الشجاعة الكاملة لأن ينتقد بشدة مسلك الخديوى ويكتب مقالا فى جريدة اللواء قال فيه: "مما يجب علينا إعلانه والجهر به أمام الملأ كله أن تصريحات الجناب العالى (الخديوى) لا تفيدنا بأى حال من الأحوال، لأن مركز سموه غير مركزنا، على أن كل مصرى صادق الوطنية لا يقبل مطلقا أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديوى بمفرده أو بيد المعتمد البريطانى، أو بيد الاثنين معا، بل يطلب أن يكون حكم هذا الوطن العزيز بيد النابغين والصادقين من أبنائه وأن تكون نظامات الحكومة دستورية ونيابية "بعد ذلك أعلن مصطفى كامل فى أكثر من مناسبة ومجال أن "سمو الأمير (عباس حلمى الثانى) بعيد عن الحركة الوطنية، وأن المجاهدين ضد الاحتلال مستقلون عن سموه كل الاستقلال، وأن مصلحة الشعب المصرى تقضى بأن تكون الحركة الوطنية بعيده عن الخديوى لكى يعلم العالم كله أنهم لا يطالبون بحقوقهم بإيعاز منه أو غيره، وأن الحركة الوطنية (المصرية)

قوية بذاتها مستقلة بمبادئها محتفظة بكرامتها، قوامها الإخلاص لمصر والنهوض بها إلى الاستقلال والحرية".

والمؤسف أن تنازلات الخديوى عباس الثانى لم تشفع له ولم ينخدع بها الإنجليز فخلعوه عن العرش إبان الحرب العالمية الأولى. وفى مذكراته التى كتبها قبل وفاته عام ١٩٤٤، ونشرت صحيفة المصرى عام ١٩٥١ فصولا منها، كتب يمتدح مصطفى كامل ويصفه بأنه محى الوطنية المصرية وأول من نشر فكرتها بين الشباب[(١)]. واعترف بأنهما كانا يختلفان أحيانا على الوسائل إلا أنهما اتفقا دائما على الهدف "كنت أقدره حق قدره حتى عندما يستحيل على أن أتبعه. إن مهمة الحكم ليست دائما بالسهلة، ففى الوقت الذى يشاء الحاكم أن يطيع صوت قلبه يجد نفسه مضطرا إلى الإذعان لحق الدولة. ولقد

(١) أما محمد فريد فقد رأى أنه لم يستطع أن يحل محل مصطفى كامل إلاّ أنه كان أمينا ووطنيا قاطعا، وكان يعرف كيف يحارب ويقاوم ولكنه كان غير قادر على القيادة.

كان مصطفى كامل حرا وكنت أمنحه تأييدى المطلق. كان يقول بدلا منى ما يجب قوله، وما لم يكن بالوسع قوله باسمى".

إنه الصراع الأبدى بين المفكر الكاتب والسياسى فى السلطة.

*******

# عودة الباشا الميت

ماذا لو عاد "باشا" من باشوات محمد على (الكبير) إلى الحياة فى القرن العشرين ؟

إن عودة الأموات إلى الحياة فكرة راودت الكثيرين من الكتاب، وداعبت خيال المفكرين، وأثارهم التساؤل :كيف ستكون رؤيتهم للتغيرات الجذرية التى طرأت على الحياة، وبدلت أحوالها ، أو جعلتها رأسا على عقب ..؟! والأهم من ذلك كيف سيستقبلهم الأحياء، ومن الذى سيؤثر على الآخر .. أو بمعنى أصح من سيفوز فى النهاية .. العائدون من الماضى أم المتطلعون إلى المستقبل ..؟!

عالج الكاتب الكبير توفيق الحكيم هذه الفكرة بإعادة كتابة قصة "أهل الكهف" التى وردت فى القرآن الكريم، من منظوره الفلسفى الخاص، ولكن قبله بعدة عقود تفتق ذهن شاب مصرى عن نفس الفكرة ثم كتب رائعته "حديث عيسى بن هشام" ليجيب على ذلك السؤال .

مؤلف الكتاب محمد المويلحى (١٨٦٨-١٩٣٠) ابن إبراهيم المويلحى (١٨٤٦- ١٩٠٦) الصحفى والأديب، الذى كان يصدر مجلة "مصباح الشرق" الفكاهية الساخرة المزدحمة بالكاريكاتير، وله كتاب شهير بعنوان "ما هنالك"، سخر فيه من السلطان عبد الحميد ومن حاشيته، وكتاب آخر عنوانه "حديث موسى بن عصام".

وقد أهدى محمد المويلحى كتابه الفريد إلى أرواح المرحومين والده الأديب إبراهيم المويلحى، والمفكر الإسلامى جمال الدين الأفغانى والإمام العالم محمد عبده واللغوى الشنقيطى والشاعر البارودى وقال فى تقديمه للكتاب:

"والضعيف العاجز ( المؤلف) يهدى هذا الكتاب إلى كل من يقرؤه من أديب يجد فيه طرفا من الأدب، وحكيم يرى فيه لمحة من الحكمة، وعالم يبصر فيه شذرة من العلم، ولغوى يصادف فيه أثرا من الفصاحة، وشاعر يشعر فيه بمثل طيف الخيال من لطف الخيال".

الكتاب يحمل عنوانا ثانويا هو "فترة من الزمن" وهو مثال على مقاومة المصريين لمحاولة إعادة مصر إلى الغرب وتشبثهم بإحياء التراث العربى القديم، لذلك كان مزيجا من المقامة والرواية، وفصوله أقرب إلى القصص القصيرة وإن كان يربطها ببعض شخصية راو واحد هو عيسى بن هشام الذى يحمل اسم بطل مقامات بديع الزمان الهمزانى ، التى كانت تصف الحياة فى بغداد القديمة .

وقد سار الابن محمد المويلحى على درب أبيه فجعل عنوان كتابه "حديث عيسى بن هشام" ، ونشر فصوله مسلسلة عام ١٩٠٥م، بعد أن تطورت الحياة فى مصر بسرعة مدهشة، وتحولت القاهرة إلى ما يشبه حلبة السيرك: عدد لا حصر له من الأزياء واللغات الغربية والشرقية.. سيارات ..ترام.. تليفون .. مسارح .. دور سينما .. صالات رقص وبارات .. جازيتات (صحف) .. طرز جديدة من المبانى .. عمارات ومحلات .. حرف ومهن جديدة .. ورغم

كل ذلك، فإن أفكار وعادات وأساليب الماضى كانت تأبى أن تتلاشى.

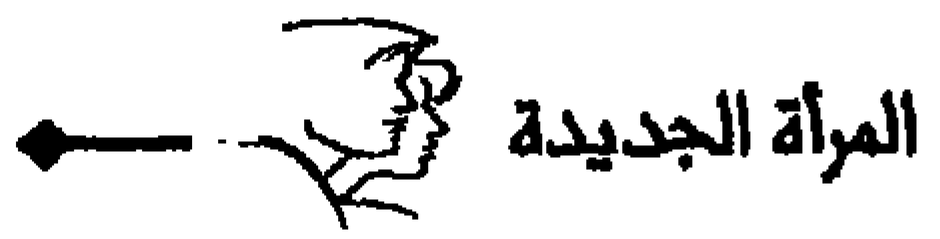
لقد تغيرت الحياة فى مصر تماما، وعلى مدى قرن كامل من الزمان: القرن التاسع عشر، توغل الأوروبيون فيها وبدلوا مظاهر الحياة وأثروا على العقليات وغيروا ملامح المجتمع حتى أن محمد على باشا لن يتعرف عليها قط وسيتوه فى شوارعها كما لو كان لم يولد ولم يعش بها يوما واحدا. والمفارقة أن الباشا التركى مازال يتصور أن الباشوات الأتراك مازالوا على قمة النظام الاجتماعى فى مصر، كما كانوا فى عهد محمد على، فى الوقت الذى بدأت فيه الهيمنة التركية على مصر تنحسر، وبدأ الكثير من الباشوات الأتراك يعودون إلى بلادهم، أما الذين بقوا فهم الذين تزوجوا من المصريين واندمجوا تماما حتى انمحت معالمهم التركية الا قليلا. أما البطل "عيسى بن هشام" فهو يمثل حلقة الاتصال بين الماضى الذى يمثله الباشا والحاضر المندفع فى تقليده للغرب.

إن القارىء يضحك على الباشا التركى المتعالى الذى ينظر إلى كل شىء حوله بدهشة واشمئزاز متشبثا بعصره الذى يفضله على الحاضر المتقدم، إلاّ أنه لا يلبث أن يتطور مع الوقت، بعد أن دار ولف وتعرف على أوجه الحياة الجديدة.

تبدأ الرواية بالراوى، عيسى بن هشام، يتجول فيما يشبه الحلم بين القبور بحثا عن العبرة، وفجأة يظهر له "الدفين" ، ويكشف عن هويته: باشا تركى يدعى أحمد باشا المنيكلى، كان ناظرا للجهادية فى عهد محمد على، أى منذ أكثر من نصف قرن، يُبعث من الموت. ولكن الباشا لا يعرف ذلك بالطبع، فهو يحرص على تغيير ملابسه (الكفن) لكى يذهب إلى ولى النعم الداورى الأعظم (محمد على) ويقدم له فروض الولاء والطاعة، وفى الطريق إلى القلعة يعترض طريقه مكارى (مؤجر الحمير) ويتحدث إليه بلهجة وقحة لم يصادفها فى حياته، فلا يطيق ذلك فيضرب المكارى بل يوشك أن يقتله، وبدلا من أن يستسلم

المكارى كما كان يحدث فى الماضى، إذا به يصر على أخذ حقه من الباشا التركى وعلى اقتياده إلى "البوليس"، ثم تتطور الأحداث من البوليس إلى النيابة إلى المحامى الأهلى إلى المحاكم. ويحتاج الباشا إلى مال لينفق منه ولكنه يكتشف أن كل أمواله قد تبددت على أيدى الورثة ولم يعد هناك إلا حفيد واحد يقيم فى "لوكاندة"، هربا من الدائنين. يحاول الباشا الاتصال بحفيده، فيجده ولكنه يصدم فيه، فيذهب للوقف ليسترد ما كان قد أوقفه من أموال، ويحاول الاتصال بأبناء كبراء الماضى الذين كانت تربطهم به صلة المودة والقربى فيجد أغلبهم قد فارق الحياة أو على وشك ذلك وهنا يحدث التغيير الأول فى حياة الباشا حين يبحث عن عمل، يمده بمورد مإلى يعينه على التخلص من مصيبته.

بعد ذلك يترك الكاتب قضية الباشا معلقة فى المحكمة الشرعية ليتجول مع صاحبه فى القطاعات المختلفة للمجتمع ليصفها لنا بالتفصيل فى صور حية



ساخرة وتفاصيل واقعية وحوارات شيقة، وويصف مظاهر الحياة فى عصره (بداية القرن العشرين) بأسلوب قصصى يكشف عن دقة ملاحظة وحس دقيق ورؤية لماحة لما يجرى حوله من أحداث، ومن الشخصيات التى يلتقى بها ويصفها بدقة: الكاتب (الموظف) والمحامى الأهلى وسمساره والدفترخانة والنيابة والمحاكم وقاضى المحكمة الأهلية والطب والأطباء والأعيان والتجار وأبناء الكبراء وموظفو الحكومة، ويحكى تفاصيل تفشى الوباء (الحمى الصفراء) فى عصره، ونرى معه الشرطى "واقفا وفى يده منديل أحمر قد امتلأ بأصناف متنوعة مما جمعه فى صباحه من باعة الأسواق فى محافظته على "النظام" .. "والمعاون"، الذى يجدوه غارقا فى نومه"، والصول الذى "يأكل والقلم فى أذنه وقد نزع طربوشه وخلع نعليه وحل أزرار ثيابه"، والمفتش الإنجليزى الذى لا يفهم العربية ولا يهتم إلا بالأوامر المستديمة الخاصة بزى المعاون وطربوشه ولحيته .. ووكلاء النيابة الذين يتحدثون عن النساء ولعب

الورق والأوبرا. ونكتشف بداية تفشى الألفاظ "الأعجمية" فى لغتنا العربية منذ ذلك الوقت خصوصا على ألسنة الشباب المبهورين بالخواجات المقلدين لهم فى كل شىء، ولا يهتمون أو يتحدثون إلا عن "الكرافات" و"الأوتوموبيل" و"المدموازيل"و"موضة" الانتحار المتفشية بين الشبان الغربيين، ويتخاطبون بيا"مونشير"، وكلها كلمات فرنسية. ويصف الكاتب مظاهر المدنية الغربية التى بدأت تتسلل إلى المجتمع المصرى فتثير فى نفوس الشباب ازدراء للماضى وكل ما يمثله.

وللمرة الثانية ينسى المويلحى حكاية الباشا ناظر الجهادية، ويبدأ فى حكاية أخرى بطلها عمدة ساذج قدم من الريف ليمضى أياما بالقاهرة، فإذا به يلتقى برجلين من المدينة هما "الخليع" و"التاجر"، يستغفلانه ويبتزان أمواله التى كسبها من بيع القطن . ونتجول مع ذلك العمدة ونشهد سلوكياته فى المجتمع وفى حديقة الأزبكية وفى المطعم وفى الحان وفى المرقص وفى الملهى الليلى وفى

زيارة الأهرام .. إلخ ولابد أن الفنان الراحل نجيب الريحانى استفاد كثيرا من هذه الشخصية فى رسم شخصية العمدة "كشكش بيه" التى اشتهر بها على المسرح.

وفى الطبعه الرابعة للكتاب، رحلة إلى باريس، يصف فيها الكاتب تلك المدينة بإعجاب شديد خصوصا برج إيفل الذى يجعله "المعجزة الثامنة"، ومتحف اللوفر الذى يسميه "القصر الكبير"، إلاّ أن ذلك لا يمنعه من انتقاد ما شاهده بجناح مصر بالمعرض. إن هذا الكتاب الرائع يعطى صورة دقيقة وصادقة لحياة وأفكار أجدادنا منذ مائة عام، وهو يثبت أن مصر بدأت منذ ذلك الوقت تتنبه إلى موقعها الفريد، وبدأت تتساءل هل أنا شرقية أم غربية؟! هل أنا بحر متوسطية أم أفريقية ؟! وانقسم المجتمع المصرى على نفسه انقساما حادا يكاد أن يجعل منه شعبين لا شعبا واحدا: مجتمع الأريستوقراطية الثرية ومجتمع عامة الشعب؛ مجتمع "الهاى لايف" ومجتمع الطبقات الأخرى، الذى ينظر إليه على أنه متخلف وهمجى و"بلدى" !

ومنذ ذلك التاريخ بدأت أعراض ظاهرة الازدراء والاتهام لكل ما هو مقاوم للتغيير فى مصر: بنت البلد، ابن البلد، الفلاحين والصعايدة .. إلخ ودخل الجيل الجديد من شباب الطبقة المتوسطة فى مصر فى صراع نفسى سيكون الأساس الذى تبنى عليه نهضتهم الحضارية والعصر الذهبى لكل الفنون فى مصر.

ورغم تغلب النزعة الإصلاحية التعليمية على الكاتب، وقد كان فى السابعة والثلاثين عندما بدأ ينشر فصوله، إلاّ أنه ألبسها ثوبا فكاهيا أعطاها الكثير من الحيوية، تجعل القارىء يضحك فى المواقف التى تصف غطرسة الباشا التركى العائد من القرن الثامن عشر.

والرواية فيها تسلسل زمنى ولكننا لا نعرف على وجه اليقين هل كانت أحداثها حلما أو واقعا، وقد ترك الكاتب نهاية القصة أو المقامة مفتوحة لأنه لم يكن واثقا لأيهما سيحسم الصراع. والعجيب أنك تقرأ ذلك الكتاب الجميل

فيخيل إليك أنه يصف المجتمع المصرى اليوم (فى بداية القرن الحادى والعشرين) أى بعد وفاة محمد على "باعث المدنية الحديثة" فى مصر بقرن ونصف وبعد صدور "حديث عيسى بن هشام" بنحو مائة عام وتكتشف أن الصراع المحتدم فى أعماق الشخصية المصرية لم يحسم إلى يومنا هذا !!

******



# عزيزة أمير.. أم السينما العربية

انقضت مائة عام على الغزو الفرنسى لمصر بقيادة نابليون بونابرت، خرج الفرنسيون من الباب، ثم عادوا من النافذة يغزون مصر مرة ثانية، عن طريق اختراع خطير يسمى "السينما توجراف".

كانت مصر من أوائل الدول التى استقبلت ذلك الاختراع الهام بعد العروض السينمائية الأولى بصالة "جران كافيه" بباريس التى قدمتها عائلة لومبير (فى ٢٨ ديسمبر ١٨٩٥). بعدها بعامين فقط، فى ديسمبر ١٨٩٧ م، شاهد المصريون فى العرض السينمائى الأول ميدان الأوبرا فى باريس أثناء الأعياد الفرنسية، ينتقل إليهم فى مدينة الإسكندرية دون أن يتكبدوا عناء السفر إلى فرنسا. ليس هذا فحسب ولكن المواطنين الذين لم يحلموا يوما بمغادرة مدينتهم جلسوا يتابعون بالصور المتحركة شلالات

نياجرا وهى تتدفق فى النهر، والمسافرين يهبطون كوبرى بروكلين فى نيويورك، ورأوا عمالا يخرجون من مصنع لوميير (مخترع السينماتوجراف)، وأثارتهم مشاعر متباينة من الخجل والدهشة وهم يتابعون السباحين والسباحات الفرنسيات الفاتنات يلهون ويسبحون فى البحر مرتدين المايوهات على شاطىء نيس .. كل ذلك وهم جالسون يحتسون الشاى والقهوة فى "كافيه زارتى" بعد أن دفعوا تذكرة (فادحة) قدرها ثلاثة قروش .. !!.

أما القاهرة فلم تصل إليها السينما الا بعد عامين ونصف، أى فى عام ١٩٠٠م، حينما تم العرض الأول فى "كافيه سانتى" بجوار حديقة الأزبكية، وقد علقت الصحف على ذلك الحدث الهام، دخول السينما إلى مصر، فقالت "المؤيد": إنه معجزة "لا يمكن أن يفكر فيها إلا شيطان مارد"[(١)].

كانت مصر فى ذلك الوقت تكتظ بالأجانب من

(١) (حكايات من تاريخ السينما المصرية) حسين عثمان.

مختلف الجنسيات الذين يستمتعون بالامتيازات العديدة ويشغلون أعلى المناصب الحكومية (فى الوزارات والمصارف (البنوك) والشرطة والجيش)، ويصيبون ثروات طائلة من الإتجار فى القطن ومكاتب الاستيراد، وغير ذلك من الأنشطة التجارية التى لم يكن المصريون قد احترفوها بعد. ولاشك أن هؤلاء كانوا يصحبون عائلاتهم معهم عند ذهابهم لمشاهدة الأفلام فى المقاهى ودور العرض التى بدأت تشيد خصيصا وتتسع لعدد مضاعف من المشاهدين، مثل سينما "باتيه" وسينما "الهمبرا" و"بل فى" فى الإسكندرية. كان عرض الأفلام الأولى يستغرق من خمس إلى عشر دقائق فقط، لذلك كانت تلك المسارح تغرى الجمهور بإضافة عروض فنية تتكون من أغانى لبعض المطربين المعروفين ونمر بهلوانية .. ولكى يشجعوا المصريين على الحضور لجأ أصحاب دور العرض، وأغلبهم أجانب، إلى عرض ترجمة عربية على شاشة جانبية صغيرة للعبارات التى كانت تشرح حوادث الفيلم للمشاهدين أيام

السينما الصامتة، ثم صدر قانون يفرض طبع الترجمة العربية على نفس الفيلم.

ولاشك أن دخول السينما فى مصر كان له تأثيره الكبير على عقلية وشخصية المصرى عندما شاهد على شاشات متعددة الألوان أشخاصا يتصرفون فى غرف النوم وعلى شاطىء البحر بحرية لم يعتد عليها من قبل. ومن عناوين تلك الأفلام المبكرة يتضح لنا قدر الإثارة التى تعمد المنتجون والمخرجون إضافتها لجذب الانتباه والمزيد من المشاهدين. فمن الأفلام التى أنتجها لوميير فى تلك الفترة فيلم "السياحة فى البحر"وفيلم"وصول القطار"، وتظهر فى أول الفيلم محطة القطار فارغة لا يوجد بها سوى رجل واحد يجر أمامه عربة يد صغيرة، ثم تظهر فى الأفق نقطة سوداء، تكبر شيئا فشيئا إلى أن تتحول إلى قطار يأتى مسرعا ويحتل كل مساحة الشاشة، متوجها بسرعة إلى المشاهدين .. ويصعد المسافرون إلى القطار ، ومن بينهم فتاة ساحرة الجمال ترتدى ملابس بيضاء. وتقترب الكاميرا

من الفتاة ليظهر ترددها قبل الصعود وحياءها الطبيعى . كذلك أنتج جورج ميليس أفلاما بعنوان "فتاة تنزع ثيابها" و"معركة الوسادات" و"حمام الولد الأسود" ومن أوائل الأفلام التى استخدمت فيها الحيل الصناعية فيلم"خطف امرأة"، وفيلم "بيجماليون"، و"الراقصة الرشيقة"، وانتج كيرشنر فيلم "نوم العروس" يعرض لقطات متعاقبة لمشهد تؤدى فيه ممثلة المسرح، الشهيرة فى ذلك الوقت، لويز ميللى، على مسرح الأوليمبيا بباريس، المواقف النسائية التى ألغيت مع تطور الملابس، وكانت متعة المشاهدين رؤية عرقوب الفتاة المغطى بخيوط بيضاء لفترة قصيرة. ولم تختلف الأفلام البريطانية التى أنتجت فى بداية القرن كثيرا عن الأفلام الفرنسية ومن بينها فيلم "زواج فى سيارة"من إخراج البريطانى الفريد كولينز، ويبدأ بمشهد شاب وشابة تزوجا حديثا يلاحقهما بسيارته كهل هو والد العروس. ومن اخراج فرديناند زيكا "عاصفة فى غرفة النوم"، وفيلم "غرام داخل النفق" حيث يغازل الممثل

عشيقته وهو يرتدى ملابس مرضعة، أثناء مرور القطار داخل نفق مظلم .. وإلى جانب الأفلام الاجتماعية والتاريخية والدينية وأفلام المآسى والكوميديا كانت شركات الانتاج تنتج أفلاما جنسية يوضع على إعلاناتها عبارة "ممنوع لأقل من ٢١ سنة"(١). ومن أشهر هذه الأفلام الفيلم الفرنسى "مهجع العروس" بطولة الآنسة لويز ميللى.

اعتمد المصريون على الأفلام المستوردة من فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة أكثر من ربع قرن، حتى فكرت نجمة المسرح المصرى فى ذلك الوقت؛ الفنانة عزيزة أمير(٢). فى إخراج أول فيلم درامى مصرى عام ١٩٢٥م،

---

(١) (موسوعة السينما المصورة) فى العالم دار الراتب الجامعية - سوفنير المجلد الأول ج١ اعداد جورج مدبك.

(٢) اسم الشهرة لمفيدة محمد غنيم التى ولدت بالاسكندرية عام ١٩٠١م، وتوفى والدها بعد ١٥ يوما من مولدها، ثم انتقلت إلى حى السيدة زينب بالقاهرة، وأتيحت لها فرصة السفر إلى أوروبا حيث تعلمت الفرنسية وكانت تتردد على المسارح واستوديوهات السينما مع أقاربها. قدمت عزيزة أمير للسينما العربية ٢٥ فيلما واكتشفت العديد من النجوم فى مختلف الفنون وتوفيت عام ١٩٥٢م.

كانت تحلم بأن يصبح حجر الأساس للفن الجديد بمصر، ولكنها لم تنفذ فكرتها إلا بعد أن التقت بالمخرج التركى وداد عرفى الذى قدم لها قصة "ليلى" عام ١٩٢٦م فأعجبت بها وقررت إنتاجها سينمائيا. وعُرض الفيلم لأول مرة فى ١٦ نوفمبر عام ١٩٢٧ بسينما مترووبول بالقاهرة، وقد تقاسم البطولة مع عزيزة أمير فى ذلك الفيلم الفنان، الإيطالى الأصل، إستيفان روستى.

كان "ليلى" ثانى فيلم صامت ينتج فى مصر بعد فيلم الأخوين الشاميين بدر وإبراهيم لاما "قبلة فى الصحراء" الذى تم عرضه قبل شهور قليلة (فى مارس من نفس العام). ولكن عزيزة أمير(١٩٠١- ١٩٥٢م) هى أول سيدة مصرية تنتج وتمثل فيلما دراميا عربيا، وكان الشاب المصرى محمد بيومى قد بدأ ينتج أفلاما تسجيلية، وفى الوقت نفسه كان طلعت حرب قد أنشأ "شركة مصر للمسرح والسينما" التى تحولت فيما بعد إلى ستوديو مصر، فى يونيو ١٩٢٥م.

كان لعرض فيلم "ليلى" دوى هائل فى المجتمع المصرى، وحضر العرض الأول كبار الشخصيات المصرية، ومنهم الشاعر أحمد شوقى والاقتصادى طلعت حرب، الذى عبر عن إعجابه ببطلة ومنتجة الفيلم فى نهاية العرض قائلا لها "سيدتى لقد أنجزت ما لم يتمكن الرجال من إنجازه".

ويمكن أن نطلق على عزيزة أمير لقب أم السينما العربية، ولابد أن نفخر نحن النساء المصريات بشجاعة تلك المرأة وجسارتها فى ذلك الزمن المبكر، فأقدمت على التنفيذ وأقنعت زوجها الثرى أحمد الشريعى بإنفاق أمواله على إنتاج الفيلم، فوقف إلى جانبها وشجعها، رغم أن انتاج الفيلم كان يعتبر مغامرة قد لا تحمد عقباها، وقد تتسبب فى إفلاس صاحبها، إلا أن الفيلم نجح نجاحا كبيرا وحقق فى العام الأول من عرضه ايرادات تساوى ثلاث أضعاف تكاليف انتاجه، الأمر الذى شجع آخرين على ارتياد نفس الطريق وكان فاتحة مباركة لتلك الصناعة المهمة فى مصر.

لم تكن الاستوديوهات قد أنشئت بعد فتم تصوير الفيلم فى صحراء الهرم وفى فيلا بشارع الهرم، وقد أسست عزيزة أمير شركة "ايزيس فيلم" للإنتاج السينمائى وستوديو هليوبوليس بمصر الجديدة. وعندما نطقت السينما، واجهت السينما العربية أزمة وأوشكت على أن تتوقف فسافرت عزيزة أمير إلى ألمانيا لشراء جهاز تصوير تسجيل، وعادت به، ولكنها فوجئت بأن المهندسين المصريين لا يستطيعون تشغيله، وحاولت الفنانة الكبيرة الاتفاق مع مهندس صوت ألمانى للحضور إلى القاهرة وتشغيل الجهاز ولكن كل المهندسين الألمان رفضوا الحضور إلى مصر.

استقبلت الجماهير فيلم "ليلى" بحفاوة بالغة، وعندما حضرت بطلته ومنتجته عزيزة أمير العرض الأول فى مدينة دمياط، مسقط رأسها، استقبلها الجمهور بمحطة القطار وأركبوها عربة حنطور تتقدمها فرقة موسيقى نحاسية، عزفت السلام الملكى ثم انطلق الموكب حتي دار العرض حيث

وجدت الفنانة الكبيرة صفين من الراقصات استقبلنها بالرقص والغناء ودق الدفوف.

*******

# مفكرون أثروا في العصر

من المفكرين الذين سبقوا عصرهم وكانت لهم بصمة على الأدباء والمفكرين والفنانين فى القرن التاسع عشر المفكر الإنجليزى جون ستيوارت ميل (١٨٠٦- ١٨٧٣) أديب ومفكر واقتصادى بريطانى. وهو ابن الفيلسوف جيمس ميل (١٧٧٣-١٨٣٦)، ولد فى لندن وعمل لفترة بشركة الهند الشرقية (من ١٨٣٣- ١٨٥٦)، وكان عضو البرلمان الإنجليزى عن مقاطعة وستمنستر (من ١٨٥٦- ١٨٦٨) ممثلا لحزب الأحرار. كان ميل يمضى جزءا كبيرا من العام فى فرنسا وقد تأثر بالفكر الفرنسى.

وفى أواخر أيامه اعتبر جون ستيوارت ميل نفسه اشتراكيا، وكان أول من حذر ضد المبدأ الرأسمالى الحر (دعه يمر laissey fair) ودعا إلى تدخل الدولة لمنع سلبياته. وقد تأثرت الأجيال اللاحقه بآرائه وطبقتها ليس فقط فى السياسة ولكن فى كل الميادين، وقد أثر كذلك على استقبال المثقفين لكتاب داروين The Origin Of Species (أصل الأنواع) الذى ظهر فى العام نفسه ١٨٥٩م.

فى كتابه On Liberty (حول الحرية) دعا ميل إلى حرية التفكير والتعبير التى كانت التقاليد تمنعها وليس القوانين، وكذلك دعا إلى احترام الأقليات، وإلى حق الانتخاب لكل دافعى الضرائب، ولكن أعضاء البرلمان صوتوا ضد اقتراحه (١٩٦ صوتا ضد٧٣). ومن أهم الكتب التى صدرت فى العصر وكان لها صدى كبير كتابه The Subjection of Women (استعباد النساء) الذى نشر عام ١٨٦٩م وفيه دعا ميل إلى احترام الحرية الشخصية للمرأة والإيمان بأهمية تعليمها تعليما جيدا، وقد كان هو وفلورانس نايتنجيل[١] من بين الرواد الرئيسيين لحركة حقوق المرأة فى عصرنا الحديث.

---

(١) فلورانس نايتنجيل ظهرت أثناء حرب بريطانيا ضد روسيا عام ١٨٦٨م، وقد فقدت فيها انجلترا ٢٥٠٠٠ قتيل، من بينهم ١٦٠٠٠ فقدوا حياتهم بسبب الاهمال فى العلاج كما أعلنت نايتنجيل. وقد اعتبرت البطل الحقيقى لتلك الحرب عندما بدأت أولى خطوات التمريض وقد استطاعت أن تقلل نسبة الوفيات بين الجنود المصابين فى مستشفى سكوتارى (الجبهة) من ٤٢ ٪ إلى ٢٢ فى الألف. وأثرت على المفكر جون ستيوارت ميل الذى كتب فى ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر يطالب بالديموقراطية الكاملة التى تشمل الحقوق السياسية لكل المواطنين بما فى ذلك النساء وقد أيدت الحركة التى اشتعلت آنذاك، كذلك انشأت كليات البنات وطالبت بتحسين مدارسهن.

## تشارلز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢)

ولد تشارلز روبرت وارنج داروين فى ١٢ فبراير ١٨٠٩م ، ببلدة شروزبيرى بإنجلترا (Shrewsbury).

فى سن السادسة عشرة التحق بجامعة أدنبرة ليدرس الطب ولكنه ترك الدراسة بعد عامين لعدم ميله الي الطب، وفى عام ١٨٢٨ رحل داروين إلى كامبريدج ليدرس الآداب.

من العلامات المهمة فى حياته أنه سافر فى بعثة لمدة خمس سنوات من (١٨٣١- ١٨٣٦) إلى سواحل أمريكا الجنوبية: جزر جالاباجو وتاهيتى ونيوزيلاندا، فدرس النبات والحيوان بتلك المنطقة، وعندما عاد عام ١٨٣٦ إلى مقاطعة كنت عكف على إثبات نظريته حول التطور الطبيعى لمدة عشرين عاما، ثم غادرها إلى كمبريدج.

فى عام ١٨٣٩ أصدر داروين كتابه "رحلة عالم طبيعى"، ثم "الشعب المرجانية" عام ١٨٤٢، ثم "وصف

حياة المحار" عام ١٨٥٤، ثم توالت كتبه "النباتات آكلة اللحوم"، "حركة وعادات النباتات المتسلقة" و"أصل الإنسان والانتخاب بالنسبة للجنس". وأخيرا أصدر عام ١٨٥٩ كتابه الهام "أصل الأنواع".

وحقيقة نظرية داروين أنها تعارض ثبات الأنواع النباتية والحيوانية، وترفض أنها خلقت على حدة مستقلة عن الأنواع الأخرى؛ بدليل قدرة هواة تربية الحمام على تكوين سلالات جديدة بانتقاء صفات معينة فى ذكر وأنثى وتزويجهما. ويرى داروين أن الطبيعة تفعل الشىء نفسه بانتقاء السلالات الأصلح للتكيف مع البيئة والأقدر على صراع النوع مع الكائنات الأخرى (الصراع من أجل البقاء) بدليل التنوع المدهش فى بعض أنواع الحيوانات مثل القطط والكلاب، والتى قد تختلف اختلافا جوهريا عن بعضها البعض لدرجة قد تجعلها أنواعا مختلفة فمثلا البولدوج يختلف تماما عن الكلب الكانيش وكلاهما يختلف عن الأسبانى والولف ..إلخ.

وقد تأثر داروين بنظرية الاقتصادى الإنجليزى (توماس روبرت مالتوس ١٧٦٦- ١٨٣٤) عن تزايد السكان التى أذاعها فى القرن الثامن عشر (١٧٩٨) وتقول إن أعداد السكان، تزيد بسرعة كبيرة، ولولا عوامل الفناء من كوارث طبيعية وأمراض وحروب وفقر لما استطاعت البشرية أن تجد ما تتغذى به. ورأى داروين أن جميع الكائنات تتكاثر بكثافة شديدة ولكن العوامل الطبيعية تحول دون اكتمال نضج عدد كبير منها، ولا يكتب البقاء إلا للأقوى والأصلح، أو الأكثر تكيفا مع ظروف البيئة.

أثارت نظرية داروين العديد من المتدينين الذين اتهموه بالإلحاد لأنه عارض ما جاء فى الكتب السماوية فى بعض أجزائها، لكنه أنكر ذلك.

تأثرت كل العلوم والمعارف بمذهب "التطور" وبنظرية "النشوء والارتقاء" ومبدأ "البقاء للأصلح" التى جاء بها داروين وأصبحت منهجا جديدا للتفكير وللدراسات

العلمية، والمفكرين وللمؤرخين والأدباء منذ نهاية القرن التاسع عشر، كما أثرت على الفكر الدينى بشكل عام، ونبهت الأذهان إلى ضرورة التطور والتكيف مع متغيرات الحياة ونبذ التشبث بالقديم مهما أصبح باليا، لأن ذلك يهدد الجماعات والأفراد ليس فقط بالركود والجمود و إنما أيضا بالفناء.

## هاربيت بيتشر ستو (١٨١١- ١٨٩٦)

كاتبة أمريكية ولدت فى مدينة ليتشفيلد فى الوقت الذى انفجرت فيه الاضطرابات السياسية والدعوة إلى إلغاء العبودية. وقد شاهدت هاربيت وهى شابة مشاهد التعذيب الوحشى التى كان السادة البيض فى أمريكا يمارسونها بلا رحمة على أرقائهم من الرجال والنساء، شاهدت زنجيا عجوزا يفقد حياته بعد أن جلد، ولم يرق قلب معذبيه لصرخاته وتوسلاته، فقررت أن تكرس قلمها لمناهضة العبودية والدعوة إلى تحرير العبيد، وقد شجعها

على ذلك شقيقها الكاهن فى الكنيسة، وبعد ذلك زوجها أستاذ الجامعة كالفن ستو.

نشرت هارييت روايتها الفذة "كوخ العم توم" على حلقات فى إحدى المجلات التى تنادى بالقضاء على الرق، وكان لتلك الحلقات دوى هائل، فقد تداولها القراء وتابعوها وتأثروا بحكاية العم توم واهتزت ضمائرهم رددوا أغانيه الحزينة، وعندما توقفت ذات أسبوع عن نشر إحدى الحلقات ثار القراء وطالبوا المجلة بالاستمرار فى النشر، عندئذ تنبه أحد الناشرين وعرض عليها نشر الرواية فى كتاب، واستجابت هارييت لدعوته، وعندما نشر الكتاب بيع منه فى الأسبوع الأول ستة آلاف نسخة، وتوالت الطبعات فبيعت فى العام الأول ٣٠٥ ألف نسخة، وترجمت الرواية إلى جميع لغات العالم. وكما يحدث لكل الرواد وذوى الضمائر الحية من الكتاب فقد تلقت هارييت العديد من رسائل التى تهدد حياتها وتتوعدها بالقتل، ولكنها لم تبال. وكان لتلك الرواية تأثير السحر على العبيد فى الولايات

المتحدة الأمريكية، فثاروا وثار معهم عدد كبير من المواطنين الأمريكان وتطور الأمر إلى حرب أهلية بين ولايات الشمال وولايات الجنوب الأمريكى، وانتهت تلك الدراما الواقعية إلى إلغاء الرق فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى العالم كله بعد ذلك. ولاشك أن الرئيس الأمريكى إبراهام لينكولن كان من قراء هارييت بيتشر ستو، ومن المتأثرين برواياتها، فعندما التقى بها قال لها وابتسامة عريضة تفترش وجهه:

"أنت وحدك يا سيدتى الصغيرة التى أثرت هذه المتاعب وفجرت نيران الحرب الأهلية من أجل العم توم".

**كارل ماركس ( ١٨١٨- ١٨٨٣)**

ولد كارل ماركس فى الخامس من مايو ١٨١٨ بمدينة تريير بألمانيا Trier وكان والده محاميا يهوديا، تحول إلى المسيحية. وفى الفترة من (١٨٣٥- ١٨٤١) درس الحقوق بجامعة برلين وتخصص فى دراسة الفلسفة ودرس التاريخ وتأثر بالفيلسوف الألمانى هيجل ثم عاد فاعترض على مثاليته وتعاطف مع الاشتراكيين الألمان المنفيين.

فى عام ١٨٤٢عمل ماركس صحفيا بمدينة كولونيا ودرس الاقتصاد السياسى فى الوقت نفسه، وتزوج عام ١٨٤٣ من صديقة طفولته، ثم انتقل فى العام نفسه إلى باريس ليصدر مع صديق له "الحولية الألمانية الفرنسية" التى لم يتمكن إلا من إصدار عدد واحد منها.

التقى بفريدريك إنجلز بباريس وانضما معا إلى جمعية سرية تدعى عصبة "الشيوعيين" وفى عام ١٨٤٨ قاما بوضع بيان الحزب الشيوعى (المانيفستو) بتكليف من المؤتمر الثانى للحزب الشيوعى الذى عُقد فى بروكسل.

عاد ماركس إلى كولن أثناء الاضطرابات السياسية ولكنه ووجه بتهمة الخيانة العظمى فهرب من ألمانيا عام ١٨٤٩ إلى لندن التى بقى فيها إلى آخر عمره وتأثر بظروف الحياة السياسية والاجتماعية التى كانت سائدة فيها.

عاش ماركس وعائلته فى فقر مدقع، وكان إنجلز

يرسل إليه بعض المال. وعمل لفترة كمراسل لمجلة نيويورك تايمز ولكنه كان يمضى أغلب الوقت بمكتبة المتحف البريطانى يكتب الأبحاث حول نظريته فى صراع الطبقات والقوانين الاقتصادية للمجتمع الرأسمالى.

وأساس نظرية ماركس أنه رأى أن التاريخ مفتاح فهم الإنسان وصفاته، وانه عبارة عن صراع بين الطبقات التى تختلف فى مستوى المعيشة وفى الثقافة، ولن ينتهى الصراع إلا بانتهاء الطبقات. آمن بالاشتراكية الثورية أو العلمية (الشيوعية) التى تختلف عن الاشتراكية الديموقراطية فى لجوئها إلى الثورة لكى تحقق أغراضها، وفى عام ١٨٦٤ ساهم فى تأسيس الجمعية الدولية للعمال التى عانت من صراعات كثيرة بين أعضائها حتى حلت عام ١٨٧٦.

صدر المجلد الأول من كتاب "رأس المال" فى ١٨٦٧، وصدر المجلد الثانى عام ١٨٨٥، بعد وفاة ماركس، والثالث عام ١٨٩٤ باشراف إنجلز. ثم صدر المجلد الرابع لرأس

المال خلال سنوات (١٩٠٤- ١٩١٠). ويعتبر البعض كتاب رأس المال أخطر كتاب ظهر فى التاريخ الحديث وأنه تسبب فى تغيير مجرى العالم .

## فريدريك إنجلز (١٨٢٠- ١٨٩٥)

ولد فريدريك إنجلز فى ألمانيا لأسرة ثرية، وكان والده صاحب مصنع نسيج .بعد انتهائه من التدريب العسكرى أوفده والده إلى مانشستر بإنجلترا ليكون وكيل المصنع بها، وفى عام ١٨٤٤ كتب دراسة عن أحوال العمال، و فى الفترة من (١٨٦٠-١٨٦٩) أصبح شريكا لوالده وأصبح له دخل مالى كبير. أنفق إنجلز كل وقته فى مساعدة ماركس فى كتاباته.

منذ١٨٧٠ حتى وفاة ماركس فى ١٨٨٣، ثم استمر بعد الوفاة فى جمع وتنظيم المسودات الخاصة بالمجلدين الثانى والثالث حتى ١٨٩٤. ويعتبره البعض شريكا لأفكار ماركس. ولا يمكن لأى مفكر أن يضيف جديدا إلى الفكر

المعاصر دون أن يطلع على أفكار ما سبقه من مفكرين، ومن بينهم أولئك الثلاثة الذين أثروا تأثيرا واضحا فيمن ، جاء بعدهم من فلاسفة سواء من اتفقوا أو من اختلفوا معهم.

*******

# المرأة ومسيرة الحرية

فى عالم بدأ يفيق من غفوته ويرنو إلى الحرية ويبدى الندم على ما اقترفه الإنسان لأجيال طويلة فى حق أخيه الإنسان، عُقدت معاهدة برلين لإلغاء الرق عام ١٨٥٥، وفى عام ١٨٦٠، أُثيرت مسألة إلغاء الرق فى الولايات المتحدة الأمريكية، وكان للمناقشات حولها تأثيرها المباشر على النساء الأمريكيات المثقفات اللاتى تنبهن إلى أن أوضاع النساء فى بلادهن لا تقل سوءا عن أوضاع العبيد، وبدأ التاريخ يسطر أسماء النساء اللاتى تزعمن حركة المرأة للمطالبة بحقوقها السياسية وبمساواتها مع الرجل، ففى نفس العام نفسه الذى وقعت فيه الاتفاقية الدولية لإلغاء الرق انتفضت المرأة الأمريكية تطالب بمعاملتها بمثل ما عومل به العبيد، وتأسس الاتحاد النسائى الوطنى NOW بزعامة اليزابيث ستانتون وسوزان أنتونى.

ولاشك أن الحرب الأهلية الأمريكية التى اندلعت فى

العام التالى كان لها تأثيرها الفعال على العالم الحديث كله، وبدأ العديد من حكام ذلك العصر يتحسبون للمواقف المشابهة، ويذعنون لمطالب مواطنيهم بالتخلى عن بعض سلطاتهم المطلقة، ولابد أن الخديوى إسماعيل الذى اعتلى العرش عام ١٨٦٣ كان يتابع باهتمام أخبار المعارك الضارية بين الولايات الأمريكية، والانتصار الساحق الذى أحرزه المناصرون للمساواة بين كل البشر، ولهذا وافق على تأسيس أول مجلس لشورى النواب فى تاريخ مصر فى ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦، وبدأ الرجل المصرى يتنسم الحرية والكرامة لأول مرة فى تاريخه المعاصر. فهل قرأ الخديوى المثقف كتاب "رأس المال" لكارل ماركس، الذى صدر فى ١٨٦٧م، والذى يعتبر العمل، وليس الثروة، السبب الأول للتميز، ويتحدث بإفاضة عن المساواة التامة بين الرجل والمرأة، وأطلق صيحته الشهيرة "يا عمال العالم .. اتحدوا"؟! وفى عام ١٨٧٧م أذعن الخديوى إسماعيل لضغوط الحكومة البريطانية وتم توقيع معاهدة منع الاتجار بالرقيق فى مصر و السودان.

لم تكن مصر بمعزل عما يجرى فى العالم، بل كانت جداتنا المصريات يتابعن عن كثب طفرة النساء الإنجليزيات والأمريكيات اللاتى بدأن يطالبن بحق التصويت منذ عام ١٨٦٧، ولابد أنهن تابعن بشغف أخبار أول جمعية للمطالبة بحق النساء فى التصويت وكانت المرأة الأمريكية قد سبقت نساء العالم فى المطالبة بحقوقها السياسية، عندما تكونت جمعية المرأة الأمريكية للحقوق السياسية عام ١٨٦٩ بكليفلاند، أوهايو The American Woman Suffrage Association ثم اندمجت مع الجمعية الوطنية لحقوق المرأة عام ١٨٩٠.

وقد بدأت فى مصر بشائر الأمل فى التحرر عندما أصدر رفاعة الطهطاوى (١٨٧٣م) كتابه "المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين" الذى كتب فيه، لأول مرة فى العصر الحديث، عن حق المرأة فى التعلم و فى العمل، وقال: إن تعليم الفتاة أهم من تعليم الفتى، لأنها تؤثر على الأسرة كلها، ولابد أن زوجة الخديوى إسماعيل جفت آشم هانم قد

تأثرت بآراء رفاعة الطهطاوى، ففى نفس العام أسست أول مدرسة لتعليم البنات فى السيوفية بالقاهرة.

ونعود إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث كانت مئات الآلاف من النساء يعملن فى المصانع فى ظل ظروف مادية وصحية لا إنسانية، وفى ٨ مارس عام ١٨٧٥م نظمت عاملات النسيج بنيويورك إضرابا للمطالبة بحقوقهن بزعامة اليزابث ستانتون ولوكريشيا موت، فواجهته السلطات المحلية بعنف، وإحترق عدد كبير من العاملات داخل المصنع. الأمر الذى نبه النساء إلى ضرورة اتحادهن، فقمن بتأسيس المجلس العالمى للنساء عام ١٨٧٩ . وكان لتوحيد صفوف المرأة وتنظيم عمل النشيطات النسائيات أبعد الأثر فى إحراز النصر النهائى. ففى عام ١٨٩٠ ظفرت نساء ولاية يومنج بالولايات المتحدة الأمريكية بحق الترشيح والانتخاب. وفى عام ١٨٩٣ تم توقيع الاتفاقية الدولية الثانية لإلغاء الرق فى بروكسل، وتصاعدت حركات مطالبة النساء بحقوقهن فحصلت نساء

نيوزيلاندا على حق الانتخاب فى نفس العام، ثم حصلت نساء فنلندا على حق الانتخاب فى يوليو ١٩٠٦، وتبعنهن نساء النرويج عام ١٩٠٧.

أما فى إنجلترا ففى عام ١٩٠٣م أسست سيدة تدعى إيفلين بانكهيرست وابنتها كريستابل "الاتحاد النسائى الاجتماعى والسياسى" فى مقاطعة مانشستر، وقد انتشرت مبادئهن وانضمت إلى الاتحاد آلاف العضوات وسُميت حركتهن "السفرا جيتس" ومعناها بالإنجليزية: المطالبات بحق التصويت، وقد اتخذت عضوات هذه الحركة وسائل عنيفة لإثبات وجودهن، وصلت عام ١٩١١ ذروة غير مسبوقة حين تظاهرت أكثر من ٣٠٠ امرأة بزعامة إميلى بانكهيرست أمام مبنى البرلمان الإنجليزى فى لندن للمطالبة بالحقوق السياسية للمرأة واشتبك معهن البوليس وقتلت امرأتان واعتُقلت العشرات، وفى السجن أضربت المسجونات عن الطعام احتجاجا على احتجازهن. وقد فرضت عضوات جماعة "السفرا جيتس" وجودهن على الصحافة العالمية بارتكاب أعمال منافية للقانون مثل

إحراق المبانى ووضع قنابل يدوية فى أماكن عديدة، وُجدت إحداها أسفل كرسى العرش فى "وستمنستر أبى"، وتمزيق الصور فى المتحف البريطانى، وكن يعمدن إلى الإثارة و لفت أنظار الصحافة فتربط بعضهن أنفسهن بالسلاسل إلى الأعمدة الحديدية لقصر باكنجهام الملكى، بل أن حماس البعض منهن وصل إلى حد أن ألقت إحداهن بنفسها تحت أقدام حصان السباق الخاص بالملك فى مسابقات دربى، ولقيت مصرعها فى سبيل القضية !

وطبيعى أن أخبار تلك الجماعة بالذات كانت تصل إلى الصحافة المصرية، وتتابعها باهتمام السيدات المصريات من الطبقة الراقية والمتوسطة، بحكم تواجد الاحتلال البريطانى وتصاعد حركة التحرر الوطنى فى مصر.

وكأنما العالم كله كان يتهيأ لاستقبال المرأة واستعادتها المكانة التى فقدتها لفترة، جنبا إلى جنب الرجل، فإذا بعصبة الأمم تعلن ٨ مارس يوما عالميا للمرأة عام ١٩١٠م،

ويكون لذلك أثره المباشر على المتطلعين بشوق لإلحاق مصر بركب المدنية الحديثة، فيتشجع محمد حفنى ناصف، ويتولى بنفسه نشر الطبعة الأولى لكتاب ابنته ملك "النسائيات" عن مطبعة "الجريدة" التى يرأسها أحمد لطفى السيد، و تُدعى نبوية موسى لإلقاء سلسلة أخرى من المحاضرات بالجامعة فتجعل عنوانها "مواضيع نسائية"، ويرشحها أحمد لطفى السيد لتصبح ناظرة مدرسة المعلمات بالمنصورة. وفى عام ١٩١١م تقتحم الحياة الثقافية فى مصر كاتبة شامية هى مى زيادة، ابنة صاحب ومدير صحيفة "المحروسة". وتفتتح الكاتبة الشابة صالونها الأدبى الذى ستتواصل لقاءاته لمدة عشرين عاما، يستضيف صفوة رجالات العصر من المثقفين والسياسيين، وفى نفس الوقت تلتحق مى زيادة بالجامعة المصرية لتدرس بها الفلسفة الإسلامية واللغة العربية. وتتصدى الكاتبات لمناقشة قضايا المجتمع واقتراح أفضل الوسائل لحلها، وتثقيف وتهذيب الفتيات فتنشر نبوية موسى كتاب "المطالعة العربية"، وبعدها تصدر لبيبة هاشم كتابها "فى التربية".

وفى عام ١٩١٢م تصدر مجلة نسائية جديدة بالقاهرة برئاسة فاطمة توفيق "الجميلة"، وتلتحق نبوية موسى بمدرسة الحقوق التابعة "لنظارة الحقانية" أى "وزارة العدل"، وفى عام ١٩١٣م ينشر الدكتور هيكل روايته الرائدة "زينب" على حلقات بمجلة "الجريدة" وفيها يدافع بحرارة عن حرية المرأة و يهاجم الحجاب و لكنه يوقعها باسم "مصرى فلاح"، وتصدر سارة الميهية مجلة "فتاة النيل". وفى نفس العام تتقدم فتاة مصرية بكتاب عن التاريخ المصرى إلى وزارة المعارف فيجدونه لائقا للتدريس بالمدارس المصرية و لكنهم يطالبونها بحذف اسمها من على الكتاب ووضع اسم رجل عليه !! وترفض هند آمون صاحبة الكتاب ذلك وتصر على الرفض حتى يذعن المسئولون بالوزارة ويُنشر الكتاب باسمها.

ولعل اكتشاف تمثال رأس نفرتيتى فى تل العمارنة فى نهاية ذلك العام فى ٦ ديسمبر ١٩١٣م أعاد للذاكرة المصرية وعيها المفقود وأيقظ فى الأذهان ذكري أمجاد المرأة المصرية القديمة. وبعد أسابيع قليلة، فى ١٧ يناير

١٩١٤م تعلن وفاة الأديبة الكبيرة زينب فواز، عن ٥٤ عاما، وينعاها الكثيرون بعبارات تنم عن الاحترام والتقدير، وتبدأ هدى شعراوى نشاطها الذى سيتصاعد و ينمو بتأسيس جمعية "الرقى الأدبى للسيدات المصريات" و"جمعية المرأة الجديدة" وذلك بمعاونة بعض أميرات الأسرة المالكة مثل الأميرة عين الحياة والأميرة أمينة حليم.

ويبدو أن الرجال المصريين غشيهم التهيب من تقدم النساء المصريات المثقفات ونجاحاتهن المتوالية، وخشوا أن يتكرر بمصر ما حدث بلندن فبدأت حركة التراجع فى أهم معقل ثقافى، الجامعة، ووسط الطلبة الذين تظاهروا احتجاجا على "الغزو" النسائى للجامعة المصرية الوليدة، ويستسلم المسئولون لتلك الموجة من التراجع فيغلقون "الفرع النسائى" عام ١٩١٢.!!

*******

# المرأة المصرية على خشبة المسرح..

عرف الشعب المصرى الفنون المسرحية فى القرن الثامن عشر على يد الغوازى اللاتى كن ينتمين إلى الغجر ويرقصن لقاء أجر فى الأماكن العامة أو فى البيوت لإحياء المناسبات السعيدة أو يقمن بالرقص أمام منازل الأوروبيين، وفى العادة كان يصحبهن رجل يعزف على آلة موسيقية، وفى بعض الأحيان تشترك معه امرأة عجوز تلعب على الطنبور (الطبلة)، وقد وصفهن سائح إيطالى يدعى بلزونى، زار مصر أوائل القرن التاسع عشر، ولفت نظره أنهن "حين يرقصن تراهن يلقين جانبا بالنقاب الذى يغطى الوجه ويجعلنه يطير فى الهواء حول أكتافهن"(١).

عاش المصريون طوال عصور الظلام العثمانى

---

(١) المسرح فى الوطن العربى الدكتور على الراعى سلسلة عالم المعرفة يناير ١٩٨٠.

يرفهون عن أنفسهم بالفنون الشعبية كالحاوى والأراجوز وخيال الظل، وشيئا فشيئا بدأت الفنون الراقية تجد مكانها إلى الحياة فى مصر بعد أن تخففت القبضة الحديدية للتخلف العثمانى، وبدأ المصريون يعبرون عن أفكارهم ويختبرون مواهبهم وقدراتهم الفنية التى طمست لسنوات طويلة. وفى عام ١٨٧٤ كتب إسماعيل عاصم أول مسرحية مصرية بعنوان "صدق الإخاء"، وكانت تاريخية تتحدث عن مصر المعاصرة، وكان من سبقوه يقتبسون المسرحيات الغربية أو يترجمونها وكان البعض منهم ينسبونها إلى أنفسهم، إلاّ أن تلك المسرحيات بشخوصها وأحداثها كانت بعيدة كل البعد عن الجو الشرقى والحياة المصرية. وفى عام ١٩٠٥ دخلت الاسطوانة التى تدار على "الفونوغراف"، إلى مصر وبفضلها تم تسجيل كل ما كان فى ذلك العصر من أدوار وقصائد وموشحات وراجت رواجا عظيما، ولا يخفى أنها ساهمت فى انتشار الصوت النسائى، وخلق المعجبين به، حيث إن المستمع لم يكن فى حاجة إلى الذهاب إلى الملهى أو المسرح، ورؤية المطربات.

وفى نهاية العقد الأول من القرن العشرين ظهرت "الطقطوقة" التى عبرت عن الشخصية المصرية المرحة، وتخلصت من كثير من تأثير الغناء العثمانى، وفتن المصريون بهذا اللون الجديد والجرىء فى آن معا، حتى أنه طغى على كل ألوان الغناء الأخرى، واستخدمه سيد درويش لينطلق بالأغنية الفردية والأغانى المسرحية إلى آفاق جديدة.

وفى عام ١٩١٠ عاد جورج أبيض من بعثته إلى فرنسا ليقدم عدة مسرحيات باللغة الفرنسية، ولكن ناظر المعارف فى ذلك الوقت سعد زغلول وجهه إلى التمثيل باللغة العربية، وخضع جورج أبيض للنصيحة فقدم مسرحيات مترجمة لقيت رواجا كبيرا وإقبالا من رواد المسرح.

ثم كتب فرح أنطون مسرحيتى "مصر الجديدة" و"مصر القديمة" عام ١٩١٣، ويعتبرهما البعض البداية

الحقيقية للمسرح المصرى الأصيل. وفى عام ١٩٢٣ ألف إبراهيم رمزى مسرحية "صرخة الطفل" الذى كتب حوارها باللغة العربية الفصحى وهى، كما يقول الكاتب الكبير على الراعى، أول مسرحية اجتماعية تناقش قضية اجتماعية هى الفراغ المميت الذى تقع فيه زوجة محام شاب ناجح هى السيدة زهيرة وسبب أزمتها أنها لم تنجب، فهى تتشاجر باستمرار مع زوجها، ثم تحاول أن توقع طبيبا شابا فى حبائلها رغم أنها تعلم بحبه لأختها ورغبته الزواج منها.

بعد ذلك ظهرت مسرحيات محمد تيمور التى كان ينقلها عن الفرنسية ثم يمصرها وكانت تتميز بالحوار الدرامى باللغة الدارجة المثقفة إلى جانب اللغة العامية، ومن أهم ما كتبه أوبريت "العشرة الطيبة" التى لحنها سيد درويش. وأخيرا ظهرت أول مسرحية من تأليف توفيق الحكيم عام ١٩١٩، وكان عنوانها "الضيف الثقيل" المقصود بالطبع الاحتلال البريطانى، إلاّ أن نص هذه المسرحية اختفى،

ومازال مفقودا حتى اليوم، ثم توالت بعد ذلك مسرحيات الحكيم الاجتماعية وكانت أولها "المرأة الجديدة" عام ١٩٢٣.

كان توفيق الحكيم أحد الكتاب المثقفين الشبان الذين التفوا حول "فرقة رمسيس" التى تكونت فى هذا العام. وهى أول فرقة مسرحية مصرية منظمة؛ لها فريق متحد ومتحمس من الممثلين على رأسهم مدير - ممثل شاب هو يوسف وهبى، الذى سيلقب فيما بعد بعميد المسرح العربى، وكان للممثل - المخرج عزيز عيد فضل تكوين هذه الفرقة وانتظامها لعدة سنوات. وقد أفسحت هذه الفرقة مكانا فى الصدارة للعديد من الممثلات المصريات ومن بينهن روز اليوسف وفاطمة رشدى وزينب صدقى. وقد راجت أعمال هذه الفرقة وأقبل الرواد عليها وكانت تقدم مسرحية جديدة كل أسبوع وتحرص على تقاليد راقية للمسرح احترمها الجميع.

ورغم التراجع المتكرر فى حركة المرأة المصرية

والمقاومة التى لا تلين من أعدائها فى كل مكان، فقد أقبلت على تلك الفنون الجديدة : الغناء والتمثيل المسرحى، وأصبحت تظهر على المسرح وتتلقى تعليقات المعجبين مباشرة، بعد أن ظل الرجال يؤدون الأدوار النسائية لعصور طويلة. ومن بين الفنانات اللاتى لاقين نجاحا كبيرا شجعهن على تكوين فرق خاصة بهن فى بداية القرن الماضى (العشرين) الفنانات منيرة المهدية، وفاطمة رشدى وبديعة مصابنى .

وأول ممثلة مصرية تقف على خشبة المسرح هى منيرة المهدية (١٨٨٨- ١٩٦٥) التى بدأت الغناء فى العام نفسه الذى اشتعلت فيه الحرب العالمية الأولى، عام ١٩١٤، حيث كانت تغنى على مسرح الأزبكية التحقت بفرقة "الفودفيل" وقدمت أعمالا مسرحية على مسرح برنتانا. عملت مع الفنانين نجيب الريحانى وسلامة حجازى ثم كونت فرقتها الخاصة عام ١٩١٧ والطريف أن هذه الفنانة قلبت الآية وفعلت كل ما كان يفعله الرجال؛ فكانت تخرج

مسرحياتها وتشرف على الديكورات والإضاءة بل وتقوم بأدوار الرجال فى بعض الأوبريتات. وقد لحقت منيرة المهدية بعصر الإذاعة، وكانت أول من قدم حفلا غنائيا من خلالها عام ١٩٣٤. وقد نجحت هذه الفنانة العصامية نجاحا كبيرا حتى أن الملوك والرؤساء كانوا يدعونها للغناء فى مصر وفى البلاد العربية وقدموا لها العديد من الأوسمة والنياشين.

ومن الممثلات اللاتى لاقين نجاحا كبيرا على المسرح المصرى فاطمة اليوسف التى عرفت باسم روز اليوسف، وكانت من مواليد ١٨٨٨ (أو ١٨٩٧؟) بطرابلس لبنان لوالد تاجر يدعى محى الدين اليوسف وقد توفيت والدتها عقب ولادتها.

وصلت روز اليوسف إلى مصر وعمرها ١٢ سنة، وفى عام ١٩٠٧ أصبحت ممثلة فى فرقة أسكندر فرح وفى عام ١٩١٥ انتقلت إلى فرقة عزيز عيد وتعلمت على يديه القرآن

والكتابة. ثم فى عام ١٩١٨ انتقلت روزا إلى فرقة عبد الرحمن رشدى، إلاّ أنها لم تستمر، وتحولت إلى نهج سابقاتها من الشاميات المهاجرات إلى مصر، وفى عام أكتوبر ١٩٢٥ عاونها مجموعة من مثقفى العصر على إصدار مجلة فنية أدبية أسبوعية أطلقت عليها اسمها: "روزاليوسف"، فاعتزلت التمثيل وتفرغت لإدارة المجلة التى تحولت إلى مجلة تقود المعارضة السياسية ومازالت تصدر حتى اليوم.

تزوجت روز اليوسف من الفنان ذكى طليمات وأنجبت ابنتها آمال، ثم تزوجت الفنان محمد عبد القدوس وأنجبت إحسان عبد القدوس الذى أصبح واحدا من كبار الكتاب. وفى ٩ إبريل ١٩٥٨ توفيت روزا ليوسف عن عمر يناهز ٧٠ عاما.

أما فاطمة رشدى التى لقبت بسارة برنار الشرق فكانت شابة جميلة وموهوبة لم يشأ حظها أن تتعلم القراءة والكتابة

اكتشفها المخرج عزيز عيد، فعلمها فنون التمثيل ومحا أميتها وقدمها إلى فرقة رمسيس ثم تزوجها. بدأت الوقوف على خشبة المسرح وهى فى الثالثة عشرة وصعدت بسرعة فى سماء الفن حتى بلغت قمته وهى فى العشرين من عمرها. تدرجت من مونولوجست فى مسرح مونت كارلو بروض الفرج إلى تقديم الأوبريتات وانشأت مسرحها الخاص الذى غنى فيه المطرب الصاعد فى ذلك الوقت محمد عبد الوهاب، ومثلت ٣٠٠ مسرحية منها غادة الكاميليا ويوليوس قيصر. وكانت فاطمة رشدى من بين الرواد الأوائل الذين اقتحموا ميدان السينما الصامتة بجسارة، وقد لقيت نفس الترحيب الحار الذى لقيته عزيزة أمير زميلتها، عندما توجهت إلى مدينة الزقازيق لتحضر العرض الأول لفيلمها "الزواج"، "فعند باب المحطة كان صاحب السينما ينتظرها ومعه جواد كريم مزين بالورد والزهور وطلب إلى فاطمة أن تركب الجواد المزوق، فترددت، وإذا بالرجل يحلف بالطلاق، وركبت فاطمة الجواد وسارت به فى شوارع المدينة والموسيقى تعزف والتصفيق

يتعالى على جانبى الطريق وقد امتلأت شرفات المدينة ونوافذها بالنساء والأطفال وتجاوبت أصداء الزغاريد واضطرت فاطمة لرد التحيات على طول الطريق حتى وصلت إلى دار السينما والتعب يوشك أن يقتلها"[١]. ومن أشهر ما مثلت للسينما فيلم "العزيمة" إخراج كمال سليم، الذى يعتبره الكثيرون علامة مميزة على طريق السينما المصرية. واعتزلت الحياة الفنية عام ١٩٦٥[٢].

كان نتيجة للنجاح الكبير الذى لاقته الفنون المسرحية فى بداية القرن الماضى أن قرر الفنانون انشاء معهد للفنون المسرحية عام ١٩٣١، وانضمت إليه بعض الممثلات، الأمر الذى أثار حملة ضارية من النقد والهجوم عليه، وعلى مؤسسه الفنان زكى طليمات، فأسرعت وزارة المعارف إلى إلغائه بعد موسم واحد بدعوى أنه يحرض على فساد

(١) حكايات من تاريخ السينما وحسين عثمان،

(٢) موسوعة أعلام مصر فى القرن العشرين وكالة أنباء الشرق الأوسط الطبعة الأولى فبراير ١٩٩٦.

الأخلاق باختلاط الشاب والشابة فى الفصول وعلى مقاعد الدرس. وظلت مصر تنتظر حتى أعادت الدولة إنشاء ذلك المعهد عام١٩٤٤ ، وانتصرت الرؤية التقدمية وأصبحت فناناتنا المصريات جواهر ترصع تاج المسرح العربى فى الغناء والتمثيل المسرحى والسينمائى.

******

# ألكسندرا أفرينو "نجمة الشرق"

فى تصفحنا لتاريخ المرأة فى مصر فى بداية القرن العشرين، تستوقفنا العديد من الشخصيات النسائية التى تستحق التأمل والدراسة، أغلبهن غير مصريات، بل من جذور تركية أو شامية، هاجرن مع عائلاتهن إلى مصر، واحة الأمان، هربا من بطش العثمانيين بالمسيحيين، أو اضطهاد الأوروبيين لليهود، وكثرة مشاحنات دولهم فى القرون الماضية. الصورة التى نراها لهؤلاء النساء المتمصرات يغلب عليها الطابع المتحرر، والجرأة، التى قد تصل إلى حد الاقتحام أو التهور، مع رغبة شديدة فى الاستقرار بمصر والإنتماء إليها وخدمتها إلى أبعد الحدود. والملفت للنظر أن بعض هؤلاء المتمصرات لم يكن يتورعن عن المساهمة فى الأحداث السياسية بل والمشاركة فى المظاهرات التى تطالب باستقلال مصر وكتابة المقالات التى تحدد مطالب واحتياجات المرأة المصرية. أبرز هؤلاء المتمصرات ألكسندرا أفرينو، التى كانت أول سيدة فى مصر تنجرف إلى العمل

السياسى، وتصعد من السفح إلى القمة ثم تعود لتهوى إلى السفح فى نهاية درامية.

ولدت ألكسندرا أفرينو فى بيروت عام ١٨٧٢م لأسرة يونانية أرثوذكسية ولأن جدة ألكسندرا لأمها كانت مصرية فقد هاجرت ألكسندرا وهى فى العاشرة من عمرها (عام ١٨٨٢م) إلى مدينة الإسكندرية مع والدها نعيم خورى واستقبلهما جدها وعمها قسطنطين خورى بالميناء، وفى عام ١٨٨٦م بدأت ألكسندرا تدرس بمدرسة للراهبات فى الإسكندرية وفيها تعلمت اللغات الفرنسية والإيطالية والعربية. كانت فى السادسة عشرة من عمرها عندما التقت بشاب يدعى ميلتياديس دى أفرينو، الذى ينحدر من أسرة متعددة الجذور فالأب إيطالى والأم أسبانية، وقد جاءا إلى مصر فى عهد محمد على، وأنجبا إثنى عشر ابنا وابنة وعلى عادة أغلب الأجانب المقيمين بمصر فى ذلك الوقت، بل بعض المصريين الموسرين، حصلت العائلة على الجنسية البريطانية للتمتع بالامتيازات الأجنبية التى كانت تجعل الأجانب فى

مصر طبقة تعلو على المصريين. وكانت عائلة أفرينو تمتلك محلا كبيرا فى القاهرة لبيع الملابس وغيرها، ومازال موجودا إلى اليوم.

تطورت قصة الحب بين الشابين ألكسندرة وأفرينو وتم زواجهما بعد فترة قصيرة، فحصلت ألكسندرا على الجنسية البريطانية وأنجبا ثلاث أبناء هم إيرين وجيزيل وألكسندر. وفى ٣١ يناير عام ١٨٩٨م أصدرت ألكسندرا مجلتها "أنيس الجليس"، وقد أدارتها بنفسها بمساعدة زوجها وبعض المحررين، ثم انفرد أفرينو بادارة المجلة. وبمناسبة صدور العدد الأول أقامت ألكسندرا احتفالا خاصا حضرته زوجة ووالدة الخديوى عباس حلمى الثانى، قامت فيه ألكسندرا بإهداء المجلة إليهما. كانت هذه هى المجلة الثانية التى تصدرها إمرأة فى مدينة الإسكندرية بعد مجلة "الفتاة" التى أصدرتها هند نوفل السورية عام ١٨٩٢م، تلتها مجلة: "الفردوس" التى أصدرتها لويزة حابلين (سورية أيضا) بالقاهرة عام ١٨٩٦م .

فى عام ١٩٠٠م سافرت ألكسندرا إلى باريس لتمثل النساء المصريات فى مؤتمر اتحاد المرأة العالمى للسلام الذى انعقد أثناء المعرض السنوى، وهناك حضرت ألكسندرا مؤتمر جمعية السلام، والتقت بالأميرة جابرييلا ويزنوسكا الداعية النشطة لنزع السلاح فى العالم، واستطاعت الفتاة الممتلئة حيوية ونشاطا أن تجذب انتباه الأميرة وتحظى بإعجابها حتى أنها منحتها الوسام الذهبى للجمعية. ولابد أن العلاقة تواصلت وتطورت لدرجة أن تعجب الأميرة بألكسندرا وتقرر تبنيها ومنحها لقبها، وبالفعل حملت ألكسندرا لقب الأميرة ويزنوسكا.

وفى عام ١٩٠١م أصدرت ألكسندرا مجلة أدبية فرنسية اللوتس "Le lotus" بالفرنسية، إلاّ أنها توقفت بعد عام واحد لكثرة أعبائها المالية. وكانت أغلب المجلات النسائية تتوقف عن الصدور بعد شهور أو سنوات قليلة، أما مجلة "أنيس الجليس" فقد استمرت فى الصدور حتى ١٩٠٧م، أى أنها استمرت لمدة تسع سنوات كاملة حتى آخر إعدادها فى ٣١ ديسمبر.

لم تكتف ألكسندرا بكل هذا النشاط بالإسكندرية بل كانت تعقد صالونا أدبيا بمنزلها، وتكاتب الصحف العربية "المقطم" و"المؤيد"، الأولى موالية لبريطانيا والثانية موالية للخديوى، بل كانت ألكسندرا تراسل الخديوى عباس، وحاولت أن تصدر جريدة يومية سياسية أدبية فى ٢٦ إبريل باسم "الأقدام". وقد أكسبها نشاطها الزائد شهرة واسعة ونفوذا قويا مكنها من أن تتوسط لدى الحكومة للحصول على وظائف لبعض زبائن مجلتها، إلاّ أنه جر عليها متاعب جمة كما سنرى لاحقا.

فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، ظهر فى مصر عداء المصريين الوطنيين للشوام الموالين لبريطانيا والمتحالفين مع الخديوى المعزول عباس حلمى الثانى، كان المد الثورى فى مصر يسير على طريق الوطنية المصرية، والمثقفون يطالبون بأن تكون "مصر للمصريين"، والمتظاهرون يهتفون "الاستقلال التام أوالموت الزؤام"، بينما العرب والشوام والمغاربة .. إلخ انقسموا إلى فريق

ينادى بوحدة العالم الإسلامى الذى تذوب فيه كل القوميات، وفريق آخر يطالب بالوحدة العربية بين كل الشعوب العربية. ولعل أفرينو المولودة فى بيروت والتى نشأت فى الإسكندرية تحمست للفريق المطالب بالوحدة العربية، إلا أن جذور عائلتها الأوروبية وجنسيتها البريطانية، ألقيا بغبار كثيف على نواياها ومشاعرها وأغرى الكثيرين بالتوجس منها، وباتهامها بالتعاون مع سلطات الاحتلال، خاصة بعد أن كشف أعداؤها عن خطاب من مسئول بجهاز المخابرات البريطانية يشكر ألكسندرا على تعاونها معهم ! لم يشفع لها دعوتها للإفراج عن سعد زغلول عام ١٩١٩م إبان الثورة المصرية. فى نفس الوقت لم يكن البريطانيون راضون تماما عنها بل كانوا يشككون فى جنسيتها البريطانية هى وأولادها، وبدأت ألكسندرا تواجه بعض المشكلات القانونية، حتى أنها اضطرت للسفر إلى إنجلترا عام ١٩٢٠م لحل مشكلاتها.

ولسوء حظها لم يكن الزعيم المصرى سعد زغلول يرتاح لهذه السيدة، وكان يبدى شكوكه فيها صراحة

ويعتبرها خطرا على الأمن العام. وفى مارس ١٩٢٤م تولى سعد الوزارة، وفى يوليو من نفس العام، بعد شهور قليلة تم القبض على ألكسندرا فى القاهرة بتهمة التواطؤ فى محاولة اغتيال سعد زغلول رئيس الوزراء، وقامت الشرطة بتفتيش منزلها وفحص كافة متعلقاتها، ومصادرة بريدها الخاص ومذكراتها وأوراقها .. وواجهت أياما عصيبة، إلا أنه تم بعد بضعة أيام من التحقيق الإفراج عنها لعدم وجود دليل لإدانتها. لم ييأس أعداء ألكسندرا، فعادوا يوجهون لها اتهاما بإدارة منزلها للدعارة بدعوى اشتراكها مع أحد ضيوفها البريطانيين بإقامة حفلات للعديد من الشخصيات المهمة بما فيهم نائب رئيس حزب الوفد، ومرة أخرى فشل المسئولون فى إيجاد دليل على تلك الدعاوى.

ولابد أن الاتهامات التى طاردتها وملاحقة البوليس السياسى لها، مع تكاثر حسادها وأعدائها، كل هذا أرهقها نفسيا وبدنيا وقد تخطت الخمسين من عمرها، فغادرت القاهرة فى يوليو عام ١٩٢٥م متوجهة إلى إنجلترا للعلاج. وعندما حاولت بعد فترة الحصول على تأشيرة

للعودة إلى مصر رفضت السلطات المصرية أن تمنحها لها، وظلت تحاول العودة حتى وفاتها فى لندن عام ١٩٢٦م .

وهكذا لفظتها مصر التى أمضت بها أكثر من أربعين عاما، لأنها عاشت فى فترة تاريخية احتشدت فيها مشاعر المصريين ضد الأجانب، حتى العرب منهم، ولأنها، وهى المرأة الجميلة المثقفة الطموح، أقحمت نفسها فى غابة السياسة فى وقت كانت فيه مفروشة بالألغام، ولأنها حاولت أن تكون مستقلة، فخسرت الجميع بما فى ذلك عائلتها. وقد حصلت ألكسندرا أثناء حياتها علي تقدير كبير من أكثر من دولة، وكانت تلقب "بنجمة الشرق"، وقد منحها السلطان العثمانى "وسام الشفقة" الثانى ثم الوسام الأول، كذلك كرمها شاه إيران مظفر الدين ومنحها "وسام شرفت"، كما حصلت على تكريم من الحكومة الفرنسية ومن بابا روما.

******

## بريطانيا تكشف وجهها القبيح

طلقة رصاص واحدة فتحت باب جهنم على العالم، وسببت حربا عالمية راح ضحيتها عشرات الملايين من الأرواح، وكانت إيذانا بتغيير صورة الحياة على الأرض. فى ٢٨ يونيو ١٩١٤م قرر الأرشيدوق النمساوى فرانز فردينند ولى عهد النمسا أن تصحبه زوجته الكونتيسة صوفى فى جولة داخل عربة مكشوفة يتفقدان فيها القوات النمساوية (الهنجارية) بمدينة سيراييفو فى البوسنة. كان الامبراطور العاشق بتلك الرحلة يقدم هدية عيد زواجهما الرابع عشر إلى الزوجة المحرومة من مشاركة زوجها امتيازات منصبه لأنها لم تكن تحوز من مراتب الشرف ما يؤهلها للزواج من سليل أسرة هابسبورج .. كانت مجرد كونتيسة .. !! لهذا عارضت الأسرة زواجها منه، فلما أصر على الزواج لم تمنحها الأسرة لقب أرشيدوقة. وتنتهى الرحلة الغرامية نهاية فاجعة حين يُغتيل الأرشيدوق وزوجته برصاص شاب صربى

معارض لاحتلال النمسا لبلاده، وتكون تلك الجريمة الشرارة التى أشعلت الحرب العالمية الأولى. ففى أقل من شهرين كانت كل الدول الأوروبية مشتبكة فى حرب طاحنة ضد بعضها البعض؛ ثارت امبراطورية النمسا التى كانت تعتبر دولة عظمى فى ذلك الوقت، لكرامتها الممثلة فى ولى عهدها، وبتشجيع من الألمان، أعلنت الحرب على الصرب. ولما كانت روسيا (بقيادة القيصر نيقولا الثانى) تعتبر نفسها حامية الدول السلافية فى البلقان وخوفا على منافذها إلى البحر المتوسط من الألمان، فقد أعلنت التعبئة العامة، وأغضب ذلك ألمانيا (بقيادة الامبراطور ويليام الثانى) فأعلنت الحرب على روسيا، وخشيت بريطانيا (العظمى) من ازدياد النفوذ الألمانى فى أوروبا، وحتى لا تنافسها ألمانيا فى استعمار آسيا وأفريقيا، فأعلنت الحرب على ألمانيا بعد ذلك بثلاثة أيام، متذرعة بالدفاع عن الديموقراطية، التى لن تتحقق إلا اذا ساد العالم كله السلام !. وسرعان ما انضمت فرنسا إلى الحرب بحكم عدائها التقليدى للألمان .

كان الخديوى عباس حلمى الثانى قد سافر فى ٢١ مايو ١٩١٤ لقضاء الصيف كعادته متنقلا بين أوروبا واستنبول، وفى ٢٥ يوليو، حاول شاب مصرى يدعى محمود مظهر اغتيال الخديوى بينما كان خارجا من الباب العالى، بإستنبول، ويهم بدخول مركبته. فشلت المحاولة ولكنها تسببت فى تأخير عودة الخديوى إلى القاهرة، وبعد قليل نشبت الحرب العالمية الأولى فطلب سفير بريطانيا فى الآستانة من الخديوى أن يعود إلى مصر، ولكنه تردد، فعاد يطلب منه السفر إلى إيطاليا وأن يبقى فيها حتى تسمح الظروف بعودته إلى بلاده، لكنه لم يفعل .

وتتذرع بريطانيا بالحرب، لكى تحكم قبضتها على مصر وتطيل إقامتها بها بل وتفكر فى ضمها إليها. وتبدأ حكومتها "الديموقراطية" فى فرض سلسلة من الإجراءات القمعية التى ستجهز بها تماما على بوادر الحياة النيابية فى مصر، والتى ستصبح منذ ذلك التاريخ عُرفا تلجأ إليه الحكومات المصرية المتعاقبة: الرقابة على الصحف والبرقيات

والخطابات المرسلة بين مصر والخارج وبين مصر والسودان .. الأحكام العرفية .. قوانين الطوارىء .. تعقب المثقفين واعتقالهم دون محاكمة أو نفيهم من البلاد ... "قانون التجمهر" الذى اعتبر تجمهرا كل اجتماع من خمسة أشخاص وإن رفضوا التفرق يعاقب كل منهم بالحبس لمدة أقصاها ستة أشهر أو بغرامة أقصاها عشرون جنيها.

ورغم بعد مصر عن أحداث الحرب وظروفها، فقد ضغطت بريطانيا على الحكومة المصرية لتعلن انحيازها إلى جانبها فى الحرب ..! وفى ٢ نوفمبر أعلن الجنرال جون ماكسويل قائد جيش الاحتلال البريطانى الأحكام العرفية بمصر: "فبناء على ذلك قد صار القطر المصرى تحت الحكم العسكرى من تاريخه". ولم تكتف بذلك بل أعلنت الحرب على تركيا بحجة "الدفاع عن حقوق مصر وحريتها التى اكتسبها محمد على بالحرب"(١)، "واحتراما لمشاعر المصريين تجاه الخليفة العثمانى"، لا يطلب الجنرال الإنجليزى مشاركة المصريين، وإنما فقط امتناعهم عن كل

عمل مـن شـأنه تكديـر صـفو السـلام العـام، أو التحريض على التنافر ومساعدة أعداء ملك بريطانيا وحلفائه !

ولم يكـتف الـتحكم الإنجلـيزى بذلـك بـل ضـغطت الحكومـة الإنجلـيزية عـلى رئـيس وزراء مصـر حسـين رشـدى باشـا فـى ذلـك الوقـت لكـى يعلـن قطـع العلاقـات مـع الـدول المعادية لإنجلترا والحزب على تركيا، التى تحالفت مع ألمانيا .

و هكذا وجد الشعب المصرى نفسه فى موقف لا يحسد عليه؛ تحـول الصـديق إلى عـدو والعـدو إلى صـديق ومُـنع المصريون مـن التعامل مع تركيا أو مراسلتها أو الاتجار معها، ومُنعت السفن المصرية من الرسو فى الموانى التركية. وكانت مشـاعر السـخط ضـد العثمانيين قد وصلت ذروتهـا بـين كـل العـرب الذيـن خابـت أمـالهم فـى دولـة الخلافـة الإسـلامية ورأوا انهـيار الأمـبراطورية وضـياع مـراكش وتونـس وليبـيا، وانفـلات اليونانـيين والـبلغار مـن الاضـطهاد التركـى وتشـرد الأرمـن، والمذابح التـى ارتكبها الجيش العثمانـى بقيادة جمال

باشا (السفاح) ضد أحرار العرب فى بيروت ودمشق والقدس وغزة والموصل .. إلخ.

ويصف أحد المؤرخين تلك الفترة بقوله: "ومجمل القول: كانت الدولة العثمانية آيلة إلى الانهيار، تقوم بمجهود حربى من طراز عتيق، كأن تستعمل خشب الزيتون فى قاطرات السكة الحديدية عوضا عن الفحم الحجرى، وتستعمل أسلحة صدئة تتكسف أمام الأسلحة الأوروبية الحديثة، وذات نظام عسكرى مضحك، وكريه فى نفوس العرب ..... ونتيجة لمختلف عوامل التأخر... مضافا إليها حصار السواحل الذى تقوم به أساطيل الحلفاء، ثم سوء نظام الإدارة - انتشر الجوع فى البلاد العربية على الخصوص، والدولة العثمانية على العموم. لقد غدا بعض الناس ينقب الشعير من روث خيول العسكر كى يجففه ويطحنه، وأُكل لحم الحمير والكلاب، وحتى لحم الأطفال أحيانا (!) ولهذا انتشر السل، وفتكت الأمراض بالأطفال خاصة .. ورأى الناس غمة ما بعدها غمة ..".

وقد ظل المصريون على ذهولهم وتخبطهم وتناقضهم مع بعضهم البعض فى فترة من أحلك فترات التاريخ المصرى، فلم تبد القيادة السياسية فى ذلك الوقت اعتراضها على ذلك التدخل السافر فى شئون البلاد، واعتبرت بريطانيا غياب الخديوى فى إستنبول انضماما لأعدائها (تركيا)، وانتهز المعتمد البريطانى كتشنر تلك الفرصة ليقنع وزارة الخارجية البريطانية بخلع الخديوى، فى ١٠ ديسمبر ١٩١٤ وأعلن ملك بريطانيا ارتقاء عمه الأمير حسين كامل "أريكة السلطنة المصرية" ومنحه لقب السلطان لكى يكون ندا لحكام تركيا، ثم أعلنت بريطانيا حمايتها على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ وألغت وزارة الخارجية المصرية فأصبحت علاقات مصر بالدول الخارجية عن طريق المعتمد البريطانى وحده !! .

وبدلا من أن تعلن بريطانيا الاعتراف باستقلال مصر بعد زوال السيادة التركية عنها، إذا بها تكشف عن وجهها القبيح. كانت قد أعلنت عام ١٨٨٢ أن مهمة جيوشها فى

مصر "إخماد الفتنة العرابية وحفظ العرش من التهديد. وبانتهاء ذلك تكون مهمتهم قد انتهت وينصرفون إلى بلادهم". واذا بهم يفعلون عكس ذلك تماما، فتخلع ابن الخديوى توفيق الذى دخلت مصر بجيوشها لتحميه، وتنقل الحكم لفرع آخر من العائلة .

كل تلك الأحداث الجسام نبهت المثقفين المصريين إلى حتمية إجراء تغيير جذرى فى حياة الشعب المصرى ورأى البعض منهم أن وضع المرأة كما أراده العثمانيون لم يعد يتفق مع الزمن الحاضر، وأن الحرية التى يطالبون بها ستظل منقوصة طالما أن نصف الشعب لا يتمتع بها. واحتدم الحوار أو الصراع بين أنصار حرية المرأة وأعدائها، ووصل إلى ذروته عندما أصدرت المجموعة المسئولة عن تحرير "الجريدة" مجلة باسم "السفور" فى مايو ١٩١٥ برئاسة تحرير عبد الحميد حمدى الملقب بزعيم السفوريين، تصدرتها مقالات تحرض المرأة المصرية على الثورة على حياة الحريم وتناديها بأن تتخلى عن الحجاب العثمانلى وأن تخرج من قوقعة البيت

للمشاركة فى الحياة العامة واستعادة حقوقها التى كفلها لها الإسلام. وكان عبد الحميد حمدى يرى المرأة المصرية رمزا لمصر كلها، وتحررها مقياسا لتحديث المجتمع كله، وقد كتب يقول: "ليست النساء وحدهن المحجبات فى مصر، فالأمة كلها مفروض عليها الحجاب".

*******

# أصحاب المعالى وأصحاب السعادة

لم ينل الشعب المصرى حريته المقدسة إلا عبر طريق طويل من التضحيات والشهداء، ورغم ذلك كانت هناك طبقة من أبنائه لا تسعى إلا لمصالحها الخاصة، بصرف النظر عن العواقب. لم تتوقف دسائس ومؤامرات الخديوى "المخلوع" عباس الثانى لاسترداد عرشه من عمه السلطان حسين. وكان للخديوى مؤيدون كثيرون فى مصر، يتمنون عودته، باعتباره الحاكم الشرعى للبلاد، وانتشرت بين العامة العبارة الشهيرة "الله حى عباس جىّ....". لجأ عباس إلى الدولة العثمانية التى أبت أن تصدق أن الزمام قد أفلت من يدها، وأن الجوهرة الثمينة التى كانت تزين تاجها قد سُلبت منها إلى الأبد. وفى ٢ فبراير ١٩١٥م أرسلت الحكومة العثمانية حملة عسكرية وصلت إلى الضفة الشرقية لقناة السويس بهدف "تحرير مصر" بقيادة جمال باشا (المعروف

بجمال السفاح)، ولكن تلك الحملة فشلت فى اقتحام الحدود المصرية، بعد أن تصدت لها القوات البريطانية بمعاونة كتيبة من الجيش المصرى بقيادة الملازم أحمد حلمى، وتقهقر السفاح العثمانى بعد هزيمته الساحقة إلى لبنان، حيث بدأ حملة من الإعدامات للوطنيين والإصلاحيين العرب الذين كانوا يتعاونون مع بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى على أمل تحريرهم من الطغيان العثمانى .

وكان الشعب المصرى يشعر بالغضب الشديد على السلطان حسين كمال، الذى قبل الحماية البريطانية، وسكت على أن ترث بريطانيا "حقوق السيادة وجميع الحقوق الأخرى التى كانت تدعيها الحكومة العثمانية"، ولم يعترض على إلغاء وزارة الخارجية المصرية، ولا على تأجيل النظر فى الغاء الإمتيازات الأجنبية إلى ما بعد الحرب .. إلخ، وفى مقابل ذلك منحته بريطانيا فى خطاب التكليف رشوة رخيصة هى الحق فى الإنعام بالرتب والنياشين على رعاياه، وكان السلطان العثمانى يستأثر به من قبل. وفى خضم

السخط الشعبى العارم، والمعاناة الرهيبة التى كان الشعب المصرى يمر بها، راح السلطان حسين يوزع فى بذخ ألقاب الباكوية والباشوية على طبقة الأعيان والوجهاء وكبار الموظفين، فى محاولة لاستمالتهم، وبمقتضى الأمر السلطانى الصادر فى ١٨ إبريل ١٩١٥م رقى الوزراء ليصبحوا أصحاب معالى بعد أن كانوا أصحاب سعادة، وأصبح لقب "صاحب المعالى" للوزراء ورئيس الجمعية التشريعية والسردار ورئيس الديوان السلطانى وكبير أمناء السلطان، وأصحاب الوشاح الأكبر من نشان محمد على، وحائزى رتبة الامتياز، أما لقب "حضرة صاحب السعادة" فللفريق العسكرى وللحائزين لرتبة باشا، ولقب "صاحب السعادة" فقط للحائزين لرتبة اللواء العسكرية .. إلخ(١).

كان الكاتب الكبير أحمد لطفى السيد قد شن حملة شعواء على أولئك الذين يتهافتون على شراء الألقاب

(١) ثورة ١٩١٩م عبد الرحمن الرافعى ج١ صفحة ٢٩ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥م.

التركية، فكتب فى "الجريدة" يقول: "نعذر ذلك الذى يحب أن يكون محترما عند قومه، عاليا فى المرتبة بينهم، يسعى إلى بلوغ هذه الغاية بالأخذ بأسباب نفعهم وتقدمهم. يبنى الكتاتيب والمدارس، ويشارك بنصيب عظيم فى الجامعة، ويبر الضعفاء والمساكين ويتبرع للجمعيات الخيرية، إسلامية وقبطية. ولكن ما عذر ذلك الذى يستكثر ماله أو يظهر أنه يستكثره فيشترى له رتبة أو نيشانا، ويظن أنه يكون بذلك محترما عند الناس...."(١)، ثم خاطب الحكومة بقوله: "الحكومة يجب أن تعلم كما نعلم نحن الأفراد أن كثيرا من الرتب يباع ويشترى. فإذا كانت لا تزال مع هذه الشهرة والإجماع، تعتذر بعدم العلم، فلا تؤاخذنا إذن إن قلنا إنها لاتعيش معنا على الأرض، بل هى ساكنة فى السحاب. نبهتها الجرائد قبل الآن فلم تنتبه، فما هى إلا غافلة عن مصلحة الآداب العامة والاخلاق أو متغافلة عنها، وهى فى

---

(١) المنتخبات. أحمد لطفى السيد ج ١ دار النشر الحديث ١٩٣٧م.

الحالين تستحق استياء الأمة منها والتقريع عليها، حتى التشهير بها"(١).

لم تفلح تلك المحاولات فى استرضاء الشعب الغاضب، وعندما زار السلطان حسين مدرسة الحقوق لم يجد طالبا واحدا فى استقباله، قاطعه جميع الطلبة، وقبل أن تكتمل أربعة شهور تعرض للمحاولة الأولى لاغتياله فى ٨ إبريل ١٩١٥م بعيار نارى أطلقه تاجر فى عابدين، ولكنه نجا من المحاولة، ثم تمت محاولة أخرى لاغتياله بعد شهور قليلة، فى يوليو، وهو خارج من مسجد بالإسكندرية بعد أدائه لصلاة الجمعة، وذلك بالقاء قنبلة يدوية عليه ولكنها لم تنفجر.

تصاعدت الأحداث إلى ذروتها بعد اكتشاف الاتفاقية السرية (سايكس بيكو) فى مايو ١٩١٦م التى قسمت الإرث

---

(١) كتب أحمد لطفى السيد هذا فى عهد الخديوى عباس، كأنه كان يتنبأ بما سيحدث فى عهد سلفه الذى اغتصب العرش تحت حماية أعداء البلاد.

العثماني بين بريطانيا وفرنسا، وكشفت النوايا الحقيقية للفرنسيين والإنجليز تجاه العرب وتم الاتفاق فيها على وضع العراق وفلسطين تحت الانتداب الإنجليزى، وسوريا ولبنان وولاية الموصل تحت الانتداب الفرنسى. وفى ١٠ يونيو ١٩١٦م أعلن الشريف حسين من مكة المكرمة بدء الثورة العربية على الأتراك، وما لبثت الثورة أن انتشرت فى باقى مدن الجزيرة العربية. انتهزت "الأسد العجوز" بريطانيا تلك الفرصة الذهبية، فشجعت تمرد الحكام العرب على الهيمنة التركية، وفى نفس اليوم الذى بدأت فيه القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبى، والثورة العربية الهجوم على فلسطين فى ٢ نوفمبر ١٩١٧م أعلن وزير خارجية بريطانيا بلفور وعده المشئوم بتمكين الإسرائيليين من أرض فلسطين العربية مكافأة لهم على تعاونهم مع الحلفاء فى الحرب ضد ألمانيا. وفى ١٣ نوفمبر احتلت جيوش الحلفاء مدينة إسطنبول، ودخلت القوات البريطانية القدس العربية الشريفة فى ٩ ديسمبر. وكانت تلك هى البداية لهزائم وانسحابات الجيش

التركى من البلاد العربية، وكذلك تسلل الثعبان الصهيونى إلى حِجر العرب.

ويبدو أن وقع الأحداث كان قويا على السلطان المصرى حسين كمال، فقد توفى فى التاسع من أكتوبر عام ١٩١٧م بعد اشتداد المرض عليه وبعد أن وعى تماما رفض الشعب له، رغم محاولاته لتأكيد شرعيته واستخدام الطعم الذى ألقت به إليه دولة الاحتلال. وقبل وفاته رفض ابنه الوحيد، الأمير كمال الدين حسين، أن يخلفه، وتنازل كتابة عن العرش، الأمر الذى شجع "بريطانيا" على أن تفرض إرادتها للمرة الثانية وتعين الأخ الأصغر للسلطان حسين: الأمير أحمد فؤاد سلطانا على عرش مصر[1]، ولتأكيد هيمنتها على مصر جاء فى قرار التعيين: "إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض على عظمتكم تبوء هذا العرش السامى، على أن يكون لورثتكم من

---

(١)( سيعلن نفسه ملكا فى ١٨ إبريل عام ١٩٢٣م).

بعدكم، حسب النظام الوراثى الذى سيوضع بالاتفاق بين حكومة صاحب الجلالة البريطانية وبين عظمتكم"[1]. وقبل الأمير ذلك العرض السخى ممتنا وأعلن ولاءه لبريطانيا بصفتها "الدولة الحامية عرش السلطنة المصرية"، وتعبيرا عن هذا الامتنان اجتمع مجلس الوزراء يوم ٩ مارس ١٩١٨م برئاسة السلطان فؤاد وقرر أن تتنازل الحكومة المصرية عن مبلغ ثلاثة ملايين جنيه مصرى ونصف، كانت الخزانة المصرية قد أقرضته للحكومة البريطانية أثناء الحرب، "اعترافا بجميل بريطانيا العظمى التى حمت البلاد من خطر الغارات" !! وبهذا ترسخت الحماية البريطانية على مصر، وأصبحت الإجراءات المتعسفة التى اتخذتها سلطات الاحتلال طوال الحرب العالمية الأولى مبررة، وتستوجب الشكر !!

---

(١) ثورة ١٩١٩م عبد الرحمن الرافعى ج١ صفحة ٤٥ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥م.




من العسير على دولة غازية أن تتخلى عن الأرض التى قهرتها والشعب الذى استعبدته وحرمته من ثروات بلاده، فقد دخلت الجيوش البريطانية مصر بزعم حماية الخديوى توفيق من ثورة الضباط المصريين، وبعد وفاة توفيق لم يكن ابنه عباس صديقا للإنجليز ولا راغبا فى استمرارهم بالبلاد، ورغم ذلك بقوا، بل وانتهى الأمر بأن خلعوه عن العرش، و"عينوا" عمه حسين كامل، ثم عمه الآخر أحمد فؤاد. أى أنهم فعلوا عكس ما جاؤا من أجله؛ بدلا من حراسة العرش لتوفيق ونسله من بعده، حولوه إلى فرع آخر من عائلة محمد على .

بعد سنوات من استمرار الاحتلال رغم إرادة الشعب المصرى، تحول الأمر إلى "حماية" مصر من عواقب الحرب العالمية الأولى. وانقسم المصريون إلى فريقين، الأول يطالب بمساندة تركيا فى الحرب وبالنضال من أجل إنهاء

الاحتلال البريطانى فورا، والثانى من يؤمنون بالمثل الأمريكى القائل "بأنك إذا رقصت مع الذئب يمكنك أن تروضه"، وكانوا يرون أن "نار الإنجليز ولاجنة الأتراك"، و"عدو عاقل خير من صديق غبى ومتخلف وغاشم" !! وقد تصوروا أن مصر إذا اتبعت فلسفة "الرقص مع الذئب". واستمرت فى سياسة الملاينة والتعاون مع الإنجليز حتى تنتهى الحرب ستضرب العصفورين أو بالأحرى "الحدأتين" بحجر واحد: تتخلص من تركيا نهائيا، وبعد ذلك "ستختشى بريطانيا على دمها"، وتقدم الاستقلال إلى مصر على طبق من فضة، مع خطاب شكر وامتنان على وقوفها إلى جانبها ومساندتها طوال الحرب !!

وفى ١١ نوفمبر ١٩١٨م عقدت الهدنة بين ألمانيا والحلفاء، وأعلنت نهاية الحرب. وبدأت ملامح العالم الجديد تتضح، عالم بلا أمبراطوريات ولا سلاطين ولا قياصرة. انهارت أمبراطورية آل هابسبورج الذين تسببوا فى إشعالها، وأعلنت الجمهورية فى ألمانيا وطرد القيصر،

وأسقطت الثورة البلشفية الامبراطور الروسى، ثم أعدمته هو وعائلته، وأعلنت قيام اتحاد الجمهوريات السوفيتية فى روسيا.

أما الخلافة الإسلامية فقد بدأت تتهاوى .. استسلمت حكومة السلطان ووقعت الهدنة مع الحلفاء فى ٣٠ أكتوبر بعد أن اقتحمت قوات الحلفاء البريطانية والإيطالية والفرنسية الآستانة، ووصل الجيش اليونانى منطقة أزمير واحتلها. لقد كانت هزيمة تركيا فى الحرب العالمية الأولى ساحقة ووصل الأمر إلى درجة أن ثارت مناقشات دولية حول تدويل العاصمة التركية، الآستانة (استنبول) وما يحيط بها من مضايق بحرية، أو وضعها تحت الانتداب الأمريكى !. ولم يكن من المنطقى أن تظل البلاد الخاضعة للهيمنة التركية فى الاستمرار على الوضع القديم، فطالب أغلبها بالاستقلال، وانتظر المصريون إعلان النجاح الساحق لخطتهم.

وفى زحام الاحتفالات بانتصار بريطانيا وحلفائها فى الحرب، حدث ما أصاب أصحاب سياسة "الرقص مع الذئب" بصدمة مروعة. فقد تفتق ذهن المستشار البريطانى سير ويليام برونيت مستشار دار الحماية البريطانية بمصر، ومستشار المالية، فى نوفمبر ١٩١٨م عما سمى "بالقانون النظامى"، وهو مشروع قانون يرسخ الاحتلال، ويجعل من مصر عزبة دولية يرتع فيها أفاقوا الغرب وشذاذ الأوروربيين والمغامرين من كل جنسية. وبدلا من إلغاء الامتيازات الأجنبية التى ضاق المصريون ذرعا بها، والانسحاب فورا من الأراضى المصرية، والاعتراف باستقلال مصر وحق شعبها فى أن يحكم نفسه بنفسه دون وصاية من أى دولة أجنبية، اقترح برونيت إنشاء مجلس نواب مصرى، يؤلف من المصريين، لكنه استشارى محض، ليس له سلطة قطعية فى أى أمر من الأمور، على أن تكون السلطة التشريعية كلها لمجلس شيوخ يتكون من أقلية مصرية وأغلبية من الأجانب !! أى أن الأجانب لن يرحلوا، بل سيحكموا ويشرعوا !!

كان رئيس الوزراء المصرى حسين رشدى باشا على رأس المؤمنين بسياسة المهادنة للإنجليز، ورغم ذلك انتفض رافضا المشروع وأعلن استنكاره الشديد له، وكتب مذكرة أذاع بها سر ذلك المشروع ورد بها على المستشار الإنجليزى برونيت قال فيها:

".. فلقد جاءت بريطانيا العظمى إلى مصر فى عام ١٨٨٢م بدعوة من ولى الأمر حينئذ (الخديوى توفيق)[1]. لقمع فتنة عسكرية (الثورة العرابية) وقابلتها جميع الطبقات الرزينة من السكان (!) مقابلة الصديق لصديقه، وقام ضباط أركان حرب المصريين بمؤازرتها فى مهمتها بتقديم المعلومات والخطط إلى هيئة أركان حربها (!!). وعندما اشتبكت بريطانيا العظمى فى حرب مع تركيا بقيت هادئة بل جنحت إلى تمام السكون وذلك بالرغم من اضطراب الضمائر اضطرابا خطيرا من الوجهة الدينية بسبب الخلافة. بل إن مصر تعدت ذلك الموقف أيضا

(١) كل الكلام بين القوسين للمؤلفة.

فبذلت للجيش البريطانى معاونة من أفضل وجوه المعاونة الفعلية. فجعلت تحت تصرف القائد العام جميع مواردها من مال ومؤونة ووسائل نقل ورجال، فأرسلت إلى فلسطين جيشا للمساعدة المستديمة يبلغ عدده ١٧٠٠٠ مصرى (فرق العمال وفرق الجمالة) ولقد أوجب استبقاء هذا الجيش بهذا العدد على الدوام استخدام نحو مليون ونصف مليون من رجال مصر..... إلخ"(١).

كان المفروض أن يتم ذلك المشروع الخبيث سرا، ولكن مذكرة رئيس الوزراء أفشته، وعم السخط على الحماية، وتنبه رجال السياسة المصريون إلى ضرورة التحرك بسرعة للتخلص منها.

أما بريطانيا فكانت تجرى فى اتجاه آخر ؛ ففى ٣٠ يناير ١٩١٩م قررت الدول الكبرى سلخ أرمينيا وبلاد العرب عن تركيا، واعتبرت أنه من الممكن الاعتراف مؤقتا

(١) مذكرات سعد زغلول صفحة ٢١٩.

باستقلالها بشرط أن تتلقى المساعدة والمشورة من دولة منتدبة. وبذلك تمت "ترقية" الاحتلال، فبعد أن تحول أثناء الحرب إلى حماية، أصبح بعدها يسمى بالانتداب، وبمقتضى ذلك القرار تصبح مصر تحت "الانتداب البريطانى"، ويبقى بها الجيش البريطانى، ويتحقق حلم إنجلترا بأن تستمر إلى الأبد رازحة فوق أنفاسها وتظل بلاد العرب إلى مالا نهاية سوقا مفتوحة لتوريد المواد الخام وتسويق المنتجات الأوروبية.

وفى ٦ فبراير ١٩١٩م عقد مؤتمر دولى بباريس، لمناقشة شروط السلام والصلح برئاسة رئيس الوزراء الفرنسى كليمانصو، حضره رئيس الوزراء البريطانى لويد جورج والرئيس الأمريكى ويلسون، وخيمت على الجميع سحابات الأمل الواجف فى تطبيق المبادىء التى أعلنها الرئيس الأمريكى فى ذلك الوقت ويدرو ويلسون ومن بينها حق الشعوب فى تقرير مصيرها، وتكونت وفود من الدول المحتلة لحضور المؤتمر وتمثيل شعوبها، ومن بينها وفد عربى برئاسة الشريف فيصل الحسين ابن شريف مكة

الذى تمكن من المشاركة فى المؤتمر وتحدث لمدة عشرين دقيقة أمام الوفود، وكان يصحبه ضابط بريطانى يدعى لورانس قام بترجمة كلمته للمؤتمر إلى اللغة الإنجليزية (الذى أنتج عنه فيلم عالمى شارك عمر الشريف فى بطولته)، وطالب الأمير فيصل بن الحسين بوحدة واستقلال كل الدول الناطقة بالعربية. أما الوفد المصرى الذى سافر إلى باريس ليمثل شعب مصر فلم تعط له الفرصة مطلقا ليشارك فى المؤتمر !!

وهكذا تبين للجميع فشل أسلوب "الرقص مع الذئاب"، بعد أن قُدمت مصر لقمة سائغة للأسد البريطانى العجوز ليلتهمها بلا هناء ولا شفاء، وما كان من السهل عليه بعد ذلك أن يتخلى عنها دون أن يجبر على ذلك إجبارا.

******

# شاهد من أهلهم

رحلة طويلة وشاقة قطعها آباؤنا العرب للصعود من السفح إلى القمة، وكانوا مثل سيزيف بطل الأسطورة اليونانية القديمة، كلما صعدوا جبلا تآمرت عليهم قوى البغى لكى يتدحرجوا مرة أخرى إلى السفح. وخلال تلك الفترة الحالكة من تاريخنا لم يتوان أى شعب عربى عن المطالبة بحقوقه المشروعة فى الاستقلال والحكم الذاتى، وتوالت الانتفاضات والثورات وحركات التحرير العربية التى استحقت أن يؤرخ لها فى مجلدات، وكان يتزعمها رجال على قدر كبير من الشجاعة والرغبة الصادقة فى التضحية من أجل الدعوة إلى الجهاد لله والوطن منهم على سبيل المثال الأمير عبد القادر وأحمد الباى ومقرانى فى الجزائر وعلى بن خليفة فى تونس والمولى عبد الحفيظ وسيدى راحو وعبد الكريم الخطابى فى المغرب، وسليمان الباروسى وفرحات بك وعمر المختار فى ليبيا والإمام

الشيرازى فى العراق .. إلخ بالإضافة إلى العديد من الجمعيات السرية والعلنية فى المشرق العربى التى كانت تدعو إلى الوحدة بين العرب والاستقلال عن تركيا ومقاومة الغزو الأوروبى[١] .

وفى مصر استيقظت الحركة الوطنية على صيحة الضابط الفلاح أحمد عرابى "لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم"، ثم أعلن الزعيم الشاب مصطفى كامل: "كل احتلال أجنبى هو عار على الوطن وبنيه". وبعد وفاته سار رجال الحزب الوطنى على الدرب تحت قيادة الزعيم الوطنى محمد فريد، صديق مصطفى كامل ورفيقه فى النضال وحامل المشعل بكل إخلاص ووفاء من بعده. وإلى جانب النضال السياسى احتشدت كتابات المثقفين وجهودهم جميعا للتعبير عن رفض مصر للاحتلال البريطانى ودحض المزاعم التى كان يشيعها البعض أنه

(١)الغزوة الاستعمارية للعالم العربى وحركات المقاومة د. عبد العظيم رمضان الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ مكتبة الأسرة

خلّص المصريين من الظلم والجلد والسخرة ورفع مستوى المعيشة فى البلاد .. إلخ وقد رد على تلك المزاعم الشاعر حافظ إبراهيم فى قصيدة كتبها مخاطبا الاحتلال يقول فيها:

لقد كان فينا الظلمُ فوضى فهُذِّب ❖ حواشيه حتى بات ظلما منظما

تمنُّ علينا اليوم أن أخصب الثرى ❖ وأن أصبح المصرى حرا منعما

أعد عهد إسماعيل جلدا وسخرة ❖ فإنى رأيت المنَّ أنكى وآلما

عملتم على عِز الجماد وذلنا ❖ فأغليتم طينا وأرخصتم دما

إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها ❖ فلا أطلعت نبتا ولاجادها السما

نهشُّ إلى الدينار حتى إذا مشى ❖ به ربُه للسوق ألفاهُ درهما

فلا تحسبوا فى وفرة المال- لم تُفد ❖ متاعا ولم تعصم من الفقر- مغنما

فإن كثير المال- والخفضُ وارفٌ- ❖ قليلٌ إذا حل الغلاءُ وخيما

ذاق الشعب المصرى الأمرين طوال الحرب العالمية الأولى، وارتفعت درجة حرارة سخطه على الإنجليز. وقد

وصلت ممارسات القمع الإنجليزى للشعب المصرى إلى الحد الذى جعل بعض المنصفين من الإنجليز يعترفون صراحة بالأخطاء الفادحة لحكومتهم، فقد كتبت سيدة إنجليزية تدعى مس ديرهام، كانت تقيم بمصر فى الفترة من نوفمبر ١٩١٥م إلى إبريل سنة ١٩١٦م، شهادة حق نشرتها جريدة الديلى نيوز فى عدد ٢ إبريل ١٩١٩م، اعترفت فيها بسوء معاملة السلطات الإنجليزية للمصريين، وقالت فيها: "لقد ارتكب ولاة الأمور فى مصر أسوأ الأغلاط، إذ أتوا بجنود من المستعمرات إلى البلاد المصرية من غير أن يذكروا لهم شيئًا عن السكان الذين سيعيشون بين ظهرانيهم، وقد بلغ جهل هؤلاء الجنود أن كانوا يظنون أن مصر بلاد إنجليزية، وأن المصريين قوم دخلاء، ويعجبون كيف سمح لهؤلاء العبيد أن يأتوا إلى هذه الديار، ولقد سمعت غير واحد من الأستراليين يقول: لو كان الأمر بيدى لما أبقيت على واحد من المصريين فى هذه البلاد". وشهدت مس ديرهام بأن جنود الأمبراطورية العظمى "كانوا

يعاملون المصريين بأشد أنواع القسوة والاحتقار" وقالت "ولقد رأيت بعينى فى الكانتين الذى كنت به، جنديا يضرب بقدمه خادما مصريا أمينا لا لشىء إلا لأنه لم يفهم أمرا أصدره إليه، وأبصرت مرة أخرى جنديا يلكم شابا متعلما، فى صدره ويغتصب منه عصا ثمينة اشتهاها لنفسه .... وأقسم لو كنت مصرية لما ترددت فى بذل النفس والنفيس لطرد الإنجليز من مصر، وإنى والحق يقال كنت أخجل من انتسابى لبلادى، وكثيرا ما أنبت الإنجليز تأنيبا مرا....إلخ".

وهناك شهادة حق أخرى جاءت فى مقال نشرته جريدة "رائد العمال" الإنجليزية فى ٣ إبريل ١٩١٩م، أى بعد أقل من شهر على اندلاع الثورة المصرية، ويصور المقال الأهوال التى لاقاها المصريون من تطبيق نظام للتطوع فى الجندية وضعه الجيش الإنجليزى المحتل "صدرت الأوامر بأخذ العمال من الحقول بالإكراه (وكان رجال الحكومة (المصرية طبعا) يدخلون القري وينتظرون رجوع الفلاحين

إلى منازلهم فى الغروب، فيحدقون بهم كالأنعام، وينتقون خيرهم للخدمة، فإذا رفض أحدهم هذا "التطوع الإجبارى" جُلد حتى يقر بالقبول، وعلى هذا النحو ساقوا أطفالا من سن ١٤ سنة، وشيوخا من سن السبعين ويزيد، وأما الكشف الطبى فكان حديث خرافة، فكانت الجموع المريضة من هؤلاء المساكين تساق لتأدية الأعمال الحربية، والكرباج كفيل بتسخيرهم من غير حساب فى الأعمال الشاقة، وأصبح الجلد من الأعمال اليومية، وكلف الأطباء بتنفيذ الجلد والكشف على المرضى فى بقعة واحدة، حتى خاف المرضى الخلط بينهم وصفوف المقدمين للجلد، وإن سوء الغذاء ورداءة الكساء وقلة الغطاء، فضلا عن عدم وجود الخيام، حيث يلتحف هؤلاء المساكين السماء ويفترشون الغبراء، جعل هؤلاء الآدميين فريسة الأمراض الوبائية، كالتيفوس وغيره، وضاعف فى تأثير ذلك الجوع والبرد، فكانوا يموتون كالذباب فى الصحراء........

لم يكن عدد هؤلاء البؤساء قليلا بل كان يزيد عن

مليون مواطن مصرى، استولت السلطة على حاصلاتهم الزراعية ومواشيهم وأرغموا على ما سمى زورا بالتطوع، وكانوا يُربطون بالحبال كالماشية ليركبوا القطارات فى مركبات الحيوانات، ويساقون إلى جبهات القتال فى ظل حراسة مشددة. حدث كل هذه الأمور تحت سمع وبصر الحكومة المصرية والسلطان أحمد فؤاد الذى أصدر فى ٢٠ أكتوبر ١٩١٨م مرسوما سلطانيا يشجع الأهالى على "التطوع" فى خدمة السلطة العسكرية، بعدها بأيام قليلة أصدرت السلطة العسكرية فى نوفمبر ١٩١٨م بلاغا يجبر الناس على تسليم كل ما لديهم من جمال أو نوق أو حمير إلى المراكز والأقسام لمعاينتها تمهيدا لشرائها (بأبخس الأثمان)، أما ما لا يصلح للأعمال العسكرية فيدمغ بعلامة مخصوصة.

بعد شهور قليلة، فى ٩ مارس ١٩١٩م، أعلن الشعب المصرى رأيه فى الاحتلال والحماية البريطانية المزعومة، فى انفجارة هزت أركان الامبراطورية العجوز وكانت

مفاجأة لكل الأطراف بلا استثناء: الإنجليز والسلطان والحكومة المصرية والقوى الوطنية ...

******

# أمريكا والقضية العربية

يرى البعض أن ٩٩٪ من أوراق حل القضية العربية فى حوزة الولايات المتحدة الأمريكية، وقد يدهش هؤلاء إذا عادوا إلى صفحات تاريخنا المعاصر، أن يعرفوا أن هذا المبدأ ليس وليد الحاضر، وإنما كان أملا وهاجسا يتحرك فى صدور الساسة المصريين منذ بداية القرن العشرين .

فى مارس ١٩١٠ زار تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية مصر وألقى خطبة فى الجامعة أيد فيها سياسة الاحتلال البريطانى لمصر وهاجم الحركة المصرية المطالبة بالدستور، وقال فيها "لا يمكن إعداد شعب للحكم الذاتى باعطائه دستورا على ورق، لأن تربية أمة لتصير أهلا لحكم نفسها، ليست مسألة عشر سنين أو عشرين سنة، بل هى مسألة أجيال متتابعة..!!". وقد لقيت هذه الخطبة المناصرة للاحتلال معارضة شديدة من القوى الوطنية فأرسل محمد فريد برقية احتجاج بالنيابة عن

اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى، للرئيس الأمريكى وبعث بها إلى الصحف الأوروبية الكبرى. وقررت اللجنة أيضا الاحتجاج على إدارة الجامعة، لسماحها بإلقاء هذه الخطبة فى دارها، ومنحها روزفلت لقب دكتور بعد إلقائه إياها[1]، ونظم شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدة ذكر فيها روزفلت بموقف الأمريكان من الإنجليز وقت أن كانوا يحتلون بلادهم قال فيها :

| | |
|---|---|
| أنت تطريهم وتثنى عليهم | نائيا آمنا وراء البحور |
| ليت شعرى أكنت تدعو إليهم | يوم كانوا على تخوم الثغور |
| يوم كانوا قذى بعين (نيويور | ك) وداء مستحكما فى الصدور |
| يوم نادى (وشنجتون) فلبا | ه من الغيل كل ليث هصور |
| يوم سجلتم على صفحات الد | هر تاريخ مجدكم بالنور |

وفى يناير ١٩١٧م لاح بصيص من الأمل أمام

(١)(محمد فريد) عبد الرحمن الرافعى الطبعة الثالثة ١٩٦١م مكتبة النهضة المصرية صفحة ١٩٤.

الوطنيين عندما طالب الرئيس الأمريكى ويدرو ويلسون فى رسالة إلى مجلس الشيوخ الأمريكى بتطبيق مبدأ منرو على كل شعوب العالم "فلا يجوز لأمة أن تكره أمة أخرى على اتباع سياستها، وإنما يجب أن يترك لكل شعب الحق وحده فى تقرير سياسته ورسم طريقه الذى يراه مؤديا إلى التقدم "بعد عام واحد أعلن ويلسون مباده الأربعة عشرة، مطالبا بإنشاء "جمعية أمم لوضع الكفالات لضمان الاستقلال السياسى وسلامة الأملاك لجميع البلدان صغيرها وكبيرها على حد سواء".

كان حلم الاستقلال التام قد استيقظ فى قلوب المصريين وفى مقدمتهم سعد زغلول الذى أثارهم فى خطبة حماسية وزعها الوفد وانتشرت بين الناس كالنار فى الهشيم بعد أن ألقاها سعد فى اجتماع حضره أعضاء الجمعية التشريعية وغيرها من الهيئات النيابية والأعيان بمنزل حمد الباسل يوم ١٣ يناير ١٩١٩م، اليوم الأول لانعقاد مؤتمر السلام، وقال فيها "ليست فكرة الاستقلال

جديدة فى مصر بل هى قديمة يتأجج فى قلوب المصريين الشوق إلى تحقيقها كلما بدت بادرة أمل فيه، وتخبو تارة كلما استطاعت القوة أن تخمد أنفاس الحق"[1]. وقد أبدى فى خطابه هذا استعداد المصريين لاستمرار الامتيازات الأجنبية لتشجيع الأجانب على الإقامة بمصر، بعد عمل بعض التعديلات عليها، واستمرار المراقبة المالية على خزانة مصر على أن يقوم بها صندوق الدين العمومى وحياد قناة السويس والالتزام بالعائلة المالكة، (عائلة محمد على)، ووفق مبدأ "السكوت عن المطالبة بالحق، اعتمادا على سوء الظن بهم، يكون جريمة لا تغتفر"[2]. أنهى خطبته بتلاوة نص برقية قرر إرسالها إلى الدكتور ويلسون، الذى أطلق عليه لقب "محرر الشعوب" اعترافا بجميله على ما يعانى فى الدفاع عن قضايا المظلومين، واعتدادا بفضله على الإنسانية، قال فيها :

(١) مذكرات سعد زغلول صفحة ٢١١.

(٢) مذكرات سعد ج٧ صفحة ٢٠٦.

"فى اجتماع عقد اليوم حضره كثيرون من أعضاء الجمعية التشريعية وبقية الهيئات النيابية وغيرهم من أعيان البلاد، تقرر بالإجماع أن أرسل لجنابكم تلغرافيا النداء الآتى لمناسبة افتتاح مؤتمر الصلح:

"إلى رئيس الولايات المتحدة؛ ذلك الرجل العظيم الذى قاد أمته فى خوضها غمار المعترك الأوروبى لمجرد خدمة الإنسانية وتخليص العالم فى المستقبل مما يعانى من أهوال الحرب، نرسل آيات الولاء وعبارات الاحترام .

إلى الفيلسوف الكبير والسياسى القدير الذى يتبوأ اليوم أعلى مركز بين قادة الأمم، وبسمو مبادئه آمن رجال السياسة فى جميع الأقطار، نقدم واجب التحية ومنتهى الإعجاب .

"إلى رجل الديموقراطية الكبرى الأمريكية، الذى غادر بلاده لينشر على العالم لواء السلام المقيم، يرفعه العدل الشامل، وتحوطه عصبة الأمم بحمايتها لعرض

قضية مصر التى يتسلط عليها الأجنبى تسلطا يأباه أهلها أجمعون .

"فلتحى الولايات المتحدة، وليحى الدكتور ويلسون !"[1] .

وافق المجتمعون على هذا الاقتراح بين التصفيق والهتاف بحياة الرئيس ويلسون وحياة أمريكا ومصر والاستقلال[2] .

كان سعد يؤمن بأن الاحتلال البريطانى على مصر باطل أمام القانون الدولى، وأن الحماية لم تكن سوى "ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها، ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة" إلاّ أنه كان يعتقد أن الرئيس الأمريكى ويلسون، بعد أن أعلن المبادىء الأربعة عشر الشهيرة، سيقف إلى جانب الشعوب المحتلة التى

(١) مذكرات سعد زغلول ج ٧ صفحة ٢١٤.

(٢) ثورة ١٩ الرافعى ج ١ صفحة ١٤٨.

ستسعى إلى تقرير مصيرها، وكان يتصور أن الشعوب الديموقراطية ستساند مصر وأن مؤتمر السلام وجد لكى يقرر احترام الحقوق ويحرر الأمم من الاستعباد. لم يكن سعد وحده الذى أرسل البرقيات إلى ويلسون بل أن محمد فريد الزعيم المصرى الذى كان يقيم فى سويسرا فى ذلك الوقت أرسل هو أيضا العديد من البرقيات إليه أثناء انعقاد مؤتمر الصلح. ويبدو أن ويلسون نسى مبادءه، فقد وقع على معاهدة فرساى التى أعلنت فى ٧ مايو ١٩١٩م، واعترفت بحماية إنجلترا على مصر.

كانت هذه المعاهدة طعنة غائرة للوفد المصرى بزعامة سعد الذى كان موجودا فى باريس فى نفس أيام توقيع المعاهدة، ولم يسمح له بالحديث فى المؤتمر نيابة عن الأمة المصرية، وتجاهلت الدول المجتمعة الوفد المصرى، رغم سماحها لوفود أخرى أقل شأنا بحضور المؤتمر وإلقاء خطبة فيه. ولم ييأس الوفد بل أرسل مندوبا عنه للدعاية للقضية المصرية فى أمريكا نفسها، استعان بمحامٍ كبير

قدم مذكرة إلى لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكى فى أغسطس ١٩١٩م، وأصدرت اللجنة قرارا لصالح مصر، وفى مارس ١٩٢٠م انتهى النقاش فى مجلس الشيوخ الأمريكى حول معاهدة الصلح بعدم قبولها، ورغم ذلك استمرت الحماية على مصر ولم تنته إلا بثورة شعبية عارمة .

******

# هدى شعراوى ..
# زعيمة المرأة

هدى شعراوى التى أجمع الكل على وصفها بزعيمة المرأة هى نور الهدى محمد سلطان من مواليد مدينة المنيا عام ١٨٧٩م. كان الأب من أصل عربى من الحجاز، ثم هاجر أجداده إلى مصر قبل عهد على باشا. من المناصب التى تقلدها مديرا لمديرية بنى سويف ثم مديرية الفيوم ثم أسيوط ثم الغربية ثم مفتشا عاما للوجه القبلى ثم رئيسا لمجلس النواب ومجلس شورى القوانين ثم قائم مقام الخديوى توفيق فى الفترة التى احتجز فيها بالإسكندرية تحت حماية الاسطول البريطانى.

أما الأم فكانت تركية وتقول هدى شعراوى فى مذكراتها أن جدتها الشركسية من أصل قوقازى، كانت تدللها ببعض الأغانى والكلمات الشركسية ولا تتبادل معها الحديث إلا بالاشارة لجهل كل واحدة منهما بلغة الأخرى،

وكانت الجدة والأخوال يوسف وادريس، يزورونها كل شتاء قادمين من تركيا.

كانت فى الخامسة من عمرها عندما توفى والدها محمد باشا سلطان يوم ١٤أغسطس ١٨٨٤م، فى مدينة جراتس بالنمسا وكان قد سافر إلى سويسرا للاستشفاء، ثم ذهب إلى جراتس بعد ذلك، "وكان يعانى من صدمتين عنيفتين أثرتا على حالته الصحية إلى حد بعيد، لدرجة أن الأطباء لم يجدوا دواء لدائه إلا أن يسافر بحثا عن العلاج. وكانت الصدمة الأولى هى وفاة أخى إسماعيل (غير الشقيق) الذى كان يعقد عليه كل آماله فى المستقبل .. أما الصدمة الثانية فكانت تلك المأساة التى أودت باستقلال البلاد أثر الحوادث العرابية وما ظهر من سوء نية الإنجليز بعد دخولهم مصر حيث بدا واضحا أنهم لن يفكروا فى الجلاء عنها"(١).

وكان سلطان باشا حاكما للصعيد وقت أن قامت

---

(١) مذكرات هدى شعراوى، رائدة المرأة العربية الحديثة. كتاب الهلال ص..١٢.

الثورة العرابية وعند ما أُلِفَ المجلس النيابى انتخب رئيسا له. كان قد أيد الحركة العرابية فى البداية ولكن عندما طلبوا منه ان يدعو البرلمان إلى جلسة لعزل الخديو توفيق رفض وسألهم عمن سيخلفه، وكان من رأيه ألا يتمادى العسكريون فى التدخل فى السياسة حتى لا يثيروا قلق الأجانب ! ثم بدأت مرحلة من العداء الصريح بينهما، وتدافع هدى عن أبيها قائلة أنه سأل الجنرال ولسلى عن المقاصد الإنجليزية فأكد له أن مهمتهم "إخماد الفتنة العرابية وحفظ العرش من التهديد. وبانتهاء ذلك تكون مهمتهم قد انتهت وينصرفون إلى بلادهم. أكدوا هذا لسلطان باشا الذى كان شغوفا بحب وطنه وخائفا من سيطرة الإنجليز عليه لأنه ليس من المعقول أن سلطان باشا يحارب الاحتلال التركى الذى كان فى نظره كابوسا على البلاد ويسعى للاستعاضة عنه بالاحتلال الإنجليزى".

وقد أتهم البعض محمد سلطان باشا بأنه قد كوفيء ماليا على تأييده للغزو البريطانى لمصر، وتقول هدى فى مذكراتها أن مبلغ العشرة آلاف جنيها التى أمرت الحكومة بصرفها لأبيها كانت تعويضا عن الممتلكات التى استولى عليها العرابيون من غلال وخيل وغيرهما ولم تكن مكافأة له على مساعدة الإنجليز.

والحق أن الخلاف بين المصريين لم يتوقف حول الثورة العرابية وظلوا يتساءلون من كان السبب وراء غزو بريطانيا لمصر، بل أن زعماء الحركة أنفسهم تبادلوا الاتهامات فاتهم عرابى فى مذكراته محمود سامى البارودى بأنه كان طامعا فى عرش الخديوى، وشهد محمود باشا فهمى نفس الشهادة على عرابى فى كتابه "البحر الذاخر". وقد تنبأ الشيخ محمد عبده بأن الثورة العرابية "قد تجر إلى البلاد احتلالا أجنبيا يستدعى تسجيل اللعنة على مسببه إلى يوم القيامة"، أما المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فقد اعتبر الثورة العرابية "صفحة محزنة

من تاريخ مصر الحربى والقومى"، واتهم العرابيين بأنهم "غامروا بمستقبل البلاد فى وقت كانت عوامل الضعف والارتباك قد نالت من قوة الجيش ومكانته"(١).

على أن الأب لم يكن الرجل الوحيد الذى تعثر فى طريق السياسة ثم اعتزل، فقد فعل نفس الشىء شقيقها عمر سلطان الذى كان من أصدقاء الزعيم الشاب مصطفى كامل، وكان يمده ببعض المال لمواصلة كفاحه ضد الإنجليز، فلما عقدت أول جمعية عمومية للحزب الوطنى انتُخب عمر سلطان أمينا للصندوق، إلا أنه لم يواصل الطريق بعد وفاة مصطفى كامل واستقال من اللجنة الادارية للحزب ثم اعتزل العمل السياسى. أما زوجها على باشا شعراوى فقد كان واحدا من ثلاثة رجال التقوا بالمعتمد البريطانى فى الثالث عشر من نوفمبر سنة

---

(١) مقال فى جريدة كوكب الشرق فى ٢٦ سبتمبر ١٩٣٣م.

١٩١٨م، وطالبوا بإلغاء الأحكام العرفية على مصر وإباحة الحريات العامة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ثم سافروا إلى فرساى للمشاركة فى مؤتمر السلام كوفد يمثل الشعب المصرى. وقد عرض شعراوى باشا على زملائه استعداده للقيام بكل ما يحتاجه سفر الوفد من نفقات لغاية أربعين ألف جنيه، دفع منها فى الحال أربعة آلاف، ووعد بدفع الباقى إذا لم تقم الأمة بدفع المال اللازم أو قصرت فى دفع جانب منه. وكان هذا العرض السخى سببا فى اختياره أحد الثلاثة الذين نابوا عن الوفد فى اللقاء مع المعتمد البريطانى، وهو صاحب العبارة الشهيرة: "نريد أن تكون العلاقة بيننا وبين بريطانيا صداقة الحر للحر لا صداقة الحر للعبد" ورغم ذلك فقد انشق مبكرا عن الوفد ولم يشارك فى ثورة ١٩١٩م واعتكف فى بلدته واعتزل الحياة العامة حتى وفاته.

والمتأمل لمسيرة هذه السيدة العظيمة لابد وأن تعتريه

الدهشة على قوتها الذاتية وصلابتها فى مواجهة الظلم ومحاربة الاضطهاد ليس للمرأة المصرية وحدها وإنما لكل النساء العربيات، ومصر وكل العرب. وتعترف هدى بأنها كانت تعانى من تفضيل أخيها (عمر) عليها سواء من والدتها أو من أهل البيت جميعا رغم أنها الأكبر سنا، لدرجة أنها تمنت أن تمرض حتى تتساوى معه فى حب والدتها ولما سألت عن سبب تلك التفرقة قيل لها "لأنك فتاة وهو غلام ... أنت عندما تتزوجين ستذهبين إلى منزل الزوجية وتحملين اسم زوجك، أما هو فسيحمل اسم ابيه ويفتح بيته". وعندما أصيبت بالحمى سعدت باهتمام أمها بها ولكن هذه السعادة تبخرت بعد أن أصيب الأخ بالعدوى بعد أيام. "فقام أهل المنزل على قدم وساق، ورأيت الأطباء يدخلون غرفتنا قاصدين فراش أخى، ثم يقومون بفحصه ويغادرون الغرفة دون أن يلتفتوا إلى، رغم أن فراشه كان بالقرب من فراشى. وتعترف هدى بأن تلك التفرقة الواضحة قد أثرت فيها لدرجة أن الحمى زادت

ومع ذلك لم يهتم بأمرها أحد إلا بعد أن ازدادت حالتها سوءا[1]. وقد زادتها تلك التجربة انكماشا وحقدا على من حولها.

تلقت نور الهدى تعليمها فى البيت باللغات العربية والتركية والفرنسية، وختمت القرآن فى التاسعة ثم بدأت تتعلم الفرنسية والبيانو، وعندما طلبت من مدرس اللغة العربية أن يعلمها قواعد النحو كى تتمكن من قراءة القرآن الكريم دون خطأ، رفض الأغا المشرف على دراستها ذلك وقال للمعلم "خذ كتابك .. لا لزوم للنحو، لأنها لن تكون محامية يوما من الأيام". وتقول هدى شعراوى "وقد أثرت هذه الصدمة الجديدة على نفسى تأثيرا شديدا. وبدأ اليأس يتسرب إلى قلبى ويتولانى الملل حتى أهملت دروسى، وصرت أكره أنوثتى لأنها حرمتنى متعة التعليم وممارسة الحياة الرياضية التى كنت أحبها

---

(١) مذكرات هدى شعراوى.

كما كانت تحول بعد ذلك بينى وبين الحرية التى كنت أعشقها". ولم تستسلم الفتاة الصغيرة، وتمنت أن تصبح مثل إحدى صديقات العائلة، التى كانت سيدة مغربية تدعى خديجة تقرض الشعر، وتتلو عليها ما تنظمه من أشعار، وكانت ترى تلك السيدة تحضر مجالس الرجال وتتباحث معهم فى أمور أدبية واجتماعية، فأحبت الشعر وكانت تشترى كتب الأشعار والروايات الأدبية والتاريخية من تأليف جورجى زيدان وتقرأها وحدها.

## زواج هدى شعراوى

قصة زواج هدى شعراوى، كما روتها فى مذكراتها، تعطى برهانا آخر على صلابتها وقوة تحملها .

ففى الثالثة عشرة من عمرها، وبعد وفاة والدها بثمانية أعوام، طلب يدها من والدتها شاب من رجال القصر الحاكم، وكان ذلك فى أواخر عهد الخديوى توفيق، ولكن والدتها لم تقبل طلبه، ولابد أنها كانت لديها أسباب قوية، إلاّ أنها لم تخبر ابنتها بأمر ذلك الشاب،

وقـد علمت هـدى بذلـك مصـادفة بعـد ذلـك. وخشـية مـن أن يطلب الشـاب تدخل الخديوى سـارعت الأم بتزويج ابنتها من ابن عمتها على بك شعراوى، الوصى علي العائلة وناظر وقف والدهـا، وذلك رغم فارق السن الكبير بينهما. ومرة أخرى لم يؤخـذ رأيُ العـروس فـى الـزواج، بل كـان كـل شـىء يتم فـى سـرية وكتمان لدرجة أن الخدم والجوارى أخفين عن العروس سبب إعدادهن لمراسم الزفاف، وادعين أنها لقران ابنة احد الباشـوات الـذى سـيعقد قريـبا، كذلـك تم إعـداد جـناح فـى القصـر لسكناها دون أن تدرى، وعندما تم عقـد القران دخل بعض أقاربهـا فجـأة ليسـألونها مـن توكل مـنهم للتوقـيع علـى العقـد ؟ ولم يخطـر ببال أى مـنهم أن يسألها إن كانت موافقة على الاقتران من ذلك الرجل أم لا!

وتحكـى زعيمة النسـاء العربيات هـدى شـعراوى كيف اغتصبت طفولتها بأسلوب مؤثر فـى مذكراتها فتقول :

"وفـى صباح اليوم التالى (للزفاف) نظـرت مـن نافذة غرفتى للترويح عن نفسـى بمشـاهدة السـرادق الكبير المزين

بأفخر الأبسطة والرياش والأنوار الزاهية التى خلبتنى فى الليالى الماضية.. ولكننى انقبضت عندما رأيت أيدى الهدم تعمل فيه، كما وجدت أرض الحديقة التى كان منصوبا عليها خالية من تلك الأشجار العديدة التى كنت أحبها وكان لى مع كل منها شأن وذكرى .

كل تلك الأشجار التى كنت أحبها وآنس إليها وأتسلقها وأتأرجح عليها فى طفولتى، والتى كانت من غرس والدى وكان يحبها مثلى ويعتنى بها .. أصبحت أثرا بعد عين فداء ليلة واحدة ظننت أنها ستبقى ببهائها وجلالها، لكن سرعان ما تلاشت كالحلم الجميل .

بكيت على أشجارى، وبكيت على طفولتى، ورأيت فى تلك الليلة الجدباء صورة من الحياة التى سأعيشها منفصلة عن كل ما كان يؤنسنى ويسلينى .. فابتعدت عن النافذة كاسفة البال محزونة القلب، وصرت اتحاشى النظر إليها مدة طويلة حتى لا تعاودنى تلك الذكريات الأليمة"(١) .

(١) المرجع السابق ص ..٦٧- ٧٧.

كان على شعراوى أبا لثلاث بنات، وقد اشترطت عليه أمها أن تكون هدى زوجته الوحيدة فكتب على نفسه تعهدا بذلك، ولكنه بعد خمسة عشر شهرا من الزواج رد زوجته الأولى، وحملت منه دون علم هدى، وعندئذ طلبت أم هدى منه أن يطلق ابنتها. وهكذا صارت هدى سيدة مطلقة قبل أن تبلغ السادسة عشرة من عمرها، واستمرت منفصلة عن زوجها لمدة سبع سنوات، استمتعت فيها بقدر ما من الحرية، فعادت لتحصيل الدروس والاستمتاع بالعزف على البيانو الذى كان زوجها السابق يضيق به وغيرت من نمط حياتها كثيرا، وقررت أن تشترى لوازمها بنفسها من المحلات الكبيرة، وكان ذلك يعد من الخطايا بالنسبة لعائلتها التى احتاجت إلى قدر من اللباقة والإلحاح لكى توافق أمها على تلك الخطوة. وتحكى هدى عن تلك التجربة التى تمت بمدينة الإسكندرية ذات صيف، وهى مدينة تغص بالأجانب

وتختلف الحياة فيها عن القاهرة المحافظة :

"وفى الإسكندرية .. فى ذلك الصيف بالذات .. كانت لى أول تجربة من نوعها .. فقد قررت أن أشترى لوازمى بنفسى من المحلات الكبيرة..بالرغم من تذمر سعيد أغا (مربيها وحارسها) ورغم امتعاض أهل المنزل ودهشتهم من هذه الخطوة وتحدثهم عنها وكأننى قد خالفت قوانين الشريعة". وأخيرا وافقت أمها بشرط أن تذهب بصحبة وصيفاتها وتحت حراسة الأغا التركى:

"وكان على أن أسدل أزارى على حاجبى وأن التف بحيث لا يظهر من شعرى أو ملابسى شىء، وعندما دخلنا المحل، دهش الموظفون والمشترون من هذه المظاهر غير المألوفة، وبخاصة عندما رأوا الأغا يحملق بنظراته الحادة فى وجوه الناس وكأنه يحذرهم من النظر الينا ..".

ولابد أن نتذكر أن الموظفين وأغلب المشترين فى ذلك الوقت كانوا من الأجانب، ورغم صعوبة التجربة الأولى، إلا أنها تركت انطباعا رائعا لدى هدى، ولعلها كانت المرة

الأولى التى تمارس فيها حرية الاختيار، فقد كررتها بل واقنعت والدتها بأن تفعل نفس الشىء. وهكذا نكتشف لديها ذلك الميل المبكر لاختراق الحصار حول روحها كامرأة، وشجاعتها فى مواجهة المجهول، وإصرارها على التعلم من التجربة، ورغبتها الجارفة فى الاستقلال والاعتماد على النفس وإثبات الوجود. إلا أن نسيم الحرية العابر الذى أنعش روحها فى غفلة من الزمن لم يستمر، فسرعان ما انقضت سبع سنوات دون أن تجد لنفسها طريقا مختلفا، ولم تتوقف محاولات طليقها على بك شعراوى طوال تلك السنوات أن يعيدها لعصمته، وساق إليها الوساطات ولكنها كانت ترفض. وأخيرا عادت إليه بعد أن ملت المقاومة فأنجبت منه بثنة ومحمد.

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى كانت هدى وزوجها وأبناؤها فى رحلة للاستشفاء بأوروبا وفى أواخر شهر يوليو ذهبت إلى باريس فوجدتها خالية وشوارعها هادئة ساكنة، ووجوه سكانها عابسة كاسفة. وعلمت أن الحرب على وشك الوقوع فتوجهت مع عائلتها إلى سويسرا

التى كان أغلب الأوروبيين قد لجأ إليها ولكن ظروف الأزمة الاقتصادية التى تصاحب الحرب أجبرتهم على العودة إلى مصر قبيل إعلان الحرب عبر إيطاليا فوصلت مصر يوم ٩ أغسطس ١٩١٤م، وعلمت أن والدتها قد توفيت فى ١٠ أغسطس ١٩١٤م وبعد ثلاث سنوات توفى شقيقها، الذى حزنت عليه أشد الحزن. وفى ٢١ أكتوبر ١٩١٨ توفيت ملك حفنى ناصف، باحثة البادية وتحكى هدى شعراوى فى مذكراتها. عن مشاعرها تجاه هذا الحدث "ما كنت أظن أن شيئا فى الحياة بعد فقدان أخى يستطيع أن يهز شعورى هذه الهزة العنيفة. وقد عجبت لذلك إذ كنت قد قطعت كل صلة بالحياة، وحسبت أنه لم يبق فى شعورى متسع لغير حزنى على أخى. وكدت أثور على نفسى وعلى تلك التى أحدثت هذا التأثير فيها. ما الذى يعنينى أنا أن الباحثة قد قضت وان البلاد نساءها ورجالها، قد خسروا فى نهضتهم عضوا هاماً بوفاة تلك السيدة الفاضلة ؟

وفى تلك اللحظة انفردت فى مخيلتى صفحة بيضاء ذات اطار أسود لهذه السيدة. وخيل إلى أننى أسمع صوت

باحثة البادية وهو يدوى فى قاعة المؤتمر الذى عقد عام ١٩١٠م مطالبا بحقوق عشرة للنساء. لقد تجسم خيالها أمام ناظرى فى محاضراتها بالجامعة المصرية وهى تلقى على أترابها دروسا فى الأخلاق والواجبات. ومرت بخاطرى مناقشاتنا فى السفور والحجاب فى الاجتماعات التى كنا نعقدها قبل الحرب. وكانت تنظر إلى أقوالنا ونشاطنا بابتسامة ممزوجة بشىء من الشك والاستغراب .

وعلى الفور قمت فارتديت ثيابى وخرجت قاصدة دار الراحلة.. وإذا بنعشها يختصر علينا الطريق. ويقابلنا ملفوفا بالعلم المصرى وتسير خلفه جماهير المشيعين. وتبعتهم حتى مقرها الأخير حيث واروا التراب ذلك الجسم النشيط، وأغلقوا القبر على شعلة الذكاء المتقدة .

ولما عدت إلى منزلى واختليت بأحزانى، شعرت أن الأموات أكثر تمسكا بحقوقهم منا، فقد ألقوا على عواتقنا تراثا مقدسا يطالبوننا باحترامه واستغلاله فى كل فرصة ..... "[1] .

(١) مذكرات هدى شعراوى ص..١٥٩.

## هدى شعراوى ..رائدة العمل العام

شباب اليوم الذين ولدوا ونشأوا فى ظل مصر القوية المستقلة، لا يدركون كم عانى أجدادهم وآباؤهم وكم ضحوا واستبسلوا فى سبيل الوصول إلى تلك المكانة العزيزة. بل إن الكثيرين منهم لا يعرفون أن المرأة المصرية لم تكن أقل من شقيقها الرجل استعدادا للبذل والتضحية بالمال والجهد والنفس فى سبيل تحقيق تلك الغاية العزيزة: حرية مصر واستقلالها .

كانت هدى شعراوى يوم وفاة الزعيم الشاب مصطفى كامل عام ١٩٠٨م، شابة ناضجة فى التاسعة والعشرين من عمرها وأما لطفلين، وزوجة لرجل من أثرياء وجه قبلى، هو على شعراوى باشا الذى أصبح عضوا بالجمعية التشريعية عن المنيا. كذلك كانت هدى هانم صديقة لأسرة الخديوى عباس حلمى الثانى، وعلى مودة وصداقة مع أغلب وزراء ذلك العهد وزوجاتهم ومن بينهن

شريفة هانم رياض، حرم مصطفى رياض الذى تبوأ عدة مناصب وزارية منها رئاسة الوزراء، وكذلك حرم حسين رشدى باشا الذى رأس الوزارة أثناء الحرب. ولابد أنها تابعت بعد اختفاء الزعيم الشاب من الساحة السياسية، كيف بدأت الحكومة المصرية الواقعة تحت السيطرة التامة للمحتلين تضطهد أعضاء الحزب الوطنى، وتعتقل وتنفى زعماءه، وعلى رأسهم محمد فريد، الذين لم يتوانوا عن تكملة المسيرة وحشد الجماهير للمطالبة بالدستور والجلاء .ولابد أنها كانت تتحرق شوقا للقيام بأى عمل يتيح لها المشاركة فى خدمة بلدها.

و كانت هدى شعراوى قد مرت وهى فى السادسة عشرة من عمرها بعمل تقول "نبهنى إلى واجب الفرد نحو المجتمع وجعلنى أقدر فائدة التضامن". ففى عام ١٨٩٥م نشبت حرب تساليا بين تركيا واليونان، وفى مصر تشكلت لجنة للمساعدة برئاسة رياض باشا، وتولت قرينته رئاسة لجنة السيدات فدعت هدى ضمن من دعت من

سيدات الطبقة الراقية إلى عضوية اللجنة والمشاركة فى أعمال إغاثة وخدمة الجنود الأتراك على الجبهة. وبالطبع لبت هدى الدعوة فى حماس، وكان ذلك أول عمل اجتماعى تقوم به هدى؛ "و قد وجدت فى هذا العمل أكبر تسلية وعزاء وصرت أنظر إلى نفسى بعين الاعتبار والتقدير بعد أن خضت عباب المجتمع وتمكنت من دراسة أخلاق الناس عن كثب، والمقارنة بين شعورهم وآرائهم وعرفت كم يعانى الإنسان فى سبيل التعاون على الخير. وكم يريق ماء وجهه فى السعى إليه مدفوعا بشعور الواجب والإنسانية"(١).

وقد كان لهدى شعراوى محاولات أخرى لخدمة المجتمع المصرى نبهتها إلى ضرورة انتشال نساء جيلها من هوة السلبية التي تعوقهن عن خدمة بلادهن، فقد اقترحت على حرم رياض باشا إعداد ملعب تنس فى حديقة بيتها

---

(١) المرجع السابق ص..٨٠.

لكى تتدرب فيه السيدات، لحاجتهن الشديدة إلى ممارسة الرياضـة، ووافقت السيدة مشكورة، ورغم أن الحديقة متسعة ومحاطة بسور مرتفع يحجبها عن الأنظار إلاّ أن السيدات اللاتى وُجهت إليهن الدعوة رفضن جميعهن المشاركة .

تجربة أخرى مع النساء كانت من الممكن أن تهبط عزيمتها، وذلك عندما فكر رشدى باشا، رئيس الوزراء فى إنشاء جمعية ومؤسسة لرعاية الأطفال وطلب من السيدات تكوين لجنة للمساهمة فى هذا المشروع الإنسانى، وتحمست هى وزوجته الفرنسية فى دعوة نساء الطبقة الراقية وزوجات الوزراء والكبراء، وبالفعل تشكلت اللجنة إلاّ أنها أخفقت فى النهايه بسبب انسحاب السيدات منها، فقام الرجال وحدهم بتنفيذ المشروع .

لم تيأس هدى وظلت مثابرة على محاولاتها وجهودها، حتى استطاعت أن تقنع الأميرة عين الحياة ومجموعة من

الأميرات وسيدات الطبقة الراقية بإنشاء مبرة محمد على عام ١٩١٤م. وقد اشتركت فى التبرع للمبرة والدة الخديوى عباس وزوجته والخديوى نفسه بالإضافة إلى الأميرة نازلى حليم. وتم توزيع طوابع عليها رسم امرأة تضم طفلة فقيرة من فئة القرش صاغ لبيعها وإضافة حصيلتها إلى التبرعات لتكون رأسمال الجمعية. وفجأة مرضت الأميرة عين الحياة وسافرت للخارج ثم توفيت فى أوروبا، وعندما طالبت عضوات الجمعية ابنها الأمير كمال الدين حسين بمال الجمعية طلب منهم إثبات ذلك وفترت همة الأميرات وانصرفن عن المشروع، ولكن هدى شعراوى انتدبت صديقة فرنسية أخذت تتردد على الدائرة وتبحث مع الموظفين فى الدفاتر واستطاعت أن تثبت للمبرة الحق فى ثلاثة آلاف جنيها دفعها الأمير بلا تردد. بعد ذلك شرعت هدى شعراوى فى إتمام حلمها الأساسى وهو أنشاء مدرسة لتربية أمهات المستقبل وقد أقامتها بالفعل فى شبرا. وتذكر هدى فى مذكراتها أن السيدات اللاتى شاركنها المشروع كن

يحضرن كل جلسة تعقد أسبوعيا ويعتنين بصحة البؤساء من أولاد الفقراء وأمهاتهم، كما تطوع بعض الأطباء المصريين والأجانب لعلاجهم بالمجان تحت أشراف الأميرات والسيدات اللاتى كن يحضرن بالتناوب فى أيام محددة .

ورغم أن هدى فشلت فى محاولتها المبكرة فى إيجاد رابطة أدبية للسيدات المصريات، إلاّ أنها كانت تدرك قيمة الكلمة، المسموعة أو المقروءة فى إحداث تأثير كبير على المتلقى.وكانت كاتبة فرنسية تدعى مارجريت كليما تمر بمصر فى رحلة طواف حول العالم، فدعتها هدى لإلقاء محاضرة على السيدات عن المرأة الشرقية والغربية فى مسألة الحجاب، واستطاعت أن تقنع الأميرة عين الحياة أحمد بأن تكون المحاضرة تحت رعايتها. وقد تمت المحاضرة بإحدى صالات الجامعة التى كانت بمنزل خيرى باشا (مقر الجامعة الأمريكية الآن)، يوم الجمعة ١٥ يناير

١٩٠٩م، أى بعد افتتاح الجامعة المصرية[1] بأسابيع قليلة، وهكذا كان لهدى شعراوى الشابة التى لم تتم عامها الثلاثين بعد، الفضل فى تشجيع الأمير أحمد فؤاد رئيس الجامعة آنذاك على الموافقة على ترتيب محاضرات خاصة للسيدات فى أيام الجمع فقط لتكون الجامعة خالية من المعلمين والطلبة الذكور. وكانت النساء المصريات قد تبرعن بسخاء لمشروع الجامعة، ورغم ذلك فقد ثارت معارضة عنيفة لتواجد المرأة داخل "الحرم" الجامعى، وذلك رغم التزامهن قواعد عدم الاختلاط بالرجال، وقام عدد من الرجال بالتظاهر لإغلاق القسم النسائى ومنعوا النساء من دخول مبنى الجامعة، وتصاعد الصراع عندما أرسل بعض الطلاب تهديدات بالقتل لعبد العزيز فهمى رئيس الجامعة، وإزاء هذه المعارضة العنيفة أغلقت الجامعة القسم النسائى فى وقت ما بين ١٩١٢ و١٩١٣، وكانت مصادفة ساخرة إذ تلقت الجامعة فى ذلك الوقت

(١) افتتحت الجامعة يوم ٢١ ديسمبر ١٩٠٨م.

تقريبا أكبر تبرع تتلقاه، وكان من امرأة هى الأميرة فاطمة إسماعيل شقيقة فؤاد التى تبرعت بستة أفدنة ووقفت ستمائة فدان ليصرف من إيراداتها على شئون الجامعة بالإضافة إلى جواهر قيمتها ثمانية عشر ألف جنيه .

لاشك أن هذا الموقف المتخلف من بعض الرجال أصاب المرأة المصرية بقدر كبير من الإحباط، إلا هدى التى لا تستسلم، فبعد فترة قصيرة سافرت فى رحلة إلى أوروبا، وعندما عادت من رحلتها لاحظت فى مصر بوادر نهضة أدبية بين السيدات الراقيات فقررت تأسيس نادى أدبى يجمعهن ويعوضهن عن إغلاق الجامعة فى وجوههن، وعرضت الفكرة على الأميرات فوافقن على تمويلها وفى أبريل ١٩١٤م تكونت لجنة تحت اسم "جمعية الرقى الأدبى للسيدات" ، برئاسة شرف الأميرة أمينة حليم، وعينت الكاتبة لبيبة هاشم رئيسة تحرير مجلة "فتاة الشرق" سكرتيرة عربية للجنة، وكانت الكاتبة الشامية مى إحدى

العضوات وعقد الاجتماع الأول بمنزل هدى شعراوى وقد دعين "مدموازيل كليمان" لإلقاء مجموعة من المحاضرات على السيدات .و بذلك أصبحت تلك الجمعية بمثابة جامعة خاصة للنساء تدلل على قوة عزيمة المرأة المصرية وأصرارها على النجاة من الوأد الفكرى والاجتماعى الذى كان مفروضا عليها لقرون طويلة.

## هدى هانم فى أوروبا

كانت هدى شعراوى، مثل أغلب نساء طبقتها فى ذلك العصر، تسافر كثيرا بصحبة عائلتها إلى العواصم الأوروبية، وكانت تعجب أشد الإعجاب بالحضارة والتمدن الغربى، وفى عام ١٩٠٩م قامت برحلتها الأولى إلى أوروبا بهدف الاستشفاء، وطافت بنابولى ومرسيليا و ليون ثم باريس. وفى مذكراتها كتبت تصف انطباعاتها عن باريس فى زيارتها الأولى لها "وقد أعجبتنى باريس ليس فقط لجمال مبانيها، واتساع شوارعها، وتنظيم ميادينها،

وتنسيق متنزهاتها وحسن هندام أهلها،وإنما أيضا لأن الإنسان يجد فى كل خطوة فيها ما يغذى عقله ويوسع خياله وينمى مواهبه ومداركه .. هناك الجمال وحسن الذوق يتجليان فى كل شىء ويدفعان الإنسان إلى معرفة أصله ." وتتجلى ميولها الثقافية وحسها الفنى الرهيف عندما تقول: "وباريس هى الصفحة المنشورة من سجل الفرنسيين، حيث يشب الفرنسى فى أية بيئة ملما منذ نعومة أظفاره بتاريخ بلاده، قبل أن يدخل المدارس ويتعلم هذا التاريخ فى الكتب.. و لذلك تجده فخورا بتاريخها المجيد، حريصا على خلود هذا المجد. ليس هذا فحسب، بل ترى الشعب الفرنسى يطوف بكل القصور الأثرية والميادين التاريخية ودور الآثار والعلم والمتاحف الفنية والكنائس والمعابد التى تفتح له أبوابها فى أيام العطلات". وقد تأثرت هدى شعراوى بتلك النهضة الثقافية وأصبحت فيما بعد واحدة من أكبر المشجعين للكتاب والفنانين التشكيليين،

كذلك خصصت جزءا من أموالها لمنح الجوائز التشكيلية فى فنون القصة والنحت وغيرهما وعنيت برعاية الفنانين التشكيليين أدبيا وماديا واقتناء أعمالهم تشجيعا لهم ومن بينهم الفنان يوسف كامل، الذى كان أول فنان تشكيلى مصرى يسافر فى بعثة لدراسة الفن فى أوروبا. ولهدى شعراوى موقف نبيل مع فنان النحت المصرى الأول، الفنان مختار الذى كان يمر بأزمة نفسية، عندما قرر أن يغرق أحد تماثيله فى النيل عام ١٩٢٧، فإذا بها تشترى منه ذلك التمثال بمبلغ ثلاثمائة جنيهٍ، وظلت ترعاه فى مرضه وتشد من أزره حتى أنه كان يلقبها "أمنا إيزيس"، وبعد وفاته سعت إلى جمع أعماله التى كانت مشتتة بين مصر وفرنسا، وكونت جماعة أصدقاء مختار، وقامت بزيارة متحفه فى باريس ونقل أعماله إلى مصر، وتبنت فكرة إقامة متحف لأعماله الذى لم يتحقق إلا بعد رحيلها .

وتعترف هدى فى زيارتها الأولى "لعاصمة النور" أنها أعجبت فى باريس بكل شىء حتى شراسة أخلاق الرعاع

فيها" مبررة ذلك بأن الفرنسيين" متفردون بعبقريتهم، مستقلون فى أفكارهم وطباعهم و صفاتهم حتى فى عيوبهم. ورغم أنها حكت عن بعض السلوكيات السلبية لهذا الشعب، مثل التزاحم، إلا أنها عادت تقول "مثل هذه الأشياء لم تكن ترق لى فى أول الأمر . ولكننى انتهيت منها إلى أن التزاحم فى الحياة هو سبب نهضة تلك الأمم وتفوقها، وإن كان ذلك مظهرا من مظاهر الأنانية .. وأن تسامح الشرق ورقة شعوره هما سبب تأخره واضمحلاله، رغم ما فى ذلك من نبل ودعة" !!

بعد سنوات، وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى صيف ١٩١٤ كانت هدى هانم شعراوى فى الخامسة والثلاثين من عمرها، وقبيل إعلان الحرب كانت فى فرنسا فى رحلة علاج لابنها محمد، وبدلا من أن تضيع الوقت فى التسكع فى شوارع باريس الجميلة، والاستمتاع بملاهيها ومتاحفها، والتردد على بيوت الأزياء لشراء ملابسها، كما فعلت فى زيارتها الأولى، فقد اتصلت بصديقاتها

الفرنسيات ومن بينهن "مادموازيل كليمان" و"مدام سيجفريد"، وطافت معهن بالمدارس الصناعية ومدارس التدبير المنزلي للفتيات،وحضرت اجتماعا نسائيا كبيرا للسيدات الفرنسيات طالبن فيه بمساواة المرأة بالرجل في الحقوق والانتخاب، كما طالبن بضرورة إقرار السلام بين الشعوب. وهكذا تنبهت مبكرا إلى الدور الحيوى الذى يمكن أن تلعبه المرأة فى السياسة حتى وإن كانت ممنوعة من الخوض فى غمارها. وتقول "سرنى جداً ما رأيته و أحزننى؛ سررت لهم وحزنت علينا. فرحت لتقدمهم وحزنت لتأخرنا. يلزمنا جيل بطوله وعرضه إذا كنا حاكمين أنفسنا، وقرن إذا بقينا محكومين لنحصل على درجتهم إذا مشينا وحذونا حذوهم".

ولم تكتفى الثائرة هدى شعراوى بذلك، بل انتهزت انتقال الأسرة إلى بلدة فيتيل "المشهورة بحماماتها العلاجية، وزارت مدينة" "دون ريمون" التى لا تبعد كثيرا عنها، التى عاشت بها "جان دارك"، وشاهدت الغرفة

الصغيرة التى كانت تسكن بها، والشجرة التى كانت تؤدى صلاتها تحتها، فتسمع أصوات "سانت كاترين"، و"سان ميشيل" يأمرانها أن تخلص فرنسا من احتلال الإنجليز فى عهد الملك شارل السابع. وقد أتاح لها الملك أن تقود قوة مسلحة صغيرة هجمت بها على الإنجليز وانتصرت عليهم فى "باتى"، إلاّ أن أحد مواطنيها الفرنسيين خانها وأبلغ الإنجليز الذين حاكموها محاكمة صورية، وحكموا عليها بالإعدام حرقا، وبعد سنوات أعلنت قديسة. وحول الفرنسيون بيتها فى دون ريمون إلى متحف. وقد كانت النساء العربيات خلال سنوات الاحتلال البريطانى يعتبرن جان دارك المثل الأعلى لهن، حيث أنها كانت مقاومة وضحية للإنجليز؛ العدو المشترك، واستطاعت فى نفس الوقت أن تتخطى الحدود النوعية، وتقود قومها فى عمل بطولى ينطوى على قيم الوطنية والفداء والشجاعة، التى كانت حكرا على الرجال.

بعد أيام قليلة من زيارتها لباريس فوجئت هدى هانم

بالحديث عن احتمال وقوع الحرب بين فرنسا وألمانيا، واعترفت بأنها لم تصدق ذلك لثقتها العظيمة فى أن المدنية التى وصلت إليها أوروبا ستمنعها من خوض غمار الحرب التى تعتبر أشد أنواع الوحشية. ولكن عندما زارتها صديقتها "مدموازيل كليمان" وسألتها "ماذا سيكون موقفكم أنتم يا أنصار السلام؟ أجابتها: سنكون بجانب شعبنا، لأن صوتنا مازال ضعيفا!! وتوالت حلقات مسلسل الأحداث التى نبهتها بعد ذلك لاستغلال الغرب لشعوب العالم، وكيف أنه لا يطبق نظرياته وأفكاره المتطورة إلا على نفسه فقط".

حادثة أخرى ذات مغزى مرت بها هدى شعراوى أثناء تلك الرحلة التى غيرت وجه أوروبا تماما فى نظرها، فعندما أعلنت الحرب عمت الفوضى المدن الفرنسية الواقعة على الحدود مع ألمانيا ومنها "فيتيل" التى كان "الباشا على شعراوى" زوجها يستشفى فى حماماتها، وأسرع سكان تلك المدن يهجرونها على عجل، وتغيرت مسارات القطارات، واضطرت هدى إلى العودة إلى مصر

هى وزوجها وأطفالهما عن طريق سويسرا ثم إيطاليا. وكان يركب معهم فى القطار تاجر يهودى مصرى عرفهم بنفسه، فدعته إلى ما تبقى معها من طعام كانت قد خزنته للأطفال، ووعدهم التاجر بأن يحضر بعض المأكولات من بوفيه المحطة التالية عند وصولهم، وبعد أكثر من ساعة وقف القطار، وسمعوا البائعات ينادين باسم نوع من الفطير، فهرول اليهودى ونزل من القطار وجلسوا فى انتظار أن يعود بالفطير للأطفال الذين كانوا يتضورون جوعا، وأخيرا عاد التاجر قبيل تحرك القطار بثوان وهو يقول: حقا لقد كان الفطير لذيذا جدا، فسألته: لعلك تذكرت الأطفال وأتيت لنا بشىء منه؟! فإذا به يرتبك ويقول فى خجل : "إنى آسف جدا ..لقد نسيت" !!. وعلى الحدود الألمانية فشلت هدى شعراوى فى شراء أى شىء يؤكل أو يشرب لأولادها، لأنها لم تكن تتحدث الألمانية، وكانت البائعات الجميلات مشغولات بتقديم الطعام والشراب للرجال الألمان .

وهكذا عادت هدى من تلك الرحلة معبأة بالأحاسيس والأفكار التى ساعدتها كثيرا على تكوين رؤيتها، وتحديد وجهتها الوطنية. ولسوف تسافر بعد ذلك كثيرا لتشارك فى المؤتمرات التى تعقد لمناقشة أوضاع المرأة، إلاّ أن موقفها المتشدد ضد التدخل والهيمنة الغربية على مصر كان قد تكون وتعمق فى وجدانها مبكرا.

## رحلة الألف ميل..

عندما نتابع إجراءات القمع الوحشية التى يرتكبها الجيش الإسرائيلى المحتل للأرض العربية فى فلسطين ، تنتابنا الدهشة من سلبية الدول الغربية التى تتزعم حركة الديموقراطية وتطالب بنشر مبادىء حقوق الإنسان. كيف لم تنتفض غاضبة وترغم إسرائيل على احترام قرارات الأمم المتحدة التى تجاهلتها جميعا!! لماذا لم تصدر الأمم المتحدة قرارا بالمقاطعة الاقتصادية والسياسية على إسرائيل كما فعلت مع دول أخرى مثل جنوب إفريقيا والعراق وليبيا

وصربيا..! لكننا إذا عدنا إلى تصفح تاريخنا منذ نحو مائة عام سنكتشف أن كل ما ترتكبه الحكومة والجيش الإسرائيلى فى حق عرب فلسطين منذ الأربعينات ما هو إلا امتداد لما كانت تفعله الحكومات والجيوش الأوروبية التى كانت تحتل بلادنا العربية، وليس سوى حلقات متصلة ومتواصلة لمسلسل طويل بدأ فى نهاية القرن التاسع عشر. صحيح أن وحشية الجيش الإسرائيلى فاقت الحد، وارتكب قواده وسائل إبادة وقمع أكثر ضراوة وهمجية، ولكنها ليست سوى التطور الطبيعى لسياسة الإستيلاء دون حق على أراضى وثروات الشعوب الأخرى، التى بدأتها بعض الشعوب الأوروبية فى القرن قبل الماضى، وعانى منها الشعب المصرى طوال الاحتلال البريطانى لمصر، ثم انتصر فى النهاية وطرده من بلده وقضى إلى الأبد على ما كان يسمى بريطانيا العظمى.

عاصرت هدى شعراوى أولى حلقات المسلسل، عندما تدفقت القوات المسلحة البريطانية إلى مصر، أثناء الحرب

العالمية الأولى بحجة حمايتها، وتابعت فى غضب واستياء كيف أنهم بدأوا ينتشرون فى شوارع وأحياء الإسكندرية والقاهرة وبعض المدن الأخرى . وفى مذكراتها رسمت هدى شعراوى صورة حية لسلوكيات هؤلاء الجنود الذين جاء بهم الجيش الإنجليزى من ممتلكات "الأمبراطورية البريطانية التى لا تغرب عنها الشمس"(٤)، ووصفت سلوكياتهم التى كانت تتسم بالهمجية والبلطجة، وقالت: إنهم كانوا يقطعون الطرق على المواطنين الموسرين قائلين لضحاياهم: الروح أو المال، ثم يسلبونهم من أشيائهم الثمينة، وكانوا يخطفون حلى النساء فى الشوارع ويجردون آذانهن من أقراطها غير مبالين بالدماء التى تسيل ..!

تلك التصرفات الهمجية بالإضافة إلى إجراءات القمع التى فرضتها سلطات الاحتلال على الشعب المصرى أثارت المشاعر ضد هؤلاء الغاصبين للأرض المنتهكين لكل حق، وصدمت فئة المثقفين والساسة خاصة أولئك الذين كانوا يعجبون بأوروبا ويتمنون أن تلحق مصر بركب

حضـارتها. وكانـت هـدى شـعراوى مـن بـين هـؤلاء، وهـى تعـترف فـى مذكـراتها بأنهـا كانـت تخـتلف فـى ذلـك عـن شقيقها "فقد كنت أعجب بالحلفاء، بينما كان يرى أنهم أنـاس مستعمرون وأنهـم الذيـن أثـاروا الحـرب، وكـان يطلب النصـر للألمـان والأتراك"[1]. ولاشك فى أن هدى شعراوى وكـل نسـاء مصـر المثقفات الواعـيات انتابـتهن حالـة مـن الإحباط الشديد عندما توقف عدد من المثقفين المصريين عـن الكـتابة، فاحـتجاجا عـلى مـا كانـت ترتكـبه سـلطات الاحـتلال الإنجليزى من إجـراءات قمـع ومصـادرة، توقفـت صـحيفة "الجـريدة" الـتى كـان حزب الأمـة يصـدرها، وقـرر أحمـد لطفـى السيد، رئيس تحـريرها، الاعتكاف فى قريته "بـرقين"، كذلك قرر أمين الرافعى إغلاق جريـدة "الشعب" الـتى كـان يصـدرها، حتى لا يضطر إلى نشر بيان السلطات الـبريطانية بـإعلان الحمـاية عـلى مصـر. وتوقفـت الكاتـبة ملـك حفنـى ناصـف عن الكتابة والخطابة طوال فترة الحـرب،

(١) مذكرات هدى شعراوى صفحة ١٥٣.

وقررت أن تتفرغ للأعمال الخيرية. وعندما اختفت من الساحة الكثير من الصحف الوطنية لجأ المصريون إلى النشرات والكتيبات، ولكن سلطات الاحتلال واصلت تعسفها وبطشها وكانت تصادرها أيضا[1].

أما المرأة المصرية التى لم تتح لها فرصة المشاركة فى التعبير عن الغضب الشعبى ، فقد بدأت الوعى بذاتها وواصلت رحلة الصعود إلى منبر التعبير عن نفسها والإعلان عن وجودها، فأصدرت ملكة سعد: ملحق "ربة الدار" لمجلتها "الجنس اللطيف"، التى تميزت بالشجاعة فى خوض الموضوعات الاجتماعية، وكان سلامة موسى من بين كتابها . وفى يناير ١٩١٦م رقيت نبوية موسى إلى ناظرة لمدرسة معلمات الورديان بالإسكندرية، وفى نفس العام قامت فاطمة عاصم بتأسيس "جمعية النهضة النسائية"، إلا أن ظروف الحرب حالت دون أن تكتمل مشروعات

(١) سجل الهلال المصور من ١٨٩٢ الى ١٨٩٢ المجلد الأول.

عديدة كان من شأنها أن تدفع مسيرة المرأة المصرية كثيرا إلى الأمام، لو أنها استمرت .

وقبيل انتهاء الحرب غادرت الصحفية الشاعرة والخطيبة المصرية ملك حفنى ناصف الحياة فجأة ليلة الخميس ١٧ أكتوبر ١٩١٨م بعد اصابتها بالحمى الأسبانيولية، ورغم الحزن العميق الذى كانت تعيش فيه صديقتها هدى شعراوى بسبب وفاة شقيقها الوحيد فقد أخرجتها الصدمة من اعتكافها وبادرت بإقامة حفل تأبين للراحلة بالجامعة المصرية، واقترحت وضع صورتها بالمدرج الذى كانت أول امرأة تحاضر فيه وباطلاق اسمها عليه. ونزولا على رغبة السيدات اللاتى نظمن حفل التأبين اعتلت هدى المنبر لأول مرة فى حياتها، وخطبت فى الجمع المحتشد خطبة عددت فيها مطالب المرأة المصرية التى لخصتها فى: مساواة المرأة بالرجل فى التعليم وفى الحقوق النيابية والتشريعية، وتعديل قوانين الأحوال الشخصية بسن قانون يمنع تعدد الزوجات إلا فى حالة عقم الزوجة أو



اصابتها بمرض عضال، ومنع الطلاق إلا بحكم من القاضى الشرعى ، وبعد تنفيذ مبدأ التحكيم،

كانت هدى اليقظة لكل ما يدور حولها، قد تلقت درسا أصبح له أبعد الأثر على نشاطها من أجل المرأة فيما بعد. فأثناء رحلة العودة إلى مصر بعد إعلان الحرب رأت بعض السيدات يبكين فى الباخرة الإيطالية، وكانت نقودهن قد نفدت وكن يتحدثن مع بعضهن البعض، ويتساءلن عن كيفية كسب عيشهن بعد أن ذهب الرجال إلى ساحات القتال، وليس لمعظمهن مهنة يتكسبن منها فى ظروف الحرب واستمعت إلى إحداهن تقول: إنها تحسن الطهو، ويمكنها أن تعمل فى بنسيون أو لدى عائلة، وأخرى تقول إنها تحسن الحياكة والتفصيل، وثالثة تقول إنها لا تجيد أى عمل على الإطلاق .. ولا حل أمامها إلا أن تعمل خادمة فى البيوت أو مربية أطفال، ومن هنا أدركت هدى أهمية العمل للمرأة وضرورة إعداد النساء لمواجهة مثل هذه الطوارئ .

كانت للحرب العالمية الأولى عواقب وخيمة على كل الأطراف المتشابكة: أوروبا وتركيا ومصر. وعلى الرغم من الخسائر التى منيت بها كل الجيوش المتحاربة، كان لهذه الحرب جانب آخر، أحدث انقلابا فى حياة المرأة. فى أوروبا اضطرت الحكومات إلى تعويض الخسائر الهائلة فى أرواح الجنود بالاستعانة بالعاملات فى مصانع الذخيرة، وفى إنجلترا وظفت حكومة لويد جورج آلاف النساء فى أعمال المكاتب الحكومية من عاملات آلة كاتبة وسكرتيرات وعاملات تليفون .. إلخ وحذت بقية الدول المتحاربة حذو إنجلترا. كذلك تغيرت الظروف الاجتماعية تبعا لظروف الحرب ونتيجة للظروف الخشنة للحرب تغير المظهر الخارجى للنساء، وبدلا من المرأة الدمية التى يفوح منها العطر وترتدى أحدث الأزياء، صارت النساء العاملات يقصصن شعورهن ويقصرن ملابسهن ويرتدين البنطلونات، ويتحدثن فى السياسة.

وفى عام ١٩١٨م انتهت الحرب، وصدر فى إنجلترا

قانون يمنح نساء إنجلترا فوق سن الثلاثين حق الترشيح والانتخاب، وفى مصر كانت الخطوة الأولى فى اتجاه العمل العام عندما دفعت معارك النضال ضد الاحتلال البريطانى النساء المصريات إلى التواجد المكثف فى الساحة السياسية. وفى ٢٨ أغسطس عام ١٩٢٠م تم تعديل الدستور الأمريكى بإضافة مادة تنص على حق النساء الأمريكيات فى الانتخاب والترشيح. وفى عام ١٩٢٨ م امتدت الحقوق السياسية للنساء الإنجليزيات إلى من بلغن الواحدة والعشرين من العمر، وهكذا تواصلت رحلة الألف ميل .. رحلة تحرر المرأة فى العالم كله ..

## المرأة شاهدة على الثورة

قد تميزت ثورة ١٩١٩م بمشاركة مكثفة ونشيطة إلى أبعد مدى من سيدات مصر اللاتى لم يكن قد خرجن من قمقم العثمانية بعد، ولم يكن لهن خبرة واسعة بالحياة السياسية من قبل. على أنه من المفيد أن نعود بذاكرتنا إلى

تلك الأيام، العقد الثانى من القرن العشرين، لكى نمسك بطرف الخيط الذى مازال يكر فى حياتنا إلى اليوم ونحاول أن ننسج منه ثوبا متكاملا نسميه: المشاركة السياسية للمرأة المصرية. ولابد أن نتذكر أنه حتى هوانم ذلك الزمان لم يكن يتلقين إلا قدرا يسيرا من العلم، إما فى مدرسة إرسالية تبشيرية تنتمى لإحدى الدول الغربية، أو فى البيت. وغاية ما كانت العائلات الكبيرة تصبو إليه من تعليم بناتهن أن يُجِدن "الرطانة" بالفرنسية، لغة المجتمعات الراقية فى ذلك الزمان، مع حفظ بعض آيات الكتاب الكريم، وربما تعلمن شيئا من اللغة العربية، وقدر يسير من الموسيقى يتيح للهانم الصغيرة العزف على آلة أو اثنتين لتسلية ضيفات العائلة عند استقبالهن يوم "المقابلة". أما التاريخ أو الجغرافيا أو العلوم الحديثة أو الرياضيات .. إلخ فلم تكن لها نفس الأهمية. لم يكن مطلوبا من المرأة قبل العصر الحديث أى شىء سوى أن تكون صورة جميلة تغرى الرجل باقتنائها، ومديرة منزل

مطيعة تلبى رغباته الحسية وتخدم أبناءه منها أو من غيرها، فى مقابل تكفله بإيوائها وإعالتها.

وعلى مدى التاريخ العربى حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر، كان والد عائشة التيمورية استثناء فريدا، حيث استجاب لميل ابنته إلى التثقف، ورعى موهبتها الفذة ، وتصدى لرغبة أمها فى أن تصنع منها النموذج الأنثوى السائد. أما هدى شعراوى فقد فقدت أباها وهى فى الخامسة من عمرها، ولم يجد الوصى عليها من وسيلة لرعايتها والحفاظ على ثروتها الكبيرة سوى أن يتزوجها، رغم فارق السن الكبير ورغم أنه كان زوجا وأبا لفتيات يكبرنها سنا. وهكذا صنعت هدى شعراوى نفسها، ولم يكن لأى أحد فضل عليها سوى الخالق سبحانه وتعالى الذى حباها بالذكاء الحاد والروح الأيجابية الخيرة والإرادة القوية المسلحة بالوطنية العميقة.

استوعبت هدى شعراوى أفكار قاسم أمين ومصطفى

كامل اللذين توفيا وهى فى التاسعة والعشرين من عمرها، وكانت تكن للأول احتراما شديدا. ولابد أنها اطلعت على كتابات الإمام محمد عبده مفتى الديار المصرية حتى عام ١٩٠٥م، وكذلك كتابات زينب فواز وملك حفنى ناصف وغيرهما من الصحفيات الرائدات، وأحمد لطفى السيد والدكتور محمد حسين هيكل وحافظ إبراهيم وشوقى .. إلخ. إننا ندين بالفضل لثقافة هدى شعراوى التى جعلت منها استثناءا فريدا فى عصرها، تحول إلى نموذج يحتذى لأمهاتنا، ودليلا يدحض مزاعم أعدائنا، ونبراسا نستدل به كلما تاهت معالم الطريق.

وقد تركت لنا هدى شعراوى العديد من المقالات والخطب والبرقيات والبيانات .. الخ بالإضافة إلى مذكراتها التى تعتبر وثيقة تاريخية مهمة تتيح لنا أن نعيد قراءة بعض أحداث ثورة ١٩١٩م من منظورين مختلفين: من منظور امرأة ورجل، كان لكل منهما دوره الأساسى فى تسيير الأمور أثناء وبعد الثورة، وقد تلاقت إرادتهما فى

أحيان كثيرة ثم تباعدت بل تعارضت حتى انتهت إلى القطيعة. أما الرجل فهو زعيم تلك الثورة بلا منازع: الفلاح المصرى المثقف سعد باشا زغلول، ومن حسن الحظ أنه سجل مذكراته أيضا حول تلك الفترة التاريخية المهمة.

وقد خصصت هدى شعراوى جانبا كبيرا من مذكراتها لشرح أسباب وملابسات وتفاصيل ثورة ١٩١٩م وما تلاها من أحداث، انفصمت فيها عرى المودة والصداقة بين الرفاق، وتحولوا فى نهاية الأمر إلى أحزاب متناحرة، تتبادل الاتهامات كما هى الحال دائما بين المصريين، وحول هذه الظاهرة كتب سعد باشا فى مذكراته "يؤسفنى جدا تفرق الآراء حيث يجب اتفاقها، وأن تتغلب الأهواء على المصالح العامة، ويخيل لى أن هذا مرض محلى مصرى، ويقال إن هذا عام فى كل الأقطار"(١).

خلاصة ما يتوصل إليه قارىء مذكرات هدى أن

---

(١) مذكرات سعد ج ٧ صفحة ٢٢٨.

زوجها على باشا شعراوى لقى من أعضاء الوفد، ومن سعد باشا بالذات، ما لم يكن يستحقه من المجافاة والظلم، مما جعله يلجأ إلى الاعتزال والقطيعة. وقد تأثرت هدى بموقف زوجها وآرائه إلى الحد الذى جعلها تنتهى بالانسحاب من حزب الوفد والهجوم العلنى على زعيمه وزعيم الأمة .

فما الذى دفع هدى إلى هذا المنحنى، وكيف اقتنعت بوجهة نظر زوجها، وانتقلت من خانة المعجبين بالزعيم سعد زغلول، زعيم الأمة، ومن أكبر مناصريه وأنشطهم، إلى خانة المعارضين له، المنضمين إلى أعدائه؟! هل هى طبيعة المرأة التى لا تعرف الوسطية، فإما مع أو ضد، وإما الأبيض أو الأسود؟! أم أن الأحداث تشابكت وتعقدت كما يحدث فى خيط طويل، أفلت من بكرته، وتعقدت حلقاته ؟!

وتعترف هدى فى مذكراتها أنها فى البداية سجلت بعض ما عرفته من زوجها، أو سمعته، فقد كان على باشا شعراوى واحدا من رجال الوفد، وكان يطلع زوجته هدى

شعراوى على تفاصيل ما يحدث وما ينتظر أن يحدث فى تلك اللحظة التاريخية المهمة، وهو أمر غريب بالنسبة لذلك العصر: أن يفضى رجل سياسة إلى زوجته الشابة بالأحداث السياسية، ويستمع إلى رأيها ويأخذ بمشورتها. ولاشك أن ذكاء هدى الحاد وطبيعتها المختلفة هما اللذان شجعا زوجها على ذلك. فالمرأة المصرية لم تكن خرجت إلى خضم الحياة السياسية بعد، لكنها بعد ذلك بدأت تشارك بالفعل والقول والموقف فى كل الأحداث السياسية لثورة ١٩١٩م، ولم يكن ذلك بالأمر الهين، بل كان عليها أن تدفع ثمن استقلالها فى الرأى والموقف فى كثير من الأحيان.

ومن الأحداث التى يختلف عليها كل من هدى شعراوى وسعد زغلول مسألة تمويل سفر الوفد إلى باريس. فتقول هدى شعراوى فى مذكراتها أن زوجها عرض على زملائه استعداده للقيام بكل ما يحتاجه سفر الوفد من نفقات لغاية أربعين ألف جنيه، دفع منها فى الحال أربعة آلاف، ووعد

بدفع الباقى إذا لم تقم الأمة بدفع المال اللازم أو قصرت فى دفع جانب منه[1]. أما سعد فلا يذكر شيئا عن هذا فى مذكراته وإنما يحكى كيف تعنت معه أعيان مصر، فمنهم من عارض ومنهم من تبرع بالمال ثم عاد فسحبه، ومن وقع التوكيل ثم عاد وحاول محو اسمه خوفا من المساءلة، ويقول فى مذكراته التى كتبها فى١٥ نوفمبر ١٩١٨م: إنه لم يجمع الوفد حتى تاريخه سوى من ١٥ إلى ٢٠ ألف جنيها، ثم يقول "أغلب الذين كانوا يزوروننا من الطبقات العليا والمتعلمين، كانوا يوجهون إلينا أسئلة تشف عن سوء الظن وعدم الثقة؛ وما أحد منهم قدم لنا مساعدة مادية أو أدبية ..... غير أن الطبقات الأخرى نرى منهم انعطافا عظيما، وتشجيعا شديدا بالكلام والدعوات الصالحات"[2].

وفى مقابل ذلك ذكر البعض أن سعدا باع ١٧٠ فدانا

---

(١) مذكرات هدى شعراوى ص..١٦١.

(٢) مذكرات سعد زغلول . تحقيق د عبد العظيم رمضان ج ٧ صفحة ١٨٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب

من أخصب الأراضى التى كان يملكها فى البحيرة، بسعر الفدان ٢٠٠ جنيه وكانت تلك الأموال النواة الأولى لخزانة الوفد، ثم أخذ سيل التبرعات والاكتتابات يتدفق على هذه الخزانة من أنحاء البلاد. ويذكر سعد فى مذكراته أنه باع فى ٣١ ديسمبر ١٩١٨م بعض أملاكه فى دسونس وطموس بحيرة.

******

## وحدتنا الوطنية

نتحدث كثيرا وباعتزاز عن الوحدة التى تربط بين المصريين مسيحيين ومسلمين، لكن الأجيال الحالية قد لا تدرك أن نسيج هذه الوحدة صنعته خيوط من الأحداث والمواقف التى شكلت وجدان المواطن المصرى ورسمت ملامح الشخصية المصرية الراسخة. وإذا عدنا إلى الوراء وتصفحنا مذكرات هدى شعراوى حول الملابسات التى عاصرت ثورة ١٩١٩م، سنجدها لم تغفل هذا الموضوع، وقد أشارت إلى أن بعض اليهود تبرأوا من الثورة والتحق كثير منهم بخدمة الجيش البريطانى، وأن بعض الأجانب الذين عاشوا بين المصريين وربطت بينهم المصالح المشتركة والصداقة أعواما طويلة تخوفوا من الثورة فى بدايتها، وظنوا أنها ثورة دينية وليست سياسية، فاتخذوا منها موقفا سلبيا، وأن البعض منهم كانوا يتحرشون بالمصريين ويتهمونهم لدى الإنجليز بأنهم قوم متعصبون. وتقول :

"ولكن موقف الأقباط المصريين كان كفيلا بدحض

كل هذه المزاعم، فقد تجلت أروع صور الوحدة الوطنية فى العمل الوطنى الواحد الذى يجمع بين كل المصريين من مسلمين وأقباط".

"وعندما أشاع الإنجليز أن الثورة ضد الأجانب ليشوهوا صورة المصريين فى الخارج وزعموا أنها ثورة الأغلبية المسلمة ضد الأقلية من الأديان الأخرى، تعمد القساوسة والشيوخ الاجتماع معا فى الكنائس والمساجد والمعابد وكان الشيخ يتأبط ذراع القسيس أو الحاخام أمام عدسات المصورين ليظهروا للملأ اتحاد الجميع على الثورة ضد المحتلين الإنجليز.

أى أن التعبير عن الوحدة الوطنية لم يحدث بقرار حكومى ولا بإيعاز من المسئولين وإنما حدث بمحض الإرادة الشعبية لكل من المسلمين والمسيحيين.

وعندما أرسلت إنجلترا لجنة برئاسة اللورد ميلنر

وزيـر المسـتعمرات الـبريطانى لـتدرس ضـم مصـر إلى مستعمراتها، أصدرت لجنة الوفد المركزية بالقاهرة قرارا بمقاطعة هذه اللجنة، ولبى النداء جميع المصريين، وخرج مئات الآلاف فى مظاهـرات تهتف بسقوط اللجنة كانت أشدها فى الإسكندرية ، ثم فى القاهـرة واستقال رئيس الوزراء المصرى فى ذلك الوقت محمد سعيد باشا. وهنا تفتق الذهن الاستعمارى البريطانى عن خطة جهنمية لضرب الوحدة الوطنية بين المصريين فى مقتل : قررت بريطانيا معاقبة الأقباط المصريين الذين اشتركوا فى الثورة بكل جوارحهم وذلك بتعيين واحد منهم رئيسا للوزراء فتحدث الفتنة الوطنية، وعينت يوسف وهبة باشا، غير أن الفتنة لم تحدث بل اجتمع نحو ألفين من المسيحيين فى الكنيسة المرقصية وناشدوا يوسف باشا بعدم قبول الوزارة، فلما لم يستجب لمطالبهم لم يتورع الأقباط عن إصدار بيان رفضه والتبرؤ منه، قالوا فيه :

"وحيث إنه لا فرق بين مسلم وقبطى بل المصريون

كلهم شخص واحد، ولكن الأقباط يرون أنفسهم مضطرين إلى أن يتقدموا بصفتهم أقباطا لإظهار شعورهم حيال هذا الحادث. لذلك هم يعلنون براءتهم من كل رجل أو هيئة تقبل الحماية البريطانية على مصر أو تساعد على تعضيدها، فلكل هذا الأسباب يعلن الموقعون على هذا اشتراكهم مع سائر طبقات الأمة المصرية فى الاحتجاج على تشكيل الوزارة الجديدة".

ولم يكتف الأقباط بذلك بل عقدوا اجتماعا كبيرا فى الكنيسة المرقصية الكبرى برئاسة القمص باسيلوس إبراهيم وكيل البطريركية تناوب فيه الخطباء محتجين على قبول وهبة باشا تشكيل الوزارة ومعبرين عن تضامنهم مع إخوانهم المسلمين.وقد أرسل المجتمعون برقية إلى وهبة باشا محتجين على قبوله الوزرة: "إذ هو قبول للحماية ولمناقشة لجنة ميلنر، وهذا يخالف ما أجمعت عليه الامة المصرية من طلب الاستقلال التام ومقاطعة اللجنة". وفى صباح الاثنين ١٥ ديسمبر ١٩١٩م قام طالب طب قبطى

يدعى عريان يوسف بمحاولة اغتيال يوسف وهبه رئيس الوزراء إلا أن محاولته لم يقدر لها النجاح.

أما اللجنة المركزية للوفد فقد ردت على المؤامرة الإنجليزية بتعيين رئيس قبطى للجنة هو مرقص بك حنا، وهكذا صار على رأس الحكومة والمعارضة قبطيان، وكان هذا أبلغ رد من الشعب المصرى على المؤامرة الإنجليزية التى باءت بالفشل الذريع. كذلك تشيد هدى شعراوى فى مذكراتها بالصحف المسيحية التى دأبت على تأييد الثورة ومساندة الوفد والحث على الوحدة الوطنية .

وفى يوم ١٢ ديسمبر ١٩١٩م اجتمعت النساء المصريات فى كنيسة الأقباط الكبرى بالقاهرة وأصدرن قرارا بمقاطعة لجنة ميلنر والإصرار على التمسك باستقلال مصر التام. ونجد من بين أسماء المشاركات: لولا وأليس طوخى - بولند واصف - مقلده إسكندر - وهيبة شاروبين - حرم الدكتور نجيب إسكندر- سليمة عبد الملك - حرم

ميخائيل بك شاروبين - أليس رياض - بديعة قلادة - فتنة شنودة - إستر منتباوى - مارى إبراهيم ..الخ

لقد لعبت المصرية القبطية دورا بالغ الشجاعة أثناء الثورة، واتخذت المواقف والمبادرات التى تنم عن وطنية صادقة وروح إيجابية رائعة. ففى الثامن من يناير ١٩٢٠م، وبينما كانت هدى شعراوى فى الأقصر اجتمعت مجموعة من النساء المصريات وشكلن لجنة الوفد المركزية. وأرسلت لها السيدة إستر فهمى ويصا تخبرها بتشكيل اللجنة. وفى يوم ١٦ يناير ١٩٢٠م انعقدت الجلسة الأولى للجنة لتشكيل المكتب التنفيذى، ورغم غياب هدى شعراوى، قررن بالإجماع انتخابها رئيسة للجنة، وقد حصلت السيدة إستر نفسها على الأغلبية التالية من الأصوات التى تؤهلها لمنصب وكيلة للجنة، بينما انتخبت السيدة روجينة خياط أمينة للصندوق والآنسة فكرية حسنى سكرتيرة .

أما الحادثة الثانية فقد حدثت خارج مصر وذلك

عندما تسلمت هدى شعراوى من الاتحاد النسائى الدولى دعوة لحضور مؤتمره الذى يعقد فى روما. وفى ١٦ مارس ١٩٢٣م وجهت الدعوة إلى بعض السيدات للاجتماع بمنزلها لانتخاب لجنة تمثل نساء مصر فى المؤتمر. وقد انتدبت الجمعية هدى شعراوى ونبوية موسى وسيزا نبراوى، وكانت هذه هى أول مرة يرتفع فيها صوت المرأة المصرية فى الخارج. وتقول هدى شعراوى "إننا عندما ذهبنا إلى المؤتمر، وجدنا أعلام الدول ترفرف فى قاعة الاجتماع. ولم نكن قد استعددنا لذلك لعدم معرفتنا ببروتوكول المؤتمرات، ولذلك فقد طلبنا من طلاب البعثة المصرية هناك تجهيز علم مصرى يتعانق فيه الهلال والصليب. وقد صنعوه أكبر حجما من كل الأعلام الموجودة. فلما لفت نظرهم ذلك قالوا إن مصر أعرق الأمم ويجب أن يكون علمها أكبر الأعلام"[(١)].

---

(١) مذكرات هدى شعراوى ص٢٥٠.

لقد كانت المرأة المصرية أثناء الثورة، وفى مقدمتها هدى شعراوى، على وعى تام بأهمية الوحدة الوطنية، وقد تعمدت أن تجمع الأحداث بين كل المصريات، وكانت أغلب الاجتماعات تتم فى الكنيسة المرقصية، بحضور المسلمات والمسيحيات، وكن يوقعن البيانات وعرائض الاحتجاج والقرارات بأسمائهن الشخصية أو بالانتماء لأزواجهن. وسنجد من بين هؤلاء فريدة سينوت حنا ووصيفة خياط وبرلنتى ويصا واصف وإستر فهمى ويصا وكثيرات غيرهن. وعندما أصدرت هدى شعراوى مجلة "المرأة المصرية" باللغة العربية (من عام ١٩٣٧- ١٩٤٠) كانت هى رئيسة التحرير وإيفا حبيب المصرى سكرتيرة التحرير.

*******

# بيت الأمة

متى يصبح رجل واحد ممثلا لأمة بأسرها؟ عندما يستميت ذلك الرجل فى سبيل الحفاظ على حقوق هذه الأمة فلا تلن عزيمته ولا تضعف إرادته ولا ينحنى أمام أى تهديد أو جبروت. عندئذ يجمع أعداؤه قبل أصدقائه على اختياره رمزا لهذه الأمة وبيته بيتها..

فى مذكراتها تحكى هدى شعراوى ملابسات الأحداث التى سبقت اندلاع الثورة بشهور قليلة، كانت هى الشرارة التى أشعلتها فيما بعد. فبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى كان الأمير عمر طوسون أول من نبه إلى ضرورة تكوين وفد من رجالات مصر يلتقى بالمعتمد البريطانى ويناقش معه مصير مصر بعد انتهاء الحرب، ورغبة المصريين فى الاستقلال مع حصول بريطانيا على بعض الامتيازات. وعندما علم القصر (السلطان أحمد فؤاد)

بذلك تدخل، بإيعاز من الإنجليز[1]، وأصدر للأمير الأمر بالعودة إلى الإسكندرية وألا يتدخل فى السياسة. وهنا اتجهت النية إلى اختيار الوفد من بين أعضاء الجمعية التشريعية، وما أن أعلنت الهدنة فى ١١ نوفمبر ١٩١٨م حتى طلب سعد زغلول، رئيس الجمعية التشريعية، وأصحابه مقابلة المعتمد البريطانى: سير ونجت لى، وتمت المقابلة يوم ١٢ بحضور على شعراوى وعبد العزيز فهمى.

حدد "المعتمد" لهم موعدا يوم الاربعاء ١٣ نوفمبر فى الساعة الحادية عشرة صباحا ... وقد بدأ السير ونجت هذا اللقاء التاريخى بقوله: أن الصلح اقترب موعده، وبدأ العالم يفيق بعد غمرات الحرب التى شغلته زمنا طويلا، والمصريون هم أقل الأمم تضررا من أضرار الحرب (!!)، وهم مع ذلك قد استفادوا منها أموالا طائلة، وعليهم أن

(١) فى مذكرات سعد اعتراف بأن الأمير عمر طوسون صاحب فكرة أن تقوم من المصريين طائفة للمطالبة بحقوقها فى مؤتمر الصلح. ويعترف سعد زغلول بأنه عندما قيل له : إن هذه المأمورية إذا نجحت فإننا نقيم لك تمثالا من ذهب ! قال: هذا التمثال يكون للبرنس) "مذكرات سعد زغلول.ج ٧ صفحة ١٥٣.

يشكروا دولة بريطانيا العظمى التى كانت سببا فى قلة ضررهم وكثرة فائدتهم.

ورد عليه سعد زغلول باشا بقوله: ما تقول إن إنجلترا فعلت خيرا لمصر، فان المصريين بالبداهة يذكرونه لها مع الشكر. ولكننى أظن أنه لا محل لدوام الأحكام العرفية ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات. وان الهدنة وقد عقدت فإن المصريين لهم حق فى أن يكونوا قلقين على مستقبلهم.

وقال السير ونجت: يجب ألا تتعجلوا، وعليكم أن تكونوا متبصرين فى سلوككم. فان المصريين فى الحقيقة لا ينظرون للعواقب البعيدة (!!)

ورد عليه سعد زغلول باشا قائلا: لا أستطيع الموافقة على ذلك.

وتدخل على شعراوى باشا قائلا: إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر لا العبد للسيد.

وأضاف عبد العزيز فهمى بك قائلا: أننا فى طلبنا الاستقلال، لسنا مبالغين فيه. فان أمتنا أرقى من البلغار والصرب والجبل الأسود وغيرها ممن نالوا الاستقلال قديما وحديثا.

فاعترض السير ونجت بأن نسبة الأميين فى مصر كبيرة. وهنا رد عليه عبد العزيز فهمى بك بأن هذه النسبة مسألة ثانوية فيما يتعلق باستقلال الأمم، لأن الذين يقودون الأمم فى كل البلاد أفراد قلائل. وأن شروط الاستقلال التام متوفرة فى مصر.

وقال السير ونجت: لقد كانت مصر عبدا لتركيا، أفتكون أحط منها لو كانت عبدا لإنجلترا؟!

تحمل الرجال تلك المناقشة على مضض، وتصدوا للرجل الإنجليزى بكل شجاعة ولم يتراجعوا أو يتوانوا أو تلن عزيمتهم عن المطالبة بما استقر عزم الأمة على المطالبة به: الاستقلال التام، بل انهم هادنوه لكى يصلوا

إلى غايتهم فقال سعد باشا: متى ساعدتنا إنجلترا على استقلالنا التام: فإننا نعطيها ضمانات معقولة على عدم تمكين أى دولة من استقلالها والمساس بمصلحة إنجلترا، ونحالفها على غيرها ونقدم لها عند الاقتضاء ما تستلزمه المحالفة من الجنود.

وأضاف على شعراوى باشا: يبقى أمر آخر، وهو حقوق أرباب الديون الأجانب، فيمكن بقاء المستشار الإنجليزى بحيث تكون سلطته هى سلطة صندوق الدين العمومى.

انتهت المقابلة التى حضرها رئيس الوزراء حسين رشدى باشا إلى لا شىء، وبعد اللقاء أبدى المعتمد البريطانى تبرما واحتج بأن هؤلاء الرجال لا يمثلون الشعب المصرى وليس من حقهم أن يتحدثوا باسمه، ومن هنا نشأت فكرة التوكيل للوفد للتفاوض باسم الشعب فيما يتعلق بقضية استقلال مصر ووقع التوكيل مئات الألوف من

المواطنين المصريين من جميع المهن والطوائف والطبقات والمدن والقرى.

تقول الصيغة الأولى للتوكيل للوفد "نحن الموقعين على هذا، قد أنبنا عنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك وعبد اللطيف المكباتى بك ومحمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد بك، ولهم أن يضموا إليهم من يختارون، فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا فى استقلال مصر تطبيقا لمبادىء الحرية والعدل التى تنشر رايتها بريطانيا العظمى وحلفاؤها ويؤيدون بموجبها تحرير الشعوب". ويقول سعد زغلول فى مذكراته إن هذه الصيغة لما ذاعت بين الناس اعترض الحزب الوطنى على العبارة الأخيرة لما فيها من الملاينة التى لا طائل من ورائها للإنجليز، وذهب أربعة من أعضائه إلى بيت سعد ليناقشوه فيها ويطالبوه بأن تنتهى عند عبارة: "سبيلا فى استقلال مصر والسودان استقلالا تاما". واحتدمت المناقشة بين الطرفين فاحتج سعد قائلا :

كيف تهينونى وأنتم فى بيتى..؟!" ،فرد أحدهم على الفور: "هذا ليس بيتك .. هذا بيت الأمة وانتهت المقابلة بقبول سعد شطب العبارة الأخيرة، واعتبار استقلال مصر متضمنا استقلال السودان[1]. إما إطلاق اسم بيت الأمة على بيت سعد زغلول فقد استمر منذ ذلك اليوم.

استعد الوفد بعد ذلك للسفر إلى إنجلترا للتباحث مع الحكومة الإنجليزية. وفى نفس الوقت سعى حسين رشدى باشا رئيس الوزراء إلى السفر إلى باريس فى وفد رسمى وعرض قضية بلاده، وتقدم رئيسا الوفدين الرسمى والشعبى للمعتمد البريطانى يطلبان الإذن لهما بالسفر فرفض الطلبين، ثم عاد يلوح لرشدى وعدلى يكن بإمكانية الإذن بسفرهما وحدهما، ولكن سعد رفض ذلك رفضا قاطعا ! وكان سعد يشك فى أنهما يميلان لقبول استمرار الحماية على مصر ويصفهما فى مذكراته "بأنهما

(١) ثورة ١٩١٩م عبد الرحمن الرافعى.

مخاتلان، وأن كلا منهما لا يريد أن يفعل لأمته شيئا، ولا أن ينفصل عن وظيفته ولكن أحدهما خفيف أهوج (رشدى) والآخر رزين أمكر (عدلى)، الأول لا يستطيع أن يخفى ما بنفسه، والثانى يخفيه". ومع ذلك لم يجرؤ الوزيران على مخالفة سعد والوفد فرفضا عرض السفر وحدهما، وتقدم رئيس الوزراء باستقالته إلى السلطان أحمد فؤاد فى ١٠ فبراير ١٩١٩م، ولكن الاستقالة رفضت، أما سعد باشا فقد ظل يرسل البرقيات للمعتمد البريطانى ولرئيس الوزراء وإلى قناصل الدول الأجنبية بمصر ورئيس الوزراء البريطانى لويد جورج والرئيس الأمريكى ويلسون وكليمنصو رئيس الوزراء الفرنسى ورئيس مؤتمر السلام بباريس. أصرت قيادة الجيش الإنجليزى على رفض إعطاء جوازات سفر للوفد الشعبى، فطلبت الحكومة المصرية التصريح لهم بالسفر مهددة بالإستقالة إذا لم يحدث وسحب الاستقالة إذا سافر الوفد!

وفى أول مارس ١٩١٩م قبل السلطان فؤاد استقالة

رئيس الوزراء حسين رشدى باشا، بدلا من أن يسعى للسلطات البريطانية للسماح للوفد الشعبى بالسفر فأضرب المصريون جميعا عن تشكيل وزارة أخرى وبقيت البلاد بلا حكومة فترة من الزمن .

*******

## إذا الشعب يوما أراد الحياة

نتابع فى حزن وأسى ما يرتكبه جيش الاحتلال الإسرائيلى فى فلسطين الخنيبة من جرائم وحشية تخالف كل الأعراف والقيم والمبادىء الإنسانية، وكيف يقدم شعب فلسطين الشقيق عن طيب خاطر وبملىء إرادة رجاله ونسائه بل وأطفاله ضريبة الدم والفداء لوطنه السليب. وكيف تقف هيئة الأمم المتحدة وكافة الهيئات والجمعيات الدولية والحكومات الغربية موقفا سلبيا يشجع المعتدى ويحرضه على المزيد من البطش بشعب أجبر على ألا يحمل السلاح، لكن أحدا لن يستطيع إجباره على عدم الاستشهاد فى سبيل الحق والوطن والعقيدة. على أن هذه الأحداث المؤلمة ينبغى أن تعيد إلى ذاكرتنا ما عاناه أباؤنا طوال النصف الأول من القرن الماضى من أهوال فى سبيل استرداد مصر لأستقلالها وكرامتها. وسنكتشف أن التاريخ يعيد نفسه، وأننا واجهنا نفس السيناريو الذى

يكرره الإسرائيليون اليوم، رغم علمهم أن أسلافهم الاستعماريين هزموا فى النهاية شر هزيمة، وانتصرت إرادة الشعب المصرى فى تحرير بلاده.

كانت مصر أثناء الاحتلال البريطانى تعيش داخل معتقل كبير، وكان لزاما على ساستها الذين فكروا فى حضور مؤتمر الصلح والمطالبة باستقلالها استقلالاً تاما أن يستأذنوا من سلطات الاحتلال البريطانى ويحصلوا منهم على تصاريح بالسفر إلى باريس. وبالطبع رفضت تلك السلطات السماح لهم بالسفر، بل ورفضت أن يسافر رئيس الوزراء حسين رشدى باشا على رأس وفد رسمى لأداء نفس المهمة. فاضطر رئيس الوزراء إلى تقديم استقالته. وبدلا من أن ينتفض السلطان أحمد فؤاد غضبا لكرامته كحاكم، ويعترض على تجاهل الإنجليز له، وبدلا من أن يسعى لديهم للسماح للوفد الشعبى بالسفر فوجىء المصريون بقبوله استقالة رشدى باشا فى أول مارس ١٩١٩م، وهنا وقف رجال السياسة المصريون موقفا وطنيا

رائعا وأضربوا جميعا عن تشكيل وزارة أخرى، وأصبحت مصر بلا حكومة ..

أما أعضاء الوفد المصرى فقد أرسلوا للسلطان خطابا يلومه على موقفه هذا ويطالبونه بأن يقف فى صف شعبه المدافع عن قضية بلده العادلة و"أن يريه من نفحاته ما يحقق الأمل بصفته ابن إسماعيل الجالس على عرش محمد على الكبير". واستدعت الحكومة البريطانية السير لى ونجت المعتمد البريطانى الذى أهان سعدا ورفاقه، لا لتعنفه على موقفه "اللاديموقراطى"، وإنما لكى ترسل بدلا منه رجلا عسكريا على أمل أن يكون أقدر على مواجهة الأزمة؛ هو الفيلد مارشال اللنبى. وحيث إن مصر كانت خاضعة للأحكام العسكرية فقد استدعى القائد العام للقوات البريطانية رجال الوفد المصرى يوم ٦ مارس ١٩١٩ م وحملهم مسئولية امتناع المرشحين للوزارة عن قبولها ووجه إليهم إنذارا شديد اللهجة مهددا باستخدام العنف مع الشعب كله!!

حاول سعد باشا أن يناقش القائد العام الإنجليزى ولكنه رفض المناقشة، وترك الوفد وانصرف. فما كان منهم إلا أن كتبوا برقية إلى رئيس الحكومة البريطانية شرحوا فيه المسألة وطالبوها بالموافقة على سفر الوفد، وكان رد الحكومة البريطانية أبلغ دليل على غطرسة القوة، وشيزوفرانية الفكر الأوروبى؛ ففى ٨ مارس ١٩١٩م تم القبض على سعد زغلول وحمد لباسل ومحمد محمود وإسماعيل صدقى، من أعضاء الوفد الشعبى، وصدر الأمر بنفيهم إلى مالطة . . .!

حظرت القيادة البريطانية على الصحف نشر نبأ اعتقال سعد وأصحابه أو التلميح به، إلا أن الخبر ما لبث أن ذاع فعرفه أعضاء الوفد ثم تسرب إلى طلبة المدارس العليا فأضربوا وخرجوا فى مظاهرة كبيرة طافت بدور المعتمدين السياسيين (السفراء والقناصل) للاحتجاج على اعتقال الزعماء، وأضرب بعدهم عمال الترام، ثم الحوذية، ثم انضم أصحاب الدكاكين والمحامون وبقية النقابات

والطريف أن البعض رفع العلم العثمانى وصور الخديوى المخلوع عباس حلمى الثانى .

وقد اتضحت بربرية الإنجليز ونفاقهم فى تعاملهم مع تلك الثورة الشعبية بوحشية وضراوة أدت إلى مقتل الآلاف من الرجال والنساء المسلمين والأقباط( حوالى ٣٠٠٠ شهيد) ، ولم يتورع الجنود البريطانيون عن اقتحام الأزهر الشريف مثلما فعل بونابرت منذ أكثر من مائة عام، واعتقلوا ٣٠٠ طالب فى اليوم الأول للثورة، وأجروا محاكمات وهمية للعشرات وأصدروا عليهم أحكاما تعسفية بالإعدام الفورى وأحرقوا ودمروا العديد من القرى والمدن المصرية.

وكشاهد عيان على الثورة سجلت هدى شعراوى أحداثها فقالت فى مذكراتها: "وعندما شاع خبر إطلاق الرصاص على المتظاهرين، وشاعت أخبار الموتى والمعتقلين من الطلاب والشبان، طغى الغضب وعم، وكان ظهوره على

نمط واحد في جميع أنحاء البلاد بغير تدبير ولا سبق اتفاق .. فبدأ انقطاع السكك الحديدية ما بين طنطا وتلا في اليوم الثالث عشر من مارس، ثم انقطعت في جهات كثيرة دفعة واحدة، وتناول الثائرون بالتحطيم والتخريب أسلاك التلغراف والتليفون وقضبان السكك الحديدية حيثما وصلت إليها أيديهم. وكان الغرض من هذا التحطيم إعاقة القطارات المسلحة والفرق (الإنجليزية) الجوالة عن الطواف بالمدن والقرى لجمع السلاح وتفتيش المنازل وإيذاء الناس"[1].

وعلى عادة المحتل الغاصب قابل الإنجليز تلك الثورة الشعبية الضخمة التي اندلعت في كل المحافظات المصرية، بكل ما تمكنوا من القمع والبطش فخرجت السيارات المصفحة كالذئاب الجائعة واطلقوا المدافع الرشاشة على المتظاهرين.

(١) مذكرات هدى شعراوي ص. ١٦٩.

وفى نهاية شهر مارس قدم على شعراوى بصفته وكيلا للوفد تقريرا إلى المندوب السامى يشرح فيه تطور الأحداث ويطالب بالقضاء على أسباب الثورة. وضغطت السلطة الإنجليزية على السلطان أحمد فؤاد فأصدر بيانا طالب فيه "الرعية" بالتزام الهدوء والخلود إلى السكينة، ولكن الثورة لم تهدأ، فلم يجد اللورد اللنبى قائد القوات البريطانية فى مصر مفرا من الإذعان لرغبة الشعب والإعلان عن سماحه للوفد المصرى بالسفر وتم الإفراج عن سعد ورفاقه وأبيح للمصريين السفر يوم ٧ إبريل ١٩١٩ م ، وفى يوم ٩ إبريل عادت وزارة رشدى باشا إلى الحكم، فابتهج الناس وعمت مظاهرات الفرح والابتهاج .

وهكذا رغم وحشية البريطانيين فقد منيوا بهزيمة نكراء وتحقق للشعب ما أراده فتم الإفراج عن المنفيين فسافروا من مالطة إلى باريس، ولحق بهم بقية أعضاء الوفد المصرى.

وكان يوم ٨ إبريل من أروع وأجمل الأيام المصرية التى عبر فيها الشعب عن اعتزازه ببلده وزعمائه فى مظاهرات من الفرح والابتهاج خرجت فيها المرأة تحمل علم بلادها وتلوح به أمام الجنود الإنجليز، واتجه الآلاف إلى بيت سعد الذى أطلقوا عليه "بيت الأمة" وألقى العديد منهم الخطب الحماسية فما كان من الإنجليز إلا أن صوبوا بنادقهم لصدور الأبرياء وقتلوا منهم العشرات.

ورغم هذا كله فقد حيكت المؤامرة واعترف مؤتمر الصلح بالحماية البريطانية على مصر، ورفض السماح للوفد المصرى بالانضمام للمؤتمر أو التحدث أمام الأعضاء. وبذلك تحتم استمرار الثورة المصرية.

*******

# شفيقة محمد أول شهيدة مصرية

لا يمكن أن يتحرر شعب بينما نصفه مغلول إلى المطبخ، عبارة أطلقها المفكر الألمانى كارل ماركس الذى صدر المجلد الرابع من كتابه الخطير "رأس المال" خلال سنوات ١٩٠٤م —١٩١٠م. انفجر كفاح الشعب المصرى المرير لمقاومة وإنهاء الاحتلال البريطانى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وطوال المرحلة الأولى من النضال الشعبى لإنهاء الاحتلال لم تتوان المرأة المصرية عن بذل الروح والدم فى سبيل وطنها الحبيب مصر. وقد تزامنت معركة تحرير مصر لترابها المقدس مع معركة انطلاق ابنتها المصرية من أسر الرق والحريم والجاهلية العثمانية، حتى بدى كأن إحداهما لن تنتصر دون الأخرى .

كانت تلك هى الحلقة الثالثة فى نضال المرأة المصرية لكسر أغلالها والدفاع عن حرية وكرامة بلدها فى آن

واحد. بدأت الحلقة الأولى فى بداية القرن التاسع عشر، بالدور الذى لعبته النساء "الحرافيش" فى ثورات القاهرة أثناء الغزو الفرنسى لمصر، وخلده المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى، ثم جاءت الحلقة الثانية بعد ذلك بأقل من قرن، أثناء ثورة البطل المصرى أحمد عرابى عندما وقفت النساء المصريات من الطبقة الحاكمة معه، وناصرنه، وعارضن الخديوى توفيق فى السر والعلن. ثم جاءت الذروة أثناء ثورة ١٩١٩م، وعن شجاعة واستبسال المرأة المصرية تحكى هدى شعراوى فى مذكراتها الكثير من الأحداث المثيرة .

تذكر هدى شعراوى فى مذكراتها أن صفية هانم زغلول حرم سعد باشا، والتى سيمنحها الشعب لقب أم المصريين وقفت موقفا رائعا ينم عن شجاعة المرأة المصرية ورفضها الخضوع للقهر وتحديها للسلطة الغاشمة؛ ففى يوم اعتقال زوجها ورفاقه أرسلت صفية زغلول إلى على شعراوى، وكيل الوفد، تبلغه أن مكتب سعد فى بيته مفتوح له ولزملائه فى غيابه كما كان فى حضوره، وترجوه أن

يقبلوا دعوتها على العشاء فى ذلك المساء، وأن يعقدوا جلستهم الأولى فى مكان انعقادها المألوف، كى لا يطرأ على سير الدعوة أدنى تغيير بعد حادث الاعتقال الذى أريد به القضاء عليها. وقد قرر الأعضاء أن يلبوا دعوتها ويشكروها ويعقدوا اجتماعاتهم فى "بيت الأمة"، وأن يعتذروا عن العشاء.

وتقول هدى هانم أن زوجها نصحها بالاتصال بحرم سعد باشا وحرم محمد محمود باشا وبعائلات أعضاء الوفد أثناء نفى سعد باشا ورفاقه، وعندما شعر أن الإنجليز قد ينفونه هو الآخر أو يعدمونه، ترك زملاءه المجتمعين فى الدور الأول من المنزل وصعد إليها فى الطابق الثانى ليقول لها: "ربما تعتقلنا السلطة، فإذا حدث ذلك، فأرجو أن تسلمى هذا المبلغ لحرم سعد باشا، فربما تحتاج إليه فى غيبتى"، أى أنه أعطاها إشارة البدء فى المشاركة الفعلية فى النضال، فكانت هى وصاحباتها يخرجن أثناء الثورة لزيارة أهل المصابين برصاص

الإنجليزو يواسونهم ويزرن الجرحى ويمددن يد العون للفقراء والمعوزين، من ضحايا البطش الإنجليزى وانتهاكهم حرمات البيوت واعتدائهم على الأرواح والأعراض والممتلكات خصوصا فى الضواحى.

وفى مظاهرة سلمية ضمت جميع الهيئات المصرية الرسمية من جيش وقضاة ومحامين وموظفين ومن علماء الأزهر وطلابه وعمال ورجال الدين من جميع الأديان، لم يفت النساء المصريات (من كل الطبقات) المشاركة فيها، البعض داخل سياراتهن أو عرباتهن ،وأخريات على عربات الكارو وكن جميعهن يحملن العلم المصرى فى أيديهن ويلوحن به فى جرأة متحدين جنود جيش الاحتلال. وقد أثار مشهد النساء المصريات جنود الاحتلال إلى أبعد مدى، ولعله أشعل فى قلوبهم مشاعر الخوف إلى جانب الغضب من هذه المخلوقة التى لم يتعرفوا عليها ولم يألفوا وجودها حولهم، حتى ظنوها غير موجودة. ولاشك أن الحجاب العثمانلى والمشربيات والحراسة المدججة على

الحريم كانت تثير خيالهم، وتجعلهم يتصورون أنواع المتع الحسية والملذات الجسدية التى تتفرغ النساء الشرقيات لتقديمها لسيدها الرجل وتجعل منها هدفا وحيدا لوجودها. لذلك أصيبوا بالذعر عندما ظهرت المرأة المصرية فجأة، بعد أن مزقت الشرنقة التى فرضها عليها محتل سابق، وغادرت عرينها وأبدت شجاعة تصل إلى حد الاشتباك بالأيدى مع جنود الاحتلال .

تقول هدى شعراوى: "كانت المرحومة ألفت هانم راتب تمسك بيدها علما مصريا صغيرا يرفرف من نافذة سيارتها، وعند مرور المظاهرة أمام فندق الكونتننتال انقض أحد الجنود الإنجليز على سيارتها، وحاول انتزاع العلم من يدها، ولكنها تشبثت به ولم تمكنه من انتزاعه. ولما كان ذلك على مشهد من الأجانب، فقد صفقوا إعجابا بها، فثار الجندى ثورة حمقاء وأخذ يجذب العلم منها ويضربها بيده الأخرى على ذراعها ضربات قاسية ليرغمها على التسليم، ورغم ذلك لم يتمكن من قهرها. وعندما صار أضحوكة المتفرجين أقبل بعض زملائه وأخذوا

يطعنون سيارتها .. وأسفرت المعركة بين جنود بريطانيا المسلحين وبين سيدة مصرية عزلاء عن احتفاظها بعلم بلادها ..."[1].

وقد ذكرت هدى شعراوى فى مذكراتها أن العديد من النساء اللاتى أرغمتهن الظروف على عدم ترك بيوتهن كن يتجمعن فى شرفات البيوت ويهتفن ويصفقن للمتظاهرين، وكثيرا ما كان جنود الإنجليز يوجهون رصاصاتهم إلى هؤلاء النسوة، فكانوا يجرحون البعض ويقتلون البعض الآخر. وكما سقط الألوف من الأطفال والشبان والشيوخ شهداء فى سبيل وطنهم، ذكرت أسماء النساء المصريات الباسلات اللاتى سقطن شهيدات فداء مصر برصاص الإنجليز ومن بينهن:

السيدة شفيقة بنت محمد والسيدة عائشة بنت عمر، والسيدة فهيمة رياض، والسيدة حميدة بنت خليل، والسيدة نجية إسماعيل.

---

(١) مذكرات هدى شعراوى ص..١٧٤.

كانت شفيقة محمد أول شهيدة مصرية، وقد أحدث خبر استشهادها موجة من الحزن والسخط وخرجت كل طبقات الأمة تشارك فى تشييع جنازتها، ولم تحترم سلطات الاحتلال المشاعر الوطنية الجياشة فوجهوا مدافعهم صوب المشيعين وكادت تحدث مجزرة .

ولم تؤثر تلك الحادثة وغيرها على المرأة المناضلة، فقد قامت النساء المصريات بدور كبير أثناء إضراب الموظفين وكن يشجعن أزواجهن وأبناءهن على عدم الذهاب لأعمالهم، وقامت الكثيرات بالوقوف على أبواب الدواوين لمنع المتخاذلين من الدخول إلى مكاتبهم، وكن ينتزعن أساورهن وحليهن، ويقدمنها لهم قائلات : إذا كان أحدكم فى احتياج لمرتبه فليأخذ هذه الحلى، ولا تسودوا وجوهنا بالرجوع إلى أعمالكم بعد صدور الإنذار البريطانى.

وعندما أرسلت الحكومة البريطانية لجنة برئاسة اللورد ملنر وزير المستعمرات لبحث وسائل ضم مصر إلى

بريطانيا، أعلنت نساء مصر رفضهن النهائى للتفاوض مع هذه اللجنة، ومقاطعتها.

وفى ٢٠ يناير ١٩٢٢م، بينما سعد زغلول منفيا بجزيرة سيشيل، اجتمعت السيدات المصريات فى جلسة فوق العادة وقررن إعلان المقاطعة العامة لكل ما هو إنجليزى من بضائع وأشخاص سواء كانوا تجارا أو موظفين أو أطباء أو صيادلة .. إلخ وعدم معاملتهم قطعيا .. ووزعت السيدات دعوة المقاطعة فى كل أنحاء القطر المصرى .. وقد استجابت كل قوى الشعب لنداء النساء المصريات وكانت لتلك المقاطعة آثارها الوخيمة على الدولة العظمى، وفى الوقت نفسه بدأت الدعوة إلى التعامل مع الصناعات الوطنية وتشجيعها.

*******

# احتجاج "الغواني"

لم يكن نضال المرأة المصرية أثناء الاحتلال البريطانى بمعزل عن نضال الرجل المصرى بل تم برضاء وتشجيع أغلبية القوى التقدمية والوطنية. وكان الشعب المصرى يرقب تحركاتهن الوطنية بكل الإعزاز والإعجاب. وعندما خرجت كل نساء القاهرة فى مظاهرة سلمية احتجاجا على أعمال القمع التى كانت تصدر عن السلطة العسكرية الإنجليزية ضد الثوار، نظم حافظ إبراهيم شاعر الوطنية قصيدة فى بسالة النساء المصريات استهلها بقوله:

خرجت الغوانى يحتججن ❖❖ ورحت أرقب جمعهن

فإذا بهن يتخذن من ❖❖ سود الثياب شعارهن

و أخذن يجتزن الطريق ❖❖ و دار سعد قصدهن

وإذا بجيش مقبل ❖❖ و الخيل مطلقة الأعنة

و إذا الجنود سيوفها ❖❖ قد صوبت لنحورهن

وفـى الوقت نفسـه لم يكن أداء المصريات النشيطات فـى الحـركة الوطنـية مجـرد صدى وتـرديد وتكـرار وتقليد لأداء الرجال، وإنما كانت لهن آراؤهن المستقلة التى وصلت فى بعض الأحيان إلى حد المعارضة للزعامة الوطنية.

كانـت الحـياة الاجتماعـية فـى مصـر أوائـل القـرن العشـرين، وبتأثير من الجاهلية العثمانية، تعانى من الفصل الحـاد بين الجنسين، وعـدم تقبل أى حـوار بينهما حتى فى الأمـور البعيدة عن المشاعر الشخصية، وكان البيت المصرى يـتكون مـن قسـمين: السـلاملك حيـث يـنفرد الـرجال ويسـتقبلون أصـدقاءهم، والحـرملك حيـث تعـيش النسـاء حياتهن كاملة بعيدا عن الرجال، ولا يختلطن أو يحادثن إلا المحـارم مـنهم فقـط. وعـندما اشـتعلت المعـركة الوطنـية لم تشـأ النسـاء، خاصـة مـن الطـبقات الراقـية والمتعـلمة، أن يحـرمن مـن شـرف النضـال الوطـنى، ولم تكـتف النسـاء

المصريات بالتظاهر والاحتجاج مباشرة لدى المسئولين وتوزيع البيانات على الشعب وكتابة المقالات فى الصحف .. إلخ بل قررن تنظيم صفوفهن، وبدء مرحلة من الجهاد المنظم، وقمن بتشكيل "لجنة الوفد المركزية للنساء"، وأعلنت اللجنة الجديدة أن مهمتها "مساعدة اللجنة المركزية للوفد المصرى، وتبليغ الوفد المصرى أمانى السيدات المصريات، والسعى بكل ما يمكنها لاستمرار المطالبة باستقلال مصر استقلالا تاما" وكما حدث مع لجنة الرجال، انهالت على اللجنة النسائية التوكيلات الصادرة عن المواطنات فى جميع أنحاء مصر التى أكدت انتخابهن لتمثيل النساء المصريات لدى كل الهيئات.

وفى اجتماعها الأول فى ١٦ يناير ١٩٢٠م كان العمل الأول للجنة المركزية للنساء إرسال خطاب إلى اللورد ملنر وزير المستعمرات الذى أرسلته الحكومة البريطانية على رأس لجنة لبحث وسائل ضم مصر إلى بريطانيا، أعلن فيه الرفض النهائى للتفاوض مع اللجنة والاحتجاج على

المعاملة الخالية من الكياسة والذوق التى تعامل بها النساء فى مظاهراتهن الوطنية، وعلى الإجراءات الاستبدادية ضد الرجال الوطنيين، وطالبن بالاستقلال التام لمصر.

وقد ظلت هذه اللجنة تجسم صمود المرأة المصرية بكل شجاعة إلى جانب الرجل وترفع صوتها إلى العالم كله وتستثير عطفه وتأييده وتفضح التجاوزات والممارسات الوحشية لجيش الاحتلال البريطانى، حيث كانوا يشردوا ويعتقلوا الآلاف بلا محاكمة ويحتجزونهم فى سجون أقامها الإنجليز فى الصحارى، وكانوا يتركونهم فى خيام تقتلعها الرياح والسيول فيصبحون فى العراء .. كما وصف بيان للجنة السيدات.

وعلى الرغم من تأييد سعد للجنة ونشاطها الفائق، إلا أن مندوبى الوفد الذين أرسلهم من باريس لعرض مشروع الاتفاق على جميع الهيئات فى مصر، ظلوا على ما كانوا عليه من عدم الاعتراف بحق النساء فى العمل

النسائى، وتجاهلوا اللجنة، وأعلنوا أنه لا يجوز للنساء التدخل فى الأمور السياسية، ولكن نساء مصر لم يستسلمن لهذا الأمر بل قمن بواجبهن على أكمل وجه، ودعت هدى هانم زميلاتها إلى الاجتماع فى بيتها برمل الإسكندرية يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٢٠م وعكفن على دراسة المشروع وأبدين ملاحظات هامة عليه، وقررن عدم صلاحيته لأن يكون أساسا لمعاهدة تعقد بين مصر وإنجلترا إلا إذا أضيف إليه خمسة عشر تحفظا أرسلنها جميعا إلى مندوبى الوفد المصرى ونشرنها فى جميع الصحف المحلية. والتوصيات كلها تحرص على استقلال مصر والحفاظ على كيانها وإلغاء الحماية البريطانية عليها والغاء الامتيازات الأجنبية وغير ذلك مما يدل على عمق الوعى السياسى للنساء المصريات فى ذلك الوقت، والمامهن بالشئون السياسية.

ثم أرسلت هدى شعراوى إلى سعد زغلول رسالة تحتج فيها بشدة على تصرفات مندوبى الوفد، وتطالبه فيه

بإعلان ما سيكون عليه مركز المرأة المصرية فى المستقبل بعد التوصل إلى حل مرض مع الإنجليز .وقالت فى رسالتها:

"والذى يزيد من استيائنا هو أن يثبت الوفد بعمله هذا ظن الهيئات الأجنبية بمصر اللواتى أولن نهضتنا بخلاف الحقيقة، حيث قالت: إن اشتراك النساء فى الحركة المصرية لم يتم بدافع الوطنية، بل بإيعاز فئة من الوطنيين لاستعمالهن كآلة مؤقتة لإيهام الأمم المتحدة بنضوج الأمة المصرية فى الرقى وكفاءتها لحكم نفسها بنفسها ...".

وفى ٢٧ أكتوبر ١٩٢٠م وصل هدى ردا من سعد زغلول رئيس الوفد يعتذر بشدة عما بدر من مندوبى الوفد ويرحب باقتراحاتهن "ولكنى أؤكد لحضراتكن أنهم لم يفعلوا ذلك استخفافا بكن أو إهمالا لشأنكن بل لظروف أجنبية عن هذا المعنى ولو كنت فيهم لامتنع تأثير هذه

الظروف ولتعين على أن أقوم بشخصى بعرض المشروع عليكن وتوضيح معانيه ومراميه رغبة فى الاستنارة بآرائكن التى لها المقام الأول من الاعتبار عندى وعند زملائى، ويسرنى جداً أنكن مع ذلك فهمتن المشروع حق الفهم وأبديتن فيه تحفظات أراها فى غاية الأهمية وأرى التشبث بها من أخص أحبائى وإنى أول من يرى أنه لا يمكن أن تتقدم هيئة اجتماعية بدون أن يشترك حسكم اللطيف فيها .. ".

وبعد هذا وصلت هدى شعراوى ورفيقاتها رسالة أخرى من سكرتير الوفد فى ذلك الوقت مصطفى النحاس يقول فيها: إننا لنفخر بنهضة سيداتنا واهتمامهن بمستقبل البلاد. ويسرنا أن تتفضل اللجنة المركزية للسيدات بأن ترسل إلينا برأيهن فى مشروع الاتفاق وملاحظاتهن عليه. واننا سنحلها محل الاعتبار اللائق بها.

والجدير بالذكر أن سيدات مصر لم يغرهن هذا

الاحتفاء الكبير من زعيم الوفد وسكرتيره، بل ظللن محافظات على استقلالهن الفكرى، مصرات على الشفافية وتبادل الآراء فى العلن وبلا أى جنوح للمجاملة على حساب مصلحة مصر والمصريين، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى مفترق الطرق وتصاعد الخلاف بين زعيمة النساء هدى شعراوى وزعيم الأمة سعد زغلول إلى حد القطيعة الكاملة، وقد كانت علاقتهما على قدر كبير من الإثارة التى تستحق أن نفرد لها مقالا آخر.

******

# الرئيس والرئيسة

لم تكن علاقة هدى شعراوى بزعيم الثورة والأمة سعد زغلول علاقة عادية، بل كانت علاقة درامية تتسم بالمد والجذر، بالصعود والهبوط، بالدفء وتبادل الإعجاب علنا وبالافتراق وتبادل الاتهامات ثم القطيعة. وهى تعطى صورة حية لما كانت عليه الحياة الاجتماعية والسياسية فى مصر بداية القرن العشرين ، وتمثل نموذجا حيا لما يمكن أن تكون عليه الفروق بين ممارسة الرجل للسياسة وممارسة المرأة. فالمرأة تعطى اعتبارا أكبر للعلاقات الإنسانية، وتميل إلى لعب دور التهدئة والتوفيق بين الاتجاهات المختلفة، فى وقت يحتاج للتكاتف والتضامن بدلا من الشقاق والصراع.

ومما لا شك فيه أن على شعراوى باشا لعب دورا كبيرا فى التأثير على زوجته هدى شعراوى وفى تكوين آرائها حول سعد والوفد. وفى مذكراتها تقول هدى شعراوى

إن زوجها عاد فجأة من باريس متعللا بسوء صحته، وانتشرت الشائعات عن خلاف دب بينه وبين سعد باشا أدى إلى تركه أمانة صندوق الوفد وعودته إلى مصر، فلما سألته اعترف بأن سعدا غضب منه لأنه ألح فى سؤاله عن أوجه صرف مبالغ الوفد التى كان يطلبها منه، لكى يدونها فى دفاتر حساب الوفد، وأنهما تصافيا وتصافحا، ولكنه فوجئ بأن سعدا لم يطلب منه الاشتراك مع مندوبى الوفد الذين جاءوا لعرض مشروع ملنر على الهيئات المصرية. وبناء على ذلك قرر زوجها عدم الذهاب إلى المحطة لاستقبال سعد عند عودته من باريس، أما هى فقد ذهبت مع لجنة السيدات وشاركن فى الاستقبال الشعبى لسعد، وعادت مع كبار رجال الوفد إلى بيته.

وتعترف هدى بأن موقف زوجها من سعد سبب لها الحرج والارتباك فتقول فى مذكراتها: "ولما عدنا إلى منزل سعد باشا الذى كان غاصا بالجماهير من الرجال والنساء، وقد نصب فى جانبيه سرادقان أحدهما للرجال والآخر

للنسـاء، كنـت أشعر بشـىء مـن الخجـل لوجـودى فـى ذلـك الجمع ، بينمـا زوجـى الـذى خـدم الوفـد - ولولا خدماته ما كسب ثقة الأمة - قد بقى منفردا فى بيته لا تعرف الأمة له قدرا ولا حقا .

"وبيـنما أنـا فـى ذلـك الجمـع الحاشد ينتابنى ذلـك الشعور وتمر فى مخيلتى تلك الأفكار، إذا بصوت سعيد أغا ينادينى ويقـول لـى: إن سـعد باشـا يبحـث عـنك ويقـول أيـن الرئيسة ..

فدفعنـى حـرج مركـزى إلى الـتوارى بعـيدا عـن عينـى سـعد، ولكنـنى صـادفته وأنـا فـى طـريقى للخروج وهـو يشـق صـفوف السـيدات قـائلا : أيـن الرئيسـة لأشـكرهـا..فتقدمت نحـوه، وهـنأته بسـلامة العـودة، ورجوت شريفة هانم رياض وبـاقى أعضـاء الوفـد السـيدات أن ينبن عنى، ويعذرننى فى ابتعادى للسبب الذى يعرفنه من حرج الموقف. وخرجت".

وفـى الـيوم الـتالى توجه سعد إلى منزل على شعراوى باشـا، وتـرك لهـا وحدهـا بطاقة شكر على مقابلته بالمحطة

وزيارته فى السرادق. ثم عاد فى اليوم التالى وأزال عنها الحرج الشديد الذى شعرت به، فزار زوجها وصافحه.

ورغم ذلك عاد الخلاف بين الأستاذ والتلميذة النجيبة يظهر مرة أخرى بسبب موقف سعد من عدلى يكن. ففى ١٦ مارس عام ١٩٢١م شكل عدلى يكن وزارته الأولى، وسافر إلى باريس على رأس وفد رسمى ليفاوض الإنجليز على الجلاء عن مصر. وعاد سعد زغلول من أوروبا فى ٥ إبريل ليشن حملة شعواء على هذه المفاوضات ويسخر من المشاركين فيها معلنا عبارته الشهيرة: ان جورج الخامس يفاوض جورج الخامس". وانفجرت مظاهرات دامية فى الإسكندرية احتجاجا على تعيين عدلى يكن ريئسا للوفد، وقد ظل عدلى ورجاله فى باريس يحاولون الوصول إلى حل مرض مع الإنجليز حتى نهاية العام، إلا أنهم باءوا بالفشل وأخيرا أعلن عدلى فشل مفاوضاته مع الإنجليز وقدم استقالته فقبلها السلطان أحمد فؤاد .

قبل وصول عدلى يكن إلى مصر توجهت هدى ومعها

نساء اللجنة إلى بيت سعد (بيت الأمة) كى يتوسطن لعدلى يكن لدى سعد، وطلبن منه أن يأمر رجاله بألا يقابلوه فى المحطة بالبيض والطماطم. لم يكتف سعد برفض الطلب بل اتهم النساء بقبول رشوة من عدلى وقال لهن :

"من هو ذا عدلى ؟ الأمة كلها معى"، فردت عليه مدام خياط: "إذا كان فى الأمة واحد يخالفك فى الرأى، فالأمة إذن ليست بالاجماع معك"، فغضب واحتد عليهن وعاد يقول: "لابد أنهم أعطوك رشوة". فقامت السيدات محتدات، وأرسلن إلى هدى، التى كانت فى صحبة صفية هانم، لكى تخرج.

وتذكر هدى شعراوى فى مذكراتها أن صفية هانم كانت على رأى سعد حتى أنها لما سمعت هدى ترجوه أن يقابل عدلى بمثل ما قابله من حفاوة يوم عودته للوطن، تدخلت وحرضته على رفض ذلك الطلب. وتصف هدى هذا الموقف الدرامى بأسلوبها الشيق:

"فتمهل قليلا كأنه لم يكن ينتظر منى مثل هذا الطلب، ثم قال: والله لو كان الأمر متعلقا بى شخصيا، لأجبت رغبته إرضاء لخاطرك، ولكن إن رضيت أنا، لا يرضى غيرى بذلك. فقالت له هدى: ومن الذى يخالفك فى الرأى إذا أردت شيئا ؟

فأسرعت صفية هانم وقالت له: والله يا سعد لو وضعت يدك فى يد عدلى، لن أكون لك زوجة بعد الذى فعله .

فقال لهدى: أسمعت يا سيدتى بأذنيك ؟"

استمر سعد على موقفه من عدلى وثروت، ووصل إلى حد اتهامهما بالخيانة، وانتهى الأمر بأن أصدرت سلطات الاحتلال قرارا بنفى سعد للمرة الثانية، وفى الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم الجمعة ٢٣ ديسمبر ١٩٢١م اقتحمت فصيلة من الجنود الإنجليز بيت الأمة، واعتقلت سعدا، لتنفذ القرار بنفيه إلى سيشل. وقد أدى هذا إلى

اتحاد صفوف الوطنيين من جديد، وزالت الخلافات، وكانت هدى توالى الاجتماعات فى بيتها وفى بيت سعد زغلول وتحرص على مواساة زوجته وتسعى لعمل كل ما يمكنها هى وعضوات اللجنة على إظهار اعتراضهن على قرار النفى ورفضهن لوجود الإنجليز فى مصر. ثم بدأت سيدات مصر بزعامة هدى شعراوى حملتهن الناجحة لتنفيذ قرار مقاطعة البضائع الإنجليزية، وإرسال خطابات الاحتجاج الشديدة لكل من تسول له نفسه التعاون مع الإنجليز أو مهادنتهم[(١)]. والاعتراض على وثيقتى إلغاء الحماية على مصر اللتين صدرتا فى أول مارس ١٩٢٢م لما يشوبهما من نقص.

وقد واصلت هدى ورفيقاتها متابعة الأحداث السياسية الجارية، والتعليق عليها وإبداء رأى نساء مصر فيها، وظلت تكتب بالفرنسية بيانات احتجاج إلى القناصل

---

(١) خطابها إلى عبد الخالق ثروت.

الأجانب تنشرها الصحف المصرية، وبالإنجليزية إلى اللورد اللنبى، ليبلغها إلى حكومته احتجاجا على إلقاء القبض على سعد ونفيه إلى سيشيل على الرغم من شيخوخته ومرضه.

وطوال هذه الفترة الخصبة من حياة هدى والمرأة المصرية ولم تتوقف عن مراسلة سعد فى منفاه للاطمئنان على صحته، وإيقافه على مجريات الأمور، وكذلك ارسال برقيات لزوجته فى مصر والخارج، وكانت تصلها من سعد خطابات الشكر والتشجيع. وعندما حل العيد أصدرت لجنة نساء الوفد المركزية إعلانا بقرارها عدم الاحتفال بالعيد بسبب إبعاد سعد، وبعد يومين اجتمع رجال الوفد وقرروا نفس الشىء فى نداء إلى الأمة أصدروه يوم وقفة عيد الفطر.

وفى نوفمبر ١٩٢٣م كانت هدى فى أوروبا وعادت على نفس الباخرة التى عاد عليها سعد من منفاه وقد

دارت بينهما حوارات وأحاديث أعربت فيها هدى عن احتجاجها على موافقة وزارة نسيم باشا على التفريط فى (حق مصر) فى السودان. ويبدو أن سعداً كان له رأى آخر فى هذه المسألة، وقد بدأت العلاقة منذ ذلك التاريخ تتحول إلى نوع من الصراع بين السيدة المصرية الثائرة التى لا تتنازل عن أى حق تراه من حقوق بلادها، وبين السياسى المحنك العجوز.

*******

# فى مفترق الطرق

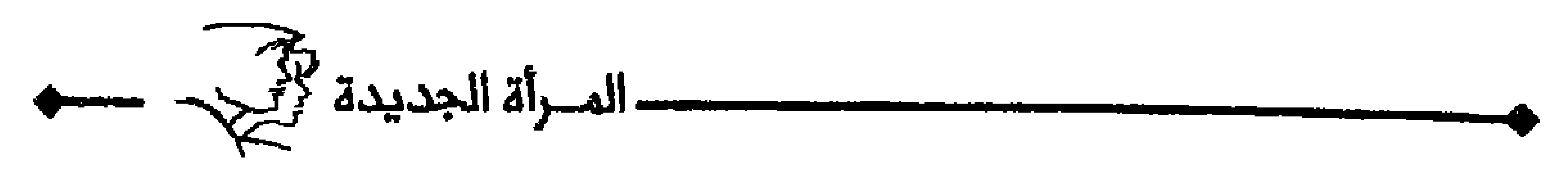
عـام ١٩٠١م توفيـت الملكـة فيكـتوريا ملكـة بريطانـيا العظمـى الـتى حكمـت بلادهـا مـنذ ١٨٣٧م ونصـبت نفسـها أمـبراطورة عـلى بريطانـيا والهـند مـنذ ١٨٧٧. ومـع وفاتهـا انتهـت حقـبة ثقافـية وسياسـية طويلـة، وبـدأ العـالم عصـرا جديدا يختلف كل الاختلاف عما سبقه. كان اقتحام المرأة لعـالم السياسـة أهم ملمح من ملامح التغيير الجذري الذى سيحول العـالم إلى كوكب مختلف. ففى عام ١٩٠٦ حصلت نساء فنلندا على حق الانتخاب وفـى عـام ١٩٠٧م تبعتهن نسـاء النرويج، الأمـر الذى حفـز النسـاء الإنجليزيات على تصعيد نضـالهن للحصـول عـلى الحقـوق السياسـية ووقعـت أحداث مـا سمى بيوم الجمعة الأسود عندما تظاهرت ٣٠٠ سـيدة مـن السـفرا جيـتس فـى ١٨ نوفمـبر ١٩١١م أمـام الـبرلمان الإنجليزى فى لـندن بـزعامة إميـلى بانكهيرسـت للمطالـبة بالحقوق السياسية للمرأة واشتبك معهن البوليس،

فقتلت سيدتان وأصيبت واعتقلت العشرات، وفى السجن أعلنت السيدات إضرابهن عن الطعام حتى الموت مالم يمنحن حق الانتخاب والترشيح. وتوالت الأحداث فأسست النساء الأمريكيات عصبة النساء المنتخبات League of Women Voters التى أسفر نشاطها عن تعديل المادة ١٩ من الدستور الأمريكى ومنح النساء حق التصويت فى ١٨ أغسطس ١٩٢٠م. وبعدها بعامين فقط تم انتخاب أول امرأة لعضوية الكونجرس الأمريكى (ريبيكا فلتون عن ولاية جورجيا).

أما فى مصر فقد كانت نبوية موسى أول فتاة تحصل على البكالوريا من منازلهم عام ١٩٠٧ (وقد ظلت لمدة ٢١ سنة الوحيدة) وقد تنبهت الحكومة المصرية إلى هذه "الجريمة" فأصدرت قرارا عام ١٩٠٩بتحريم أداء إمتحان البكالوريا على الفتاة المصرية ثم بتحريم حصولها على الإبتدائية !! ولم تستسلم النساء المصريات بالطبع بل استمرت معارضتهن لتلك القرارات المتعسفة التى ترينا إلى

أى مدى كانت الغفلة عن حقوق المرأة المصرية والتعنت فى حرمانها من أبسط حقوقها المشروعة. وفى عام ١٩٢٠م صدرت الطبعة الثانية من كتاب "النسائيات" للكاتبة الراحلة ملك حفنى ناصف عن المكتبة التجارية. وأصدرت نبوية موسى كتابها "المرأة والعمل".

وعلى الصعيد السياسى فقد توالت توابع الزلزال الذى انفجر فى تركيا ففى عام أول يناير ١٩٢٠م وجهت ضربة قاضية لأصحاب الطرابيش من أتباع الخلافة التركية بإلغاء أتاتورك السلطنة العثمانية، واعتمد البرلمان التركى الميثاق الوطنى الذى ينص على استقلال تركيا فى حدودها الوطنية، ثم إعلان الجمهورية التركية عام ١٩٢٣م، ومصطفى كمال أتاتورك رئيسا للجمهورية، وفى العام التالى تم إلغاء الخلافة التركية، ونفى السلطان العثمانى المخلوع عبد المجيد وكل الأسرة المالكة من تركيا، وتبع ذلك حل جمعيات الدراويش وإلغاء وظائف المفتى والإمام والملا وحظر ارتداء العمامة. ولا يكتفى أتاتورك



بكل ذلك بل يصدر قرارا فى ٢٨ أغسطس بحظر تعليم اللغة العربية فى المدارس التركية !

ويواصل المصريون محاولاتهم للظفر باستقلال بلادهم وإنهاء الاحتلال البريطانى لأراضيها فلا يظفرون إلا بما سمى تصريح ٢٨ فبراير بإنهاء الحماية على مصر مع التحفظات الأربعة. وبناء على هذا التصريح ينتهز الأمير أحمد فؤاد الفرصة فيعلن نفسه ملكا على البلاد فى ١٥ مارس. ويعود سعد زغلول من منفاه فى سيشيل فى ٢٩ مارس ويبدأ حركة نقد شديدة للاتفاق الذى أبرم بين الحكومة المصرية والبريطانية. وفى ٢٥ إبريل يعلن عبد الخالق ثروت رئيس الوزراء استقلال مصر. ويصدر قرار بتشكيل لجنة لوضع الدستور برئاسة حسين رشدى باشا ومن أعضائها عبد العزيز فهمى. إلا أن سعد الذى أصبح زعيما شعبيا يطلق عليها "لجنة الأشقياء".٣٠ وتنشق مجموعة من رجال الوفد على سعد ويعلنون فى أكتوبر تأسيس حزب الأحرار الدستوريين.

# ثورة شعب وشجاعة امرأة

تمر هذه الأيام اثنان وثمانون عاما على ثورة ١٩١٩م التى كانت بحق ثورة الشعب المصرى كله، رجالا ونساءا، مسلمين ومسيحيين، فقراء وأغنياء، شيوخ وشبان، حضر وريف .خرجوا جميعا إلى شوارع مصر من أقصى شمالها إلى أقصى الجنوب فى توقيت تاريخى لم يسبق له مثيل مقدمين أجسادهم وأرواحهم وممتلكاتهم فداء لمصر. ومثلما يحدث هذه الأيام لأشقائنا الفلسطينيين جن جنون سلطات الاحتلال وتخبطت قراراتهم ووصلوا فى مجابهة الثوار إلى ذروة الوحشية متخلين تماما عما كانوا يتشدقون به حول الديموقراطية والإنسانية والعدالة والتحضر..إلخ وقد سقط من الشهداء والمصابين فى كل محافظات مصر عدة آلاف فى أيام معدودة.

لعبت جداتنا وأمهاتنا دورا حاسما فى مسيرة تلك الثورة العظيمة، كما أحدثت الثورة تغيرا جوهريا فى

شخصية المرأة المصرية، وكانت أحداثها اللبنة الأولى فى صرح حريتها. خرجت نساء مصر لأول مرة فى التاريخ الحديث إلى الشارع السياسى، وشاركن فى صنع القرارات المصيرية صياغة وتصحيحا ومساندة واعلانا. فثورة نساء ١٩١٩م لم تكن مجرد تبعية للرجال، وإن بدأت بالدفاع عنهم والمطالبة بتحريرهم، ولم تكن دفاعا عن حق مصر فى الاستقلال فقط، وإن بذلن أقصى الجهد فى المطالبة به، وإنما كانت ثورة نساء مصر من أجل الإنسان المصرى فى حاضره ومستقبله. والمتأمل لمذكرات ومقالات وخطب زعيمة النساء هدى شعراوى لابد وأن يعجب باتساع رؤيتها وشمولها، وبإصرارها على أن تكون الثورة شاملة لكل مناحى الحياة وليست ثورة سياسية فقط. أما زعيم الثورة سعد زغلول فقد ركز كل جهوده على تحرير عنق مصر من قبضة الاحتلال البريطانى أولا وقبل كل شىء. من هنا اتسعت شقة الخلاف بين الزعيمين، ووصلا إلى مفترق الطرق ..

كان الخلاف الأكبر بين هدى وزعيم الأمة عام ١٩٢٣ م بعد أن ألقى الملك فؤاد خطاب العرش وأغفل الإشارة إلى حقوق المرأة فأرسلت إلى سعد بصفته رئيس مجلس النواب والشيوخ رسالة تنبهه فيها إلى ذلك وتحتج على عدم اعتراضه عليه. ويتولى سعد الوزارة فى مارس ١٩٢٤ م، وفى ١٩ ابريل يُعلن الدستور المصرى دون منح المرأة حقوقها السياسية. فرغم كل ما قدمته المرأة المصرية لمصر وللثورة ولحزب الوفد وزعيمه فقد صدر دستور الثورة غافلا حقوق المرأة المصرية فى الترشيح والانتخاب. وكان سعد زغلول قد أرسل إلى الأزهر ليسأله حول حقوق المرأة السياسية، وجاءت الفتوى من الأزهر الشريف فى ذلك الوقت، تقول إن المرأة يجب ألا تشارك فى السياسة ، لأن العمل السياسى سيجبرها على الخروج من بيتها وخروج المرأة المسلمة من بيتها حرام !! (استقلال المرأة المسلمة. الأستاذ جلال الغزالى حرب).

وتصل دعوة إلى كل من هدى شعراوى وسيزا نبراوى

ونبوية موسى لحضور المؤتمر النسائى الدولى فى روما، وبعد عودتهن إلى مصر يعلن تأسيس الاتحاد النسائى المصرى، ويصبح لنساء مصر حزبا مستقلا يعبر عن آراءهن دون التزام باتجاهات الأحزاب السياسية المختلفة وميول زعمائها. وتبدأ هدى شعراوى مرحلة من النقد القاسى لسعد توجهه إليه على صفحات الصحف المعارضة للوفد.

حدث الصدام الثانى بين الزعيم والزعيمة عندما ثارت مسألة السودان فى مجلس النواب وجاء رد سعد صدمة لهدى ولعدد كبير من الوطنيين فما كان منها إلا أن أرسلت بيانا إلى الصحف باسم الاتحاد النسائى هاجمت فيه سعدا على تراخيه فى مسألة السودان، وفى مسألة التعويضات والتضمينات، ولامته على أن وزارته لم تجر أية تعديلات على خطاب العرش وانتهى البيان بعبارة خطيرة وجهتها إلى رئيس الوزراء، وزعيم الأمة "فى هذه الحالة، يعلن الشعب المصرى الكريم رجالا ونساء انه لا يوجد خطر على القضية

المصرية أكبر من أن يتولى المفاوضات مع إنجلترا رجل يعترف علانية أمام هيئة رسمية نيابية بأنه عاجز عن تنفيذ ما عاهد به الأمة قبل وعند توليه الحكم .."[(1)]. ولم تتوقف هدى عن توجيه الخطابات شديدة اللهجة إلى سعد زغلول تنتقد قراراته وتعترض على قبوله الوزارة وتتهمه بمهادنة الإنجليز وخضوع وزارته لطلباتهم، وبأنه السبب وراء فصل السودان عن مصر، فتقول فى إحدى رسائلها إلى سعد: "تمسكت بك البلاد، وعهدت إليك بالحكم رجاء أن تفى بما وعدتها من تحقيق استقلالها التام فى مصر والسودان. وها أنت ترى أنه كلما طال العهد على ولايتك الحكم، كلما بعدت الأمة عن نيل هذه المطالب "ووصل الأمر إلى حد أن تطالبه بالاستقالة حتى استقال فعلا يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤م. وفى ٢٨ نوفمبر ١٩٢٤م دعت الزعيمة إلى مؤتمر نسائى كبير واجتمعت فيه سيدات مصر وأصدرن عريضة احتجاج على العديد من المواقف السياسية" "الرجعية" للوزارة السعدية

(١) ص٣٠١..

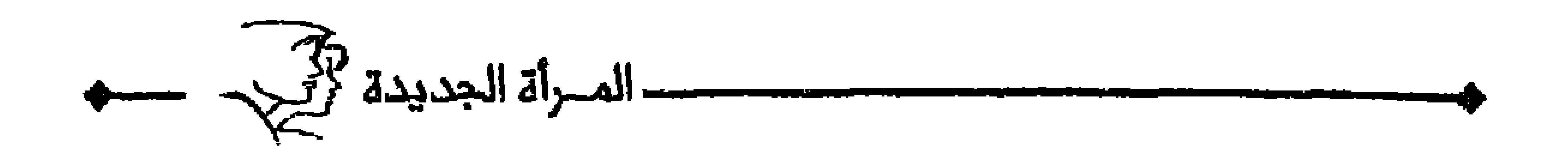
والوزارة التى تلتها (برئاسة أحمد زيوار)، وقررن بدء حملة لمقاطعة البضائع والمتاجر والمصارف البريطانية، وأعلن تأسيس اللجنة المركزية للمقاطعة؛ رئاستها فى القاهرة ولها فروع فى الأقاليم.

ثم عادت الزعيمة تنتقد تشبث الزعيم فى الرأى وتتهمه بعدم التعاون مع بقية الأحزاب (الوطنى والأحرار الدستوريين) وعدم تقديم برنامج لحزبه (السعديين) إلخ ... وكتبت تقول: "إننا لا ننقاد انقياد الأعمى لإنسان مهما كانت قيمته ومكانته بين الأمة - وإنما ننقاد للمبادىء الحقة".

وقد تسبب موقف هدى الحاد من الزعيم إلى انشقاق فى صفوف الاتحاد النسائى اللاتى لم يقبلن الخروج عن إجماع الأمه والتفافها حول الزعيم سعد باشا، واستقالت حرم رياض باشا ثم عهد إليها الوفد بتأسيس لجنة جديدة للسيدات برئاستها. وساهمت سياسة وزارة أحمد زيوار

المؤيدة للسراى والإنجليز فى قمع الاجتماعات ومنع المظاهرات وفرض الرقابة على الصحف ومصادرتها وحبس الوطنيين وتعقبهم فى عرقلة نشاط هدى شعراوى السياسى إلا أنها لم تتوقف عن النشاط الاجتماعى وركزت على المطالب الاجتماعية للمرأة المصرية.

******



# هدى.. والمشاركة السياسية

إن اشتراك النساء المصريات فى الحركة الوطنية وكل تلك الأحداث نبهت العالم الخارجى إلى المرأة المصرية ونشاطها ونضوج الأمة المصرية وكفائتها لحكم نفسها بنفسها، الأمر الذى حفز الاتحاد لنسائى الدولى على إرسال دعوة لهن لحضور المؤتمر الذى يعقد فى روما، وهنا فكرت هدى شعراوى فى تأسيس جمعية باسم الاتحاد النسائى المصرى. وفى ١٦ مارس ١٩٢٣م وجهت الدعوة إلى بعض السيدات للاجتماع بمنزلها لانتخاب لجنة تمثل نساء مصر فى المؤتمر. وقد انتدبت الجمعية هدى شعراوى ونبوية موسى وسيزا نبراوى، وكانت هذه هى أول مرة يرتفع فيها صوت المرأة المصرية فى الخارج. وقد جاء فى القانون الأساسى للإتحاد المادة الثانية: أن أغراض الجمعية هى رفع مستوى المرأة الأدبى والاجتماعى للوصول بها إلى حد يجعلها أهلا للأشتراك مع الرجل فى جميع

الحقوق والواجبات. المادة الثالثة: تسعى الجمعية بكل الوسائل المشروعة لتنال المرأة المصرية حقوقها السياسية والاجتماعية.

وفى المؤتمر بروما أحدث الوفد "تأثيرا كبيرا ولقى ترجيبا عظيما؛ لأنه ظهر أمامهن بمظهر أرقى مما كن ينتظرن، فصرن يسألننا فى فضول والحاح إن كنا حقا مصريات وكلما أكدنا لهن ذلك شاهدنا علامات الدهشة على وجوههن كأنما كانت المرأة المصرية المحجبة مطبوعة فى مخيلتهن بطابع الجهل والهمجية".

وفى خطابها الذى وجهته للاتحاد العالمى يظهر بجلاء تأثر هدى بكتابات قاسم أمين فهى تهاجم النقاب وتعتبره "من أكبر العوامل التى أدت إلى بقاء المرأة فى درجة من العلم لا متأخر عنها ولا متقدم"، وتنتقد تعدد الزوجات فهو ليس سوى عادة كانت منتشرة عند قبائل العرب قبل الإسلام ويمكن الغاؤه بقانون، فهى عادة "توجد

الشقاق فى الأسر وتولد البغضاء بين الإخوة والأخوات من أمهات مختلفة "وتذكر الآية القرآنية: وان خفتم ألا تعدلوا فواحدة" "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم" أما عن مشاركة المرأة فى الحياة العامة فلا عائق دونه سوى جهل المرأة "ولكن بما أن القوانين لا تشتمل على أى تقييد يعلق بكفاءتها فسيكون فى وسعها متى ما شاءت أن تطمح إلى الوظائف العمومية وجميع المهن التى يحترفها الرجال والاشتراك فى كافة الجمعيات"[1]. ولم يكن الأمر بتلك البساطة التى صورتها هدى لنساء العالم وإنما كان على المرأة المصرية أن تكافح لمدة ربع قرن بعد ذلك لكى تحقق هذا الأمل.

ويبدو أن تواجد السيدات المصريات وسط ذلك الجمع الحاشد من نساء العالم المتقدم حفزتهن على كتابة برنامج للجمعية، لم تذكره هدى قبل خطبتها للاتحاد النسائى وقد

(١) ص..٢٥٧.

تضمن هذا البرنامج المطالبة برفع الظلم الذى يقع على المرأة من تعدد الزيجات الذى لا مبرر له، ومن حق الرجل المطلق فى الطلاق (الشفاهى دون الرجوع إلى تحكيم) ورفع سن الزواج للبنت إلى ١٦ سنة.

اندمجت جمعية الاتحاد لنسائى فى الاتحاد لنسائى الدولى على أساس المطالبة بحقوق المرأة السياسية والمدنية لتخويلها حق الانتخاب. عادت السيدات من روما فى مارس وأعلن الدستور المصرى (دستور ثورة ١٩١٩) فى ١٩ إبريل ١٩٢٣م وكان خاليا من حق المرأة السياسى وكان على هدى شعراوى أن تدافع عن موقفها هى ورفيقاتها "إن مطالبة المرأة بحقها السياسى ليس معناه التدخل فى الأمور السياسية والحزبية المحضة (!!) بل للحصول على حقها فى التشريع والتنفيذ حتى يمكنها المساهمة فى علاج الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وبخاصة ما كان منها متصلا بشئون المرأة والطفل وكان شعورها من الوسائل

اللازمة للحصول على هذا الحق لا حبا فى السفور أو وسيلة للتبرج ولاسيما إلى مزاحمة الرجل كما اتهمت بذلك زورا وبهتانا".

وفى ٢ يوليو ١٩٢٣ التقى وفد من الجمعية برئيس الوزراء ،يحى إبراهيم باشا، ولم تكن هدى شعراوى من بينهن، بل حملت زميلاتها رسالة منها إليه طالبت فيه: بحق المرأة المصرية فى نيل الشهادات الدراسية الثانوية والعالية، ومنع زواج الفتيات قبل وصولهن لسن السادسة عشرة.

ولما لم تجد السيدات صدى لرغباتهن عادت هدى فخاطبت رئيس الوزراء فى ٢٣ نوفمبر ١٩٢٣م تبدى دهشتها من تحويل المطلبين إلى البرلمان ليبت فيهما. وعندما قدمن طلبا لحضور حفل افتتاح البرلمان لم يقبل طلبهن فى الوقت الذى دعيت فيه سيدات أجنبيات لحضور ذلك الحفل، فأصدرن بيان احتجاج على ذلك. وبعد

أسبوعين وجهن بيانا آخر لمجلس الشيوخ والنواب بمناسبة خطاب العرش يطالبن فيه بتعديل الدستور وإصلاح قوانين الصحافة وتقوية الجيش المصرى دون ذكر أية مطالبات نسائية.

ويبدو أن سفر السيدات المصريات إلى روما (دون محارم) وتحدثهن فى مؤتمر دولى عن تعدد الزوجات والطلاق .. إلخ قد أثار حفيظة بعض الرجال فراحو يهاجموهن فى الصحف (عبد العزيز جاويش بجريدة الأخبار) مما جعل هدى ترد عليهم[1].

وكانت هدى تحدد مطالبها بكل وضوح وتنشرها فى كتيب أرسلته إلى رئيس مجلس الشورى ورئيس مجلس النواب وإلى الصحافة والرأى العام[2]. ومن أهم المطالب

(١) أنظر خطابها إلى شيخ الأزهر بخصوص منع المسكرات كتاب "هدى شعراوى" ص ..٢٦٨.

(٢) المرجع السابق مطالب المرأة ٣٢٧.

السياسية التى طالبت بها إلغاء الحماية البريطانية على مصر والاستقلال التام لمصر والسودان والتمسك بحياد قناة السويس وإلغاء الامتيازات الأجنبية، وكذلك عدم تحميل الخزانة المصرية قسما من ديون تركيا القديمة، فان سيادة تركيا على مصر زالت وليس لها عليها أى حقوق وهكذا تكشف عن روح الاستقلال التى سادت مصر وايقظتها من سبات طويل دام لعدة قرون تحت مظلة الهيمنة العثمانية. ولم تكن تلك كل مطالبها بل طالبت بتعديل الدستور المصرى ووضعت أربعة عشر مطلبا اجتماعيا تكمل بها مسيرة قاسم أمين، وملك حفنى ناصف فى الإصلاح الاجتماعى، وفى "القسم النسوى" حددت مطالبها بالنسبة لحقوق المرأة المهضومة: وهى حق التعلم بلا حدود والحقوق السياسية "ولو بقيود" كاشتراط التعليم أو دفعها نصابا معينا على مالها. ولا يكون من الإنصاف الاعتراض على إشراك هذه الطبقة من النساء لا

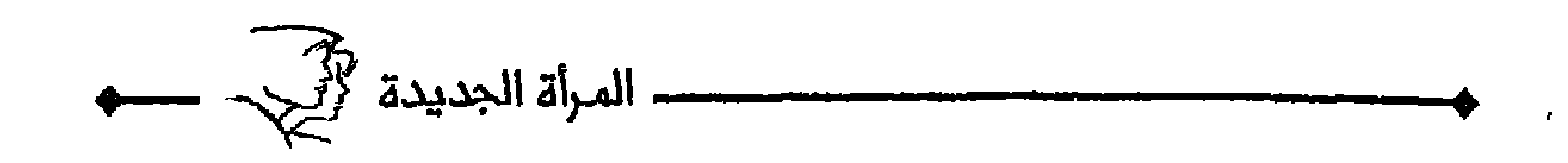
سيما وقانون الانتخاب يجعل للرجل الأمى والخالى من الملك حقا فى أن ينتخب وينتخب. "منع تعدد الزوجات" إلا لضرورة، تقييد الطلاق فلا يتم إلا أمام القاضى الشرعى وبعد التحكيم. وفى إبريل ١٩٢٦م أضافت ثلاثة طلبات، أخرى هى: إصلاح القوانين الخاصة بما يسمى بيت الطاعة، الذى وصفته بأنه أخطر من دور السجن المعدة لإيواء الأشقياء والمحكوم عليهم بارتكاب الجرائم والمنكرات. وحق الأم فى حضانة أولادها، وإلغاء منشور سنة ١٩٢٤م المعطل لقانون تحديد سن الزواج (ويقر بشهادة الأبوين أن ابنتهما قد بلغت السادسة عشرة دون تقديم شهادة ميلاد أو طبية تفيد ذلك).

لقد تنبهت هدى إلى أن المشاركة السياسية للمرأة لن تتم قبل أن تحوز هى على حريتها "وتنظم شأنها فى العائلة ومركزها فى المجتمع". وأن انشغالها بالعمل السياسى لا يجب أن يلهيها عن المطالبة بحقوقها حتى وإن

اضطرت لأن تترك الأمور السياسية مؤقتا، خاصة بعد أن صدمت فى موقف الرجال منها عند إصدار الدستور. وعندما حضرت مؤتمر الاتحاد النسائى الدول فى مارسيليا (١٨-٢٠ مارس ٣٣) الذى كان يركز على حق المرأة فى الانتخاب قررت أن هذا الموضوع سابق لأوانه بالنسبة لمصر حيث النظام البرلمانى لم يستقر استقرارا تاما وركز الوفد المصرة على موضوع مقاومة الرقيق الأبيض، وكانت حريصة كل الحرص على ألا تتعدى على قواعد الشريعة الإسلامية أو تخرج عنها وعندما أرسل لها الكاتب سلامة موسى أن تطالب وزارة الحقانية بسن قانون يساوى بين المرأة والرجل فى الميراث رفضت الخوض فى تلك المسألة معلنة فى مقال نشرته بجريدة السياسة "ولا أظن أن النهضة النسوية فى هذه البلاد لتأثرها بالحركة النسوية بأوروبا يجب أن تتبعها فى كل مظهر من مظاهرها. وذلك لأن لكل بلد تشريعه وتقاليده وليس كل ما يصلح فى بعضها

يصلح فى البعض الآخر" ، ثم دافعت عن ذلك التشريع "فبينما الشرقية غير المتساوية بالرجل فى حق الميراث تتمتع بكافة أنواع الاستقلال فى إدارة أعمالها وأموالها، نجد الغربية المساوية لأخيها فى الميراث محرومة من هذه النعم، إذ لا يمكنها أن تنفق أى مبلغ من مالها، ولا أن تحترف أى حرفة دون تصديق زوجها وموافقته".

******




اعتدت منذ بداية كتابتى لهذا الباب أن ألتزم بعنوانه "حتى لا ننسى" فأنعش ذاكرة قرائى بمواقف وأحداث وشخصيات من تاريخنا قد يفيدنا مراجعتها وتأملها على فك طلاسم الأحداث الجارية ومواجهتها، فالتاريخ كثيرا ما يعيد نفسه.

ولذلك قيل إن شعبا بلا ذاكرة، هو شعب بلا مستقبل، وقد حرصت دوما على تركيز الضوء على مسيرة المرأة المصرية والأدوار التى لعبتها فى تاريخنا المعاصر والتى كثيراً ما يتجاوزها المؤرخون، أو يستهينون بمدلولاتها ويتجاهلون عواقبها وتأثيرها على الأجيال اللاحقة.

والمثير للدهشة أن ما يعانيه الشعب الفلسطينى الشقيق من شراسة الاحتلال الإسرائيلى ووحشية الجيش الإسرائيلى وغطرسة الحكومة الإسرائيلية، يكاد يكون

صورة طبق الأصل لما عاناه الشعب المصرى ابان ثورته على الاحتلال البريطاني التى اندلعت فى مارس ١٩١٩م بل إن ما يعانيه الرئيسى الفلسطينى ياسر عرفات من أسر وتعنت وتحكم من حكومة المدعو شارون، يذكرنا بما عاناه زعيم ثورة ١٩ سعد باشا زغلول على يد سلطات الاحتلال البريطانى، واللورد اللنبى المعتمد البريطانى فى ذلك الوقت، ففى يوم ٨ مارس ١٩١٩م صدر قرار من الحكومة البريطانية بنفى سعد باشا وزملائه إلى جزيرة مالطة، بدون أن توجه إليهم أى تهمة أو تحاكمهم، وما إن سرى الخبر بين الشعب المصرى حتى هب جميع المصريين ثائرين، واضربوا عن العمل بدءا من عمال الترام ثم الحوذية وأصحاب المحلات وقام طلاب المدارس والجامعة والأزهر بمظاهرات فى كل أنحاء مصر.

طاش صواب المحتل البريطانى فصوب نيران سياراته المدرعة على الحشود الثائرة بجوار المسجد الحسينى، كما تصف هدى شعراوى فى مذكراتها فقتلت منهم بضعة عشر

وجرحت خلقا كثيرين، لم يكونوا فى مظاهرة ولكنهم كانوا خارجين من المسجد بعد أداء الصلاة، وبعد أن تعددت الأهوال التى لقيها المصريون، تصف رد فعل المرأة المصرية تجاه الأحداث الجارية فتقول وقد بقينا بعد ذلك نتتبع أخبار الوفد ونؤازره، ونُذكى نار الغيرة فى قلوب الرجال والنساء، ونواسى أهل المصابين برصاص الإنجليز ونزور الجرحى قدر استطاعنا ونمد يد المساعدة للفقراء والمعوزين وحاولنا أن نحصل علىٍ أسماء الجرحى والقتلى، فحصلنا على أسماء كثيرة جدا، من هذه الأسماء نذكر: السيدة شفيقة بنت محمد والسيدة عائشة بنت عمر والسيدة فهيمة رياض والسيدة حميدة بنت خليل والسيدة نجيبة السيد إسماعيل، هذا بخلاف كثير من السيدات اللاتى أصبن بجراح من رصاص الإنجليز داخل بيوتهن وخارجها.

لم تقبل نساء مصر أن يتخلفن عن الواجب الوطنى فكان خروج هدى شعراوى على رأس مجموعة من النساء

في مسيرة سلمية صبيحة يوم ٢٠ مارس ١٩١٩م احتجاجا علـى نفـى سعد باشـا ورفاقـه، وقـد بلغـت شـجاعة هـدى شعراوى ورفيقاتها فـى ذلـك اليوم إلى حـد أن كتـب فـيهن الشاعر الكبير حافظ إبراهيم قصيدة مدح رائعة.

وفـى المرة الثانية التى تم فيها حصار بيت سعد ونفيه إلى جزيـرة سيشـل أواخر عـام ١٩٢١ ومنـها إلـى جبل طارق كتبـت هـدى شـعراوى احـتجاجا شـديد الـلهجة إلى الـنورد اللنبى فى ١٧ يونيو ١٩٢١ قالت فيه:

"والآن وقد ظهر تقرير رسمى بأن سعد باشا مريض، وأن جماعـة مـن خيار الإنجليز قد طـالـبوا بـاطلاق سـراح هـذا المـنفى العظـيم فهـا نحـن أولاء سـيدات مصـر نـنتظر بفارغ الصبر جواب الحكومة البريطانية.

أتـراها ستفهم أن شـرفها ومصـلحتها يحـتمان علـيها اطـلاق سـراحه فـورا، أم تـراها ستضـيف إلى جـنايات ارتكبت غلطة لا تمحى على مر الدهور؟

أتـراهـا سـتجدد فيـنا روح الـثقة وتخلـق فيـنا شـعور الصـداقة أم تـراهـا تفضـل اسـتفزاز قضـيتنا وإثـارة الحقـد والكراهـية فـى صـدورنا؟" ولما لم تجـد هـذه الصـيغة المتعقلة أذانا مصغية من اللورد المتغطرس، أرسلت إليه احتجاجا آخر فى ٢٥ ديسمبر ١٩٢١ قالت فيه:

"إذا كنت يا صاحب الفخامة تعتقد فى نفسك القدرة على خنق صوت الأمـة المصرية بأبعـاد الرجل الذى عهدت إليه بأن يتكلم باسمهـا فـأرجع عن هذا الاعتقاد أيضا، إذ أن القـوة تغنـى والحـق يبقـى "ثـم أضـافت" وسـوف نواصـل احتجاجنا بـلا انقطـاع علـى التدابير الجائـرة الظالمة التى تتخذها فخامتك ضدنا، وهى تدابير لن تؤدى إلا إلى إثارة غضب الشعب وغضب الله".

ولم يكن ذلـك إلا حلقـة فـى سلسلة احتجاجات كانت تبعث بها إلى المعتمد البريطانى وإلى رئيس الوزراء وإلى سعد باشا فـى كل مناسبة تختلف فيها الآراء وتستوجب

التعبير عن موقفها الواضح الصريح، وما كانت الخطابات المتبادلة بينها وبين سعد زغلول، فى الوقت الذى كان الشعب المصرى يكاد يرفعه إلى مرتبة القديسين، إلا دليلا على احترامه العميق لمكانتها وأيضا على ليبراليته وسعة صدره للرأى الآخر.

******

# زعيمة النهضة الوطنية

من الظلم الفادح لنساء مصر اللاتى شاركن فى كل مراحل النضال الوطنى بدءا من ثورات القاهرة على الغزو الفرنسى فى بداية القرن التاسع عشر، إلى ثورة ١٩١٩ مرورا بثورة أحمد عرابى عام ١٨٨١ أن يقال عنهن إن ٩٩٪ منهن كن لا يعرفن لأنفسهن عملا غير الأمومة وبناء الأسرة وكن الهادئات السعيدات بذلك لقد سبقتنا جداتنا العزيزات وفعلن ما لم نعد اليوم قادرات على فعله وما شهد به كل مؤرخى ثورة ١٩١٩م، وكلهم رجال[1].

فهل كان تهورا من هدى هانم ومن نساء مصر أن يعلن وسط "معمعة التحرير" المقاطعة العامة لكل ما هو إنجليزى من بضائع وأشخاص سواء كانوا تجارا أو موظفين أو أطباء أو صيادلة، وعدم معاملتهم قطعيا!! لم تكتف هدى ونساء لجنة الوفد المركزية بمجرد التهديد

(١) ردا على خطاب من قارئ.

وإنما نفذن قرارهن بكل حزم وشكلن لجانا فى كل مدينة ومحافظة ووزعن كشفا بأسماء المحلات المصرية الوطنية، ثم أعلن عدم الاحتفال بالعيد حزنا على غياب زعماء مصر وحدادا على الشهداء الذين سقطوا أثناء الثورة ومن بينهم العديد من النساء والأطفال.

لقد لعبت السيدة هدى شعراوى أدوارا فذة على الصعيد السياسى، وكانت لبياناتها ومقالاتها ومواقفها أصداء تتردد داخل مصر وخارجها، لذا كان من الطبيعى بعد أن خرجت نساء مصر إلى الساحة السياسية عمليا وفعليا، ولقين كل تشجيع من رجال الأحزاب والحكومة، أن يتوقعن حصولهن على الحقوق السياسية فى دستور ١٩٢٣م دستور الثورة، كذلك كان لهدى شعراوى دور رائد فى الأعمال الخيرية وفى تشجيع حركة الفنون التشكيلية وفى جمع التبرعات لبناء أول جامعة أهلية مصرية وفى تأسيس بنك مصر وغير ذلك مما حدا بصحافة ذلك العصر، وكل الشخصيات العامة على منحها لقب زعيمة النهضة

النسائية بلا منازع، ونجد تلك الصفة تنسب إليها فى كل ما كتب عنها أثناء حياتها أو بعد وفاتها، وهناك عشرات الأمثلة على ذلك نورد منها على سبيل المثال وليس الحصر: الخبر الذى أذاعته الإذاعة المصرية يوم ١٢ ديسمبر لتعلن خبر وفاتها، ثم نشرته جريدة الأهرام فى صفحتها الأولى فى اليوم التالى تنعى فيه الفقيدة إلى الأمة العربية.

"انتقلت إلى رحمة الله أمس المغفور لها صاحبة العصمة السيدة الجليلة هدى هانم شعراوى زعيمة النهضة النسائية ورئيسة الاتحاد النسائى العربى، ووكيلة الاتحاد النسائى الدولى" وأثناء جنازتها ارتجل الشاعر نجيب هواوينى أبياتا فى رثائها قال فيها:

| | |
|---|---|
| زعيمة لنساء الشرق قد رحلت | فأضرمت فى قلوب الشرق نيرانا |
| وا حسرتاه فقدنا خير سيدة كانت | لأبناء هذا الجيل معوانا |
| تجود بالمال للخيرات عن سعة | كيما تخفف آلاما وأحزانا |
| شرقا وغربا تجوب الأرض جاهدة | ترد عن مصر والجيران عدوانا |

سيرى إلى الله يا ذات الكمال      فقد أسديت للبر ما يوليك إحسانا

وظل قبرك تهمى فوقه سحب      من جود ربك غفرانا ورضوانا

واشتركت فى نعيها كل الصحف العربية فنشرت جريدة "البلد" فى دمشق فى ١٤ ديسمبر ١٩٤٧ مقالا تحت عنوان "ماتت هدى شعراوى زعيمة النهضة النسوية فى الشرق العربى" جاء فيه "نعت أنباء القاهرة فى ساعة مبكرة من هذا الصباح صاحبة العصمة السيدة الجليلة هدى هانم شعراوى رئيسة الاتحاد النسائى المصرى، وزعيمة النهضة النسوية فى الشرق العربى".

ونشرت جريدة فلسطين بتاريخ ١٤ ديسمبر سنة ١٩٤٧م خبرا من القدس جاء فيه "كان لوفاة زعيمة النهضة النسائية المغفور لها هدى هانم شعراوى رئيسة الاتحادات النسوية رنة حزن وأسى عميقين لدى مختلف الأوساط النسائية والوطنية وأن فقدها ليعتبر خسارة فادحة فى هذا الوقت الذى نحن أحوج ما نكون فيه

لنضالها المبرور، فالشعب فى فلسطين لا ينسى لها تضحياتها الكبيرة فى سبيل قضيته" ومن يافا أبرقت جمعية السيدات العربيات بيافا إلى عائلة هدى شعراوى "فاجعة أليمة، ومصيبة فادحة وخسارة لا تعوض، فقد والدتنا وزعيمتنا المحبوبة أدمى قلوبنا حسرة". والمجال لن يتسع لأمثلة لا حصر لها.

إننى أهدى سيرة هدى شعراوى إلى فتيات الجيل الحالى لكى تكون قدوة لهن ومثالا يحتذى فهى نموذج مشرف وأفضل ممثلة لجهاد المرأة المصرية التى ترفع رأس الكرامة والعزة وتأبى الضيم وتقاوم بكل قوة الاستسلام لمحاولات قوى التخلف الفكرى الساعية بلا كلل إلى وأد المرأة معنوياً وفكرياً وإلى تشويه وجه الإسلام الحنيف. لقد استحقت هدى شعراوى أن تذكر فى كتابات العديد من المؤرخين والكتاب ومؤخرا نشرت عربية من سوريا هى الدكتورة جورجيت عطية الأستاذة بجامعة السوربون

بباريس، أعمالها بالإضافة إلى دراسة قيمة. فى مجلدين تحت عنوان "هدى شعراوى..الزمن والريادة".

وفى النهاية لابد من أن يتساءل المرء: ما هى المؤثرات الثقافية والاجتماعية التى شكلت أفكار وأعمال زعيمة المرأة هدى شعراوى؟ وهل تأثرت بكتابات قاسم أمين؟ سؤال لابد أن يخطر ببال كل من يتابع قصة كفاح هذه السيدة التى قامت بجهود لم تسبقها إليها امرأة أخرى فى كل البلاد العربية. تقول هدى عن محرر المرأة قاسم أمين: إن "كتابه نبه الأذهان إلى وجوب خلق نهضة عامة من خلال تثقيف المرأة وتحريرها، وكان كتابه الجرئ بمثابة الحجر الأول فى بناء أساس تلك النهضة التى قابلها الرأى العام بعاصفة شديدة من الاستنكار والمقاومة. ولو أن تلك العواصف قد أثرت فى قاسم وهزته، إلا أنها لم تستطع أن تنال من رسالة الحق التى أداها فى جرأة وشجاعة .. وكم سمعنا فى ذلك الوقت السيدات أنفسهن يستنكرن تصريحات قاسم أمين ومبادئه رغم أنها

كانت فى صالحهن، لأنها كانت تظهرهن فى الثوب الحقيقى من عدم الكفاءة، وكان ذلك يجرح كبرياءهن، فكن بذلك يذكرننى بالجوارى عندما تُعطى لهن ورقة العتق من الرق، إذ كن يبكين على حياة العبودية والأسر.."[1].

وهكذا يظهر بجلاء أن هدى شعراوى كانت تلميذة نجيبة فى مدرسة قاسم أمين، كما أنها كانت تعجب بشخصية وآراء تلميذته الأخرى ملك حفنى ناصف، وسبق أن اعترفت فى مذكراتها بأنها قررت أن تسير على نفس الدرب، بينما كانت تشيعها إلى مثواها الأخير ..

لقد امتدت ريادة هدى شعراوى إلى ميادين عدة، كانت امتدادا ونتاجا لصحوة المرأة المصرية وإصرارها على المشاركة فى بناء المجتمع المصرى الحديث، كانت تقوم بها جميعا فى نفس الوقت بلا كلل لا تثنيها عراقيل ولا تعوقها معوقات؛ فنجدها تقوم بإنشاء دار التعاون الإصلاحى فى

(١) مذكرات هدى شعراوى.

نوفمبر ١٩٢٣م بالبغالة. "لتدريب الأمهات على المسائل الأولية المنزلية وتعليمها مبادىء القراءة والكتابة والحساب وبعض الصنائع اليدوية" ولكن هذا الهدف النبيل لم ينجح وتحولت الدار إلى مستوصف خيرى تبرع الأطباء بالعلاج فيه مجانا وإدارته لفترة طويلة سيدة يابانية متزوجة من مصرى. وتشارك فى جمع التبرعات لبناء أول جامعة أهلية مدنية فى مصر[1]. وفى أكتوبر ١٩٢٤ تؤسس مع رفيقاتها لجنة النساء لمقاطعة البضائع الإنجليزية، ولم تكن المقاطعة التى دعت إليها اقتصادية فقط بل كانت سياسية أيضا، فترى اللجنة قد أصدرت فى أحد اجتماعاتها قرارا "بمشاركة الأمة فى عدم الاعتراف بأى وزارة تشكل قبل سحب مشروع كيرزون واللورد اللنبى وعودة الزعماء المنفيين من منفاهم وإلغاء الأحكام العرفية والحماية الباطلة التى أعلنت على مصر سنة ١٩١٤م"، ونراها فى معرض الربيع للفنون التشكيلية الذى أقامته الجمعية المصرية للفنون برعاية هدى شعراوى وافتتحه سعد زغلول باشا تقتنى كل المعروضات

(١) المرجع السابق : الجامعة المصرية.

تشجيعا للفنانين[1]. وعندما ترتفع نبرة المطالبة بتوحد الأحزاب فى حزب واحد ينظم صفوف المصريين ليواجهوا خصمهم العنيد، الإنجليز، تذهب هدى للقاء سعد فى بيته بعد طول جفاء وترجوه أن يتنازل عن كبريائه ويتحد مع خصومه.

وقد لا يعرف الكثيرون الدور الفعال الذى قامت به هدى شعراوى فى تأسيس بنك مصر امتدادا لسياسة المقاطعة التى نادت بها فى العشرينات. كانت تعرف طلعت حرب جيدا فقد كان وكيل دائرة شقيقها عمر باشا سلطان، ووقفت إلى جانبه فاكتتبت فى البنك بـ ٢٥٠ سهما من سهام البنك لكى تكون قدوة للسيدات، ثم راحت تزور السيدات المصريات الثريات فى بيوتهن وتدعوهن لشراء أسهم البنك، وقد توجست السيدات فى مبدأ الأمر من نجاح بنك مصرى ينافس البنوك الغربية فلم تشتر صفية زغلول سوى عشرة أسهم، واشترت الأميرة عائشة فهمى، واسعة الثراء، سهما واحدا !ويقال أن طلعت حرب عبر عن امتنانه بموقفها

(١) هدى شعراوى الذكرى المئوية ٨٢.

الرائع بأن عرض عليها أن تكون عضوا بمجلس إدارة البنك وبمرتب مدى الحياة ، ولكنها اعتذرت لمشاغلها الكثيرة.

إن الأجيال التى تعاقبت بعد هدى شعراوى، لتدين بالفضل لتلك الرائدة العظيمة التى غيرت شكل الحياة فى مصر وفتحت الباب على مصراعيه لملايين النساء المصريات لكى ينطلقن إلى ساحة الحياة الرحيبة ويصبحن مدرسات وصحفيات وطبيبات ومهندسات وعالمات ذرة وسفيرات ووزيرات وإعلاميات .. إلخ ويشاركن فى مجالس الشعب ويترأسن اللجان والشركات والإدارات والمعاهد العليا والجامعات ..

وكما رأينا كانت هدى هانم شعراوى خطوة على طريق طويل بدأ منذ منتصف القرن التاسع عشر ولم ينته بعد.. طريق الحرية الكاملة لكل نساء العالم ..

*******

# ملحق (١)

## الوزارات الإنجليزية منذ الاحتلال حتى اليوم:

- ❖ ١٨٧٤- ١٨٨٠ وزارة دزرائيلى (محافظين)
- ❖ ١٨٨٠- ١٨٨٥ وزارة جلادستون الثانية (أحرار)
- ❖ ١٨٨٥- ١٨٨٦ وزارة سالسبورى (محافظين )
- ❖ ١٨٨٦ وزارة جلادستون الثالثة (أحرار)
- ❖ ١٨٨٦- ١٨٩٢ وزارة سالسبورى الاتحادية (محافظين و أحرار)
- ❖ ١٨٩٢- ١٨٩٤ وزارة جلادستون الرابعة (أحرار)
- ❖ ١٨٩٤- ١٨٩٥ وزارة روزبيرى (أحرار)
- ❖ ١٨٩٥- ١٩٠٢ وزارة سالسبورى ( اتحادية )
- ❖ ١٩٠٢- ١٩٠٥ وزارة بالفور (اتحادية )
- ❖ ١٩٠٥- ١٩٠٨ وزارة كامبل -بانرمان (أحرار)

- ❖ ١٩٠٨- ١٩١٥ وزارة أسكويث (أحرار)
- ❖ ١٩١٥- ١٩١٦ وزارة أسكويث ( ائتلافية )
- ❖ ١٩١٦- ١٩٢٢ وزارة لويد جورج ( ائتلافية )
- ❖ ١٩٢٢- ١٩٢٣ أندرو بونار (محافظون)
- ❖ ١٩٢٣- ١٩٢٤ ستانلى بالدوين (محافظون)
- ❖ ١٩٢٤ جيمس رامزى ماكدونالد( عمال)
- ❖ ١٩٢٤- ١٩٢٩ ستانلى بالدوين(محافظون )
- ❖ ١٩٢٩- ١٩٣١ جيمس رامزى ماكدونالد ( عمال)
- ❖ ١٩٣١- ١٩٣٥ جيمس رامزى ماكدونالد ( عمال )
- ❖ ١٩٣٥- ١٩٣٧ ستانلى بالدوين ( ائتلافية )
- ❖ ١٩٣٧- ١٩٤٠ نيفيل تشيمبرلين (ائتلافية )
- ❖ ١٩٤٠- ١٩٤٥ ونستون تشيرشل ( ائتلافية ) .
- ❖ ١٩٤٥ ونستون تشيرشل ( ائتلافية )

- ❖ ١٩٤٥- ١٩٥١ كليمنت آتلى ( عمال )
- ❖ ١٩٥١- ١٩٥٥ سير ونستون تشيرشل (محافظون )
- ❖ ١٩٥٥- ١٩٥٧ سير أنتونى إيدن (محافظون)
- ❖ ١٩٥٧- ١٩٦٣ هارولد ماكميلان (محافظون)
- ❖ ١٩٦٣- ١٩٦٤ سير أليك دوجلاس هوم (محافظون)
- ❖ ١٩٦٤- ١٩٧٠ هارولد ويلسون ( عمال )
- ❖ ١٩٧٠- ١٩٧٤ إدوارد هيث (محافظون)
- ❖ ١٩٧٤- ١٩٧٦ هارولد ويلسون (عمال)
- ❖ ١٩٧٦- ١٩٧٩ جيمس كالاجان ( عمال)
- ❖ ١٩٧٩- ١٩٩٠ مارجريت ثاتشر(محافظون)
- ❖ ١٩٩٠- ١٩٩٧ جون ميجور(محافظون)
- ❖ ١٩٩٧ تونى بلير ( عمال)

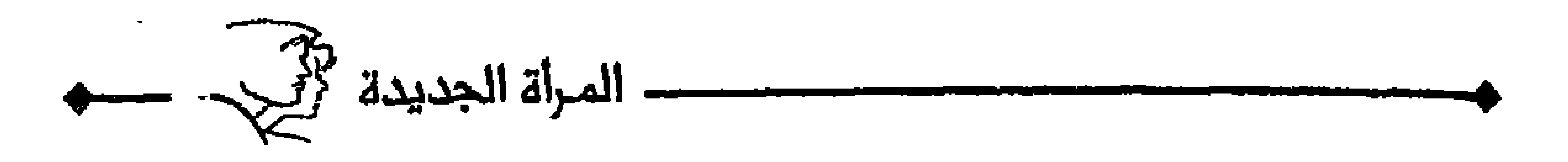
*******

# ملحق (٢)

## ثبت تاريخي بحكام أسرة محمد على

| الحاكم | الميلاد | الوفاة | الحكم |
|---|---|---|---|
| محمد على | ١٧٦٩ | ١٨٤٩ | ١٨٠٥- ١٨٤٨ |
| إبراهيم | ١٧٨٩ | ١٨٤٨ | يونيو- نوفمبر ١٨٤٨ |
| عباس الأول | ١٨١٣ | ١٨٥٤ | ١٨٤٨- ١٨٥٤ |
| سعيد | ١٨٢٢ | ١٨٦٣ | ١٨٥٤- ١٨٦٣ |
| إسماعيل | ١٨٣٠ | ١٨٩٥ | ١٨٦٣- ١٨٧٩ |
| توفيق | ١٨٥٢ | ١٨٩٢ | ١٨٧٩- ١٨٩٢ |
| عباس الثانى | ١٨٧٤ | ١٩٤٤ | ١٨٩٢- ١٩١٤ |
| حسين كمال | ١٨٥٣ | ١٩١٧ | ١٩١٤- ١٩١٧ |
| أحمد فؤاد | ١٨٦٨ | ١٩٣٦ | ١٩١٧- ١٩٣٦ |
| فاروق | ١٩٢٠ | ١٩٦٥ | ١٩٣٦- ١٩٥٢ |

*******



# ملحق (٣)

مراجع الكتاب:


- ثورة ١٩١٩ عبد الرحمن الرافعى مكتبة النهضة القومية الطبعة الثانية ١٩٥٥.
- عباس حلمى الثانى محمد سيد الكيلانى دار الفرجانى الطبعة الأولى ١٩٩١ لبنان.
- الغزوة الاستعمارية للعالم العربى وحركات المقاومة د. عبد العظيم رمضان الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ مكتبة الأسرة.
- **THE WORLD'S ALMANAC & Book Of Facts 2000 New York Times.**
- **History Of Ideas On Women. Rosemary Agonito Perigee Books 1977 USA.**

▣ مذكرات سعد زغلول لهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية مركز تاريخ مصر المعاصر الهيئة القومية للكتاب تحقيق د عبد العظيم رمضان من ج٧.

▣ ديوان الحياة المعاصرة د لبيب يونان رزق مركز تاريخ الأهرام.

▣ ثورة مصر سنة ١٩١٩ د. عبد العزيز رفاعى الطبعة الأولى دار الكاتب العربى للطباعة والنشر.

▣ الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط ليلى أبو لغد المجلس الأعلى للثقافة.

▣ النهضة النساية فى مصر تأليف بث بارون ترجمة لميس النقاش المجلس الأعلى للثقافة.

▣ هدى شعراوى وعصر التنوير د نبيل راغب سلسلة تاريخ المصريين ١٢.

▣ هدى شعراوى الزمن والريادة د جورجيت عطية دار عطية للنشر لبنان.

- مذكرات هدى شعراوى رائدة المرأة العربية دار الهلال.
- ثمانون عاما على ثورة ١٩١٩ دار الكتب والوثائق القومية مركز تاريخ مصر المعاصر.
- سعد زغلول الزعامة والزعيم د. حسين فوزى النجار مكتبة مدبولى ١٩٨٦.
- مذكرات الأميرة جويدان مكتبة دار الهلال أغسطس ١٩٨٠ تقديم سعد رضوان.
- حياة مى. محمد عبد الغنى حسن مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٤٢.
- تاريخ الوزارات المصرية تقديم د لبيب يونان رزق الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية ١٩٩٨.
- **The Penguin Dictionary of MODERN HISTORY 1789-1945 Alan Palmer.**

- أيام لها تاريخ أحمد بهاء الدين دار الشروق الطبعة الثانية ١٩٨٥.
- مذكرات سعد زغلول دراسة مصطفى النحاس جبر روزاليوسف.
- مذكرات سعد زغلول تحقيق د.عبد العظيم رمضان.
- "عهدى" مذكرات عباس حلمى الثانى خديوى مصر الأخير ١٩١٤-١٨٩٢ دار الشروق ترجمة د جلال يحى.
- **MODERN BRITAIN Denis Richards and J. W. Hunt Lngmans.**
- "المرأة المسلمة فى صراع الطربوش والقبعة" اقبال بركة. دار قباء ٢٠٠٠.
- "محمد فريد" عبد الرحمن الرافعى الطبعة الثالثة ١٩٦١م مكتبة النهضة المصرية صفحة ١٩٤.

*******

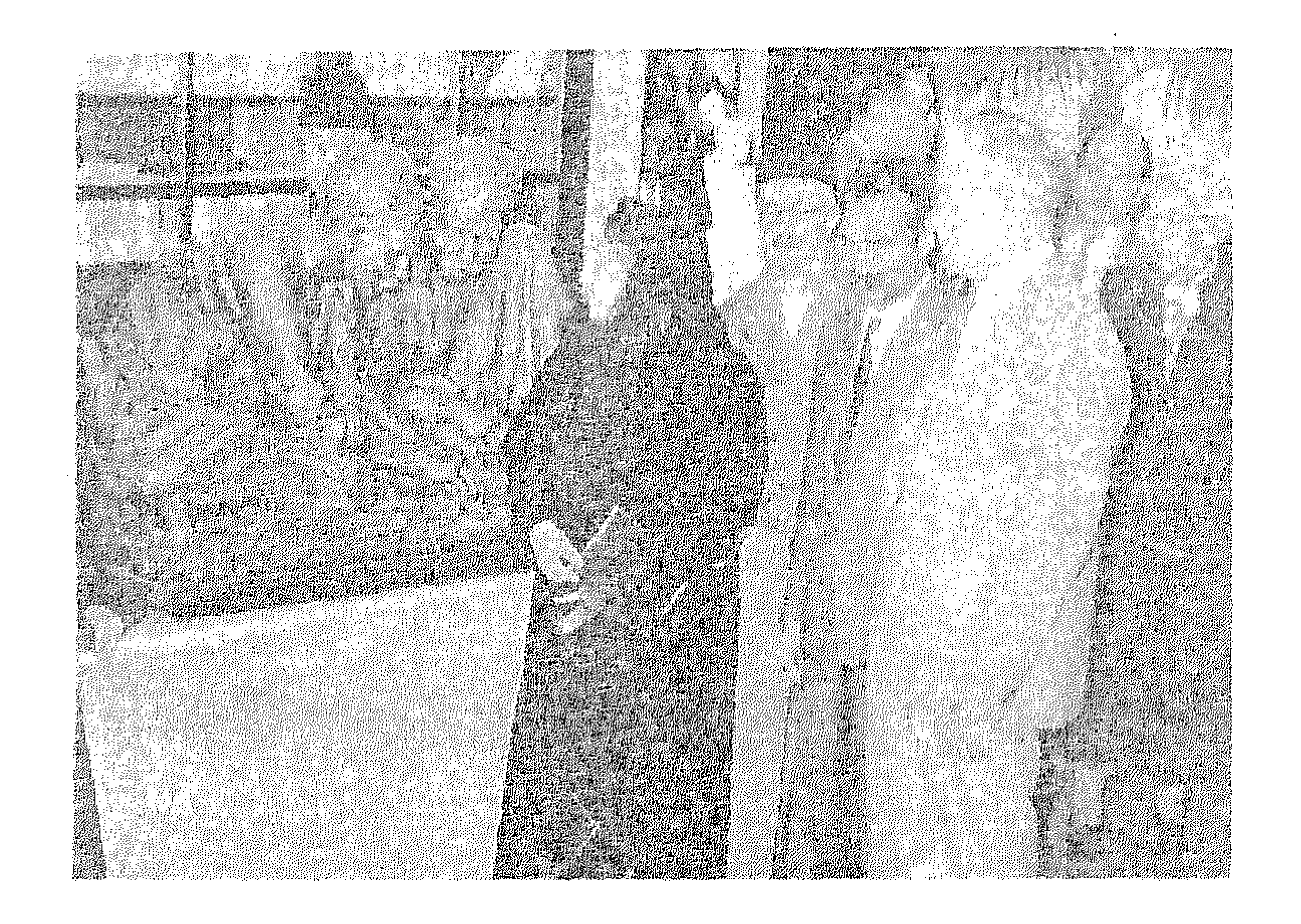
# ملحق صـورة

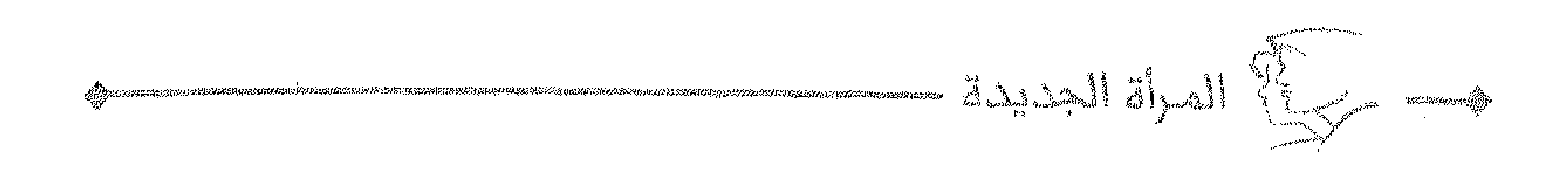


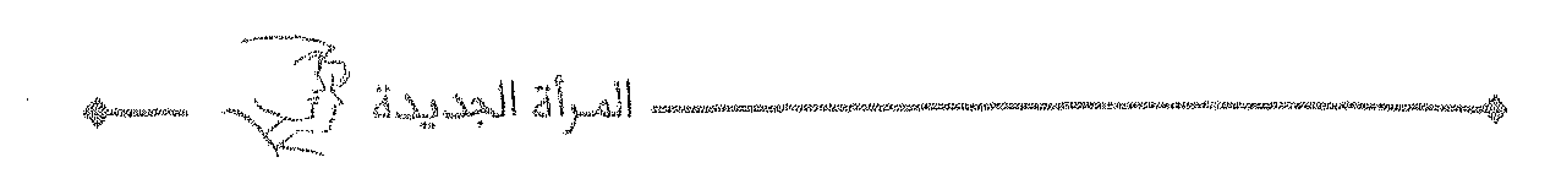


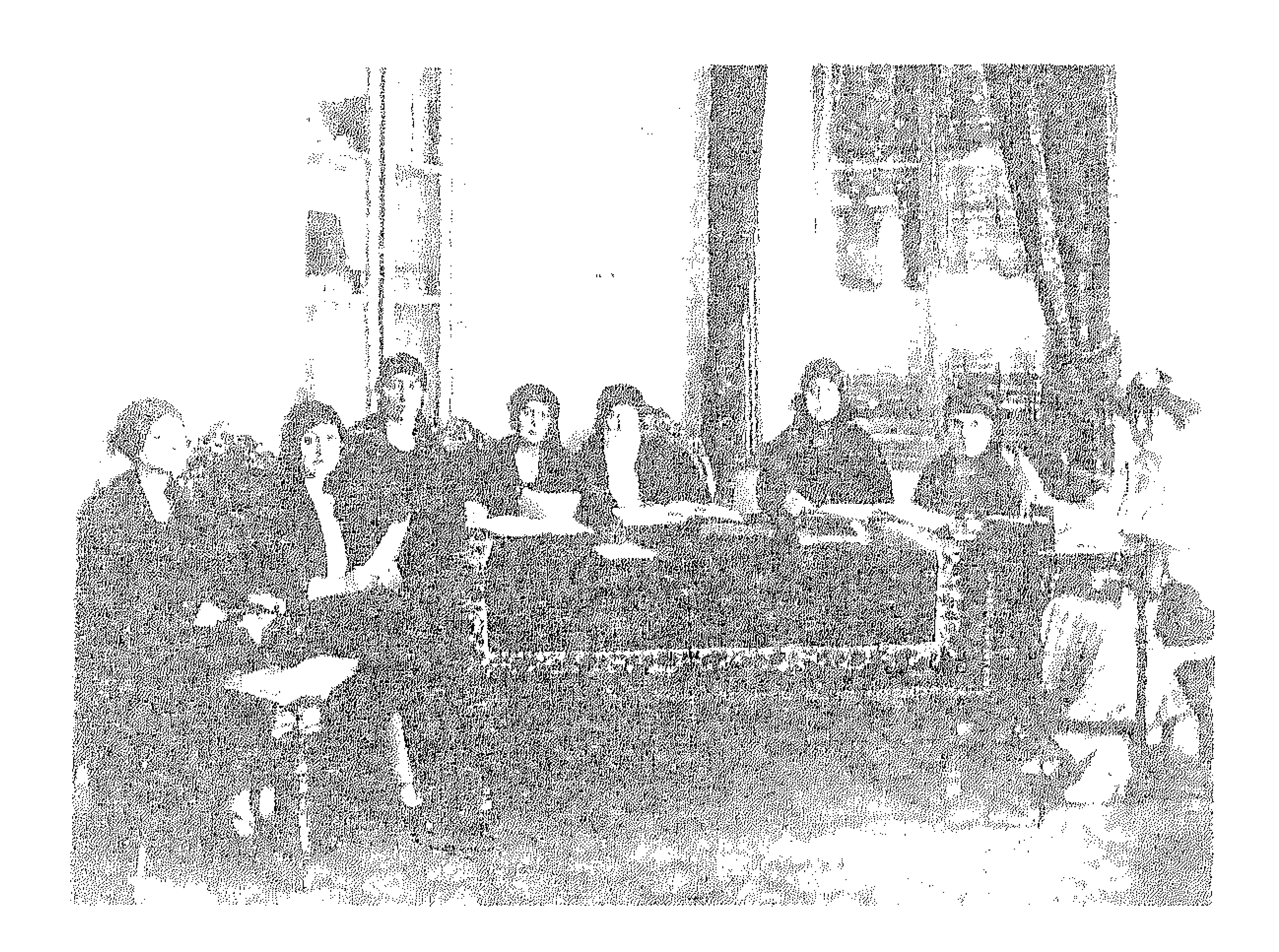










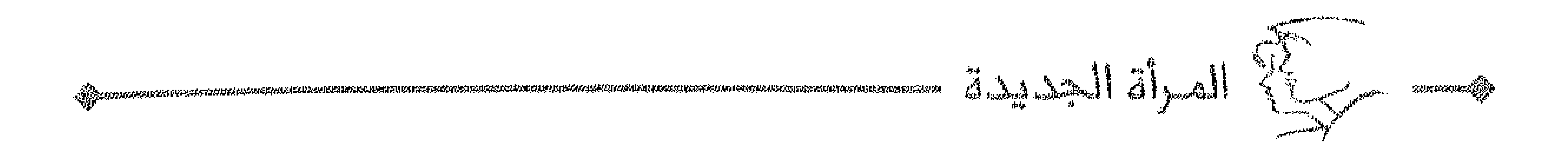




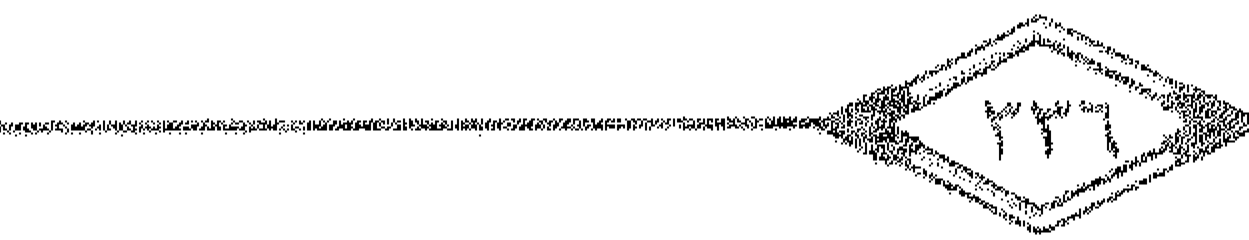






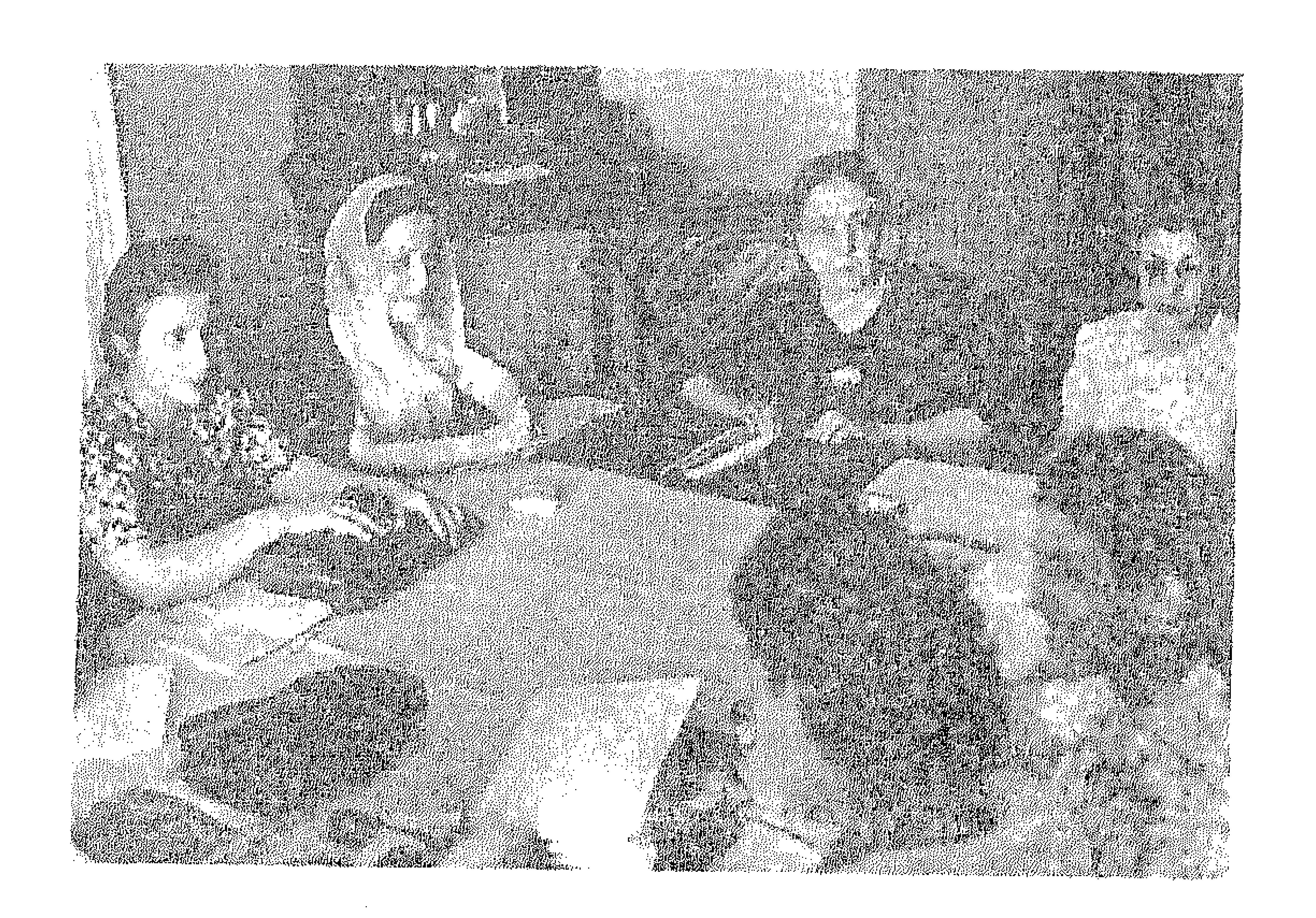


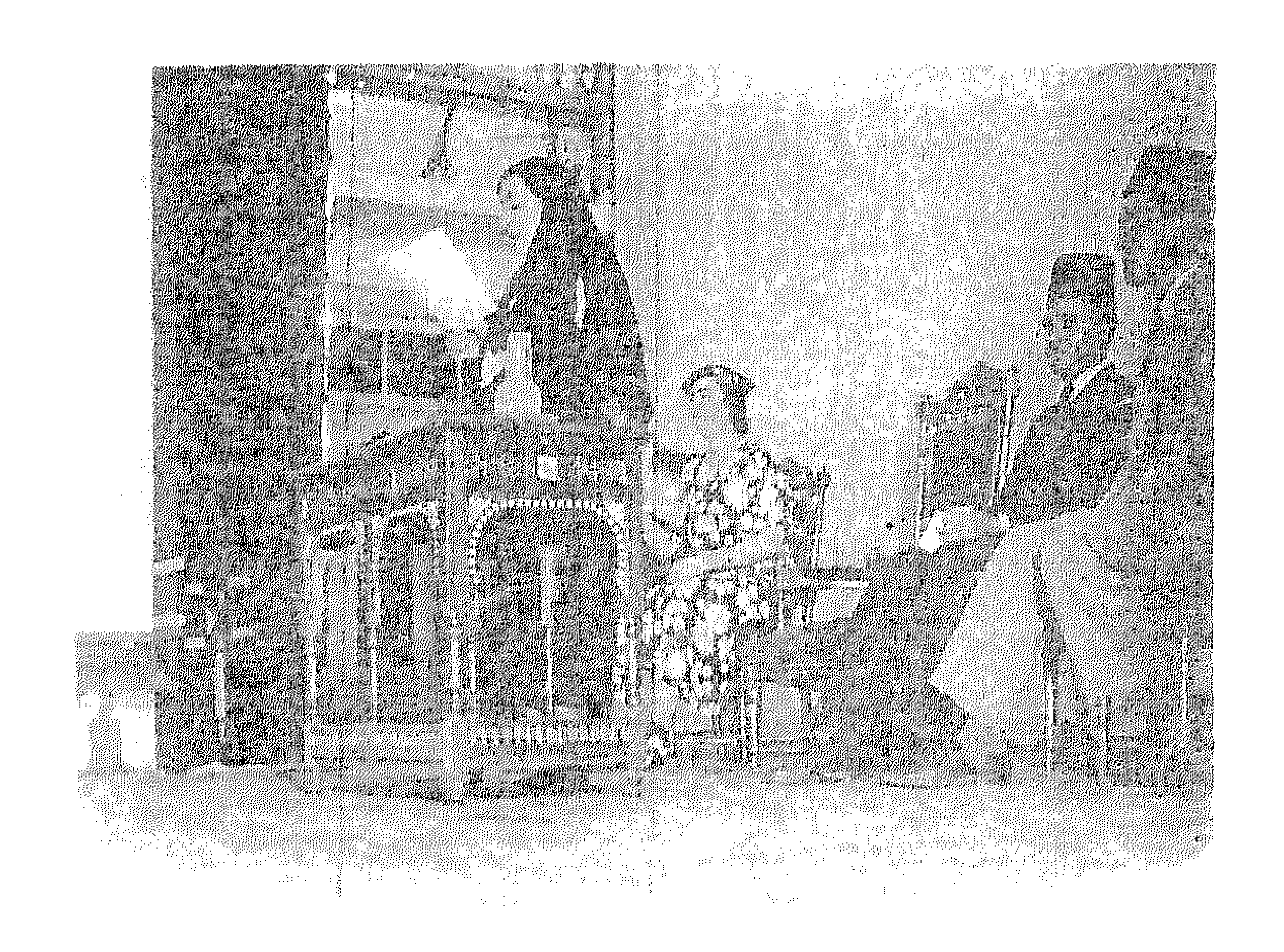


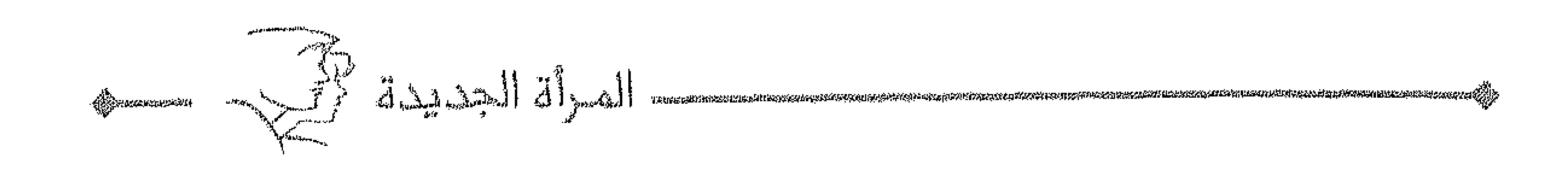












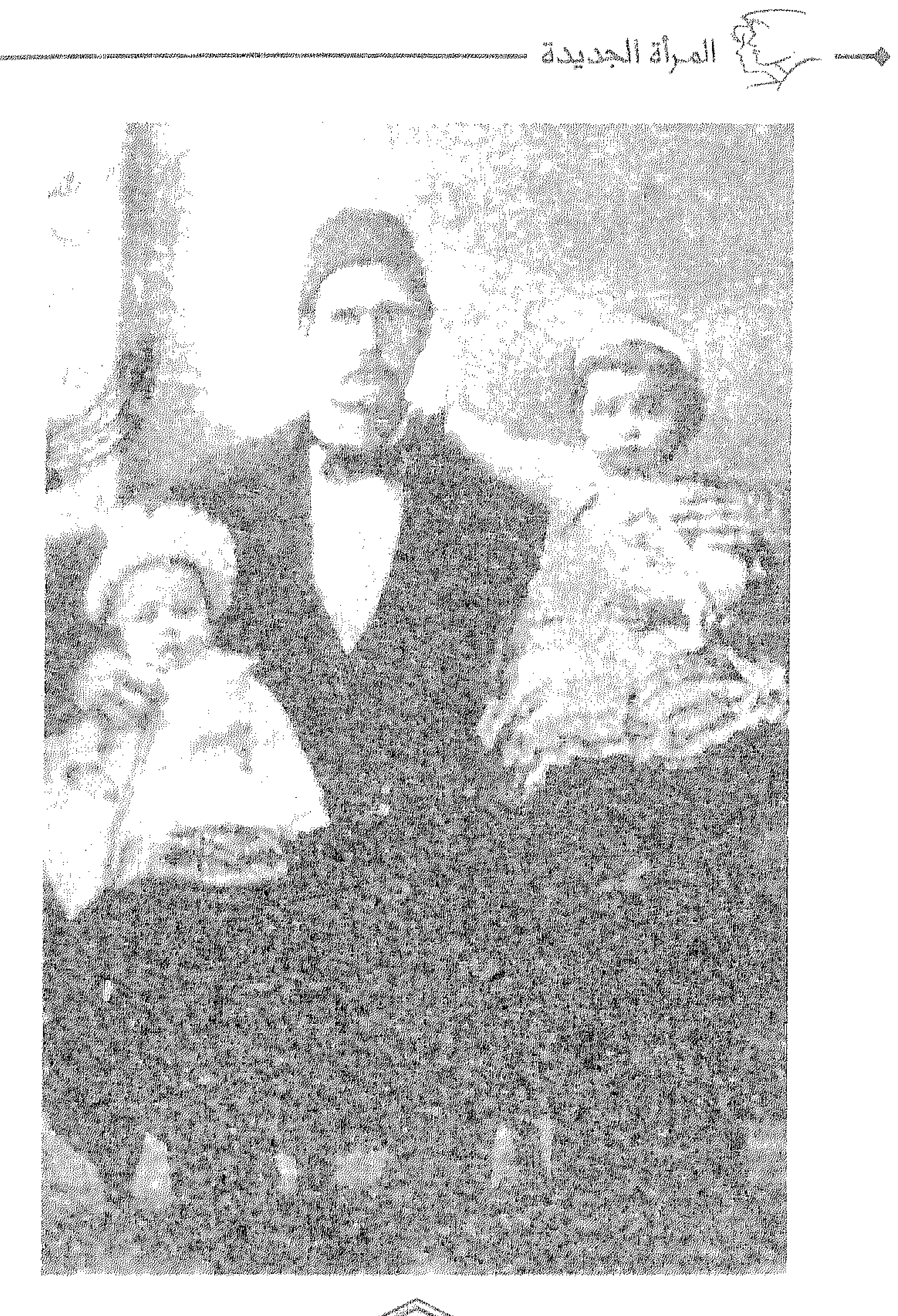


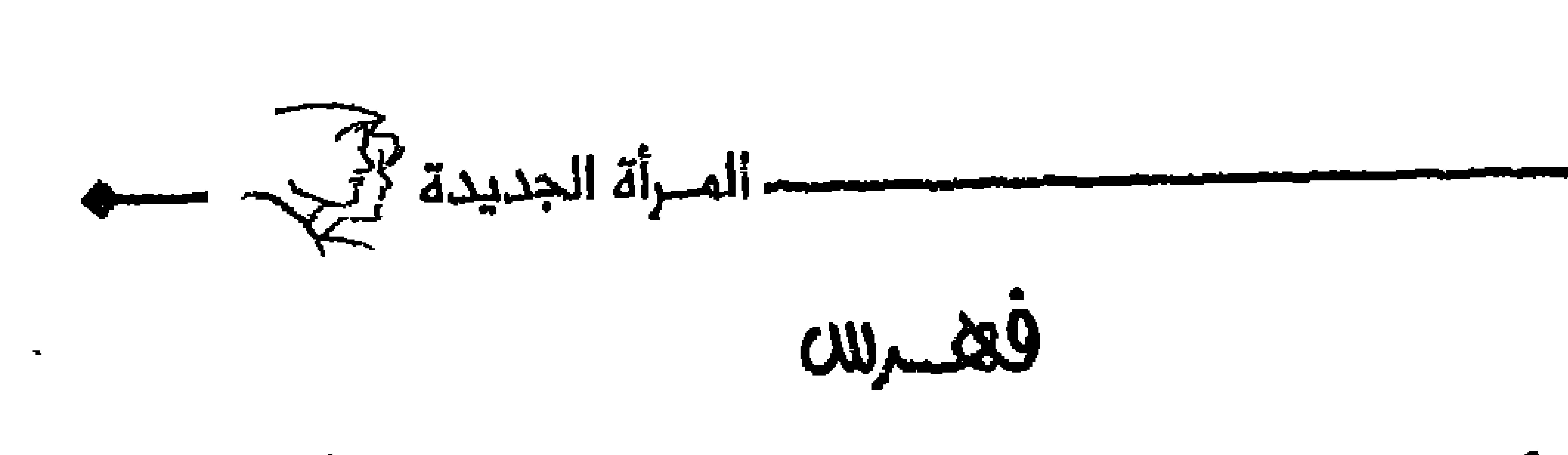














# فهرس

الموضوع — الصفحة

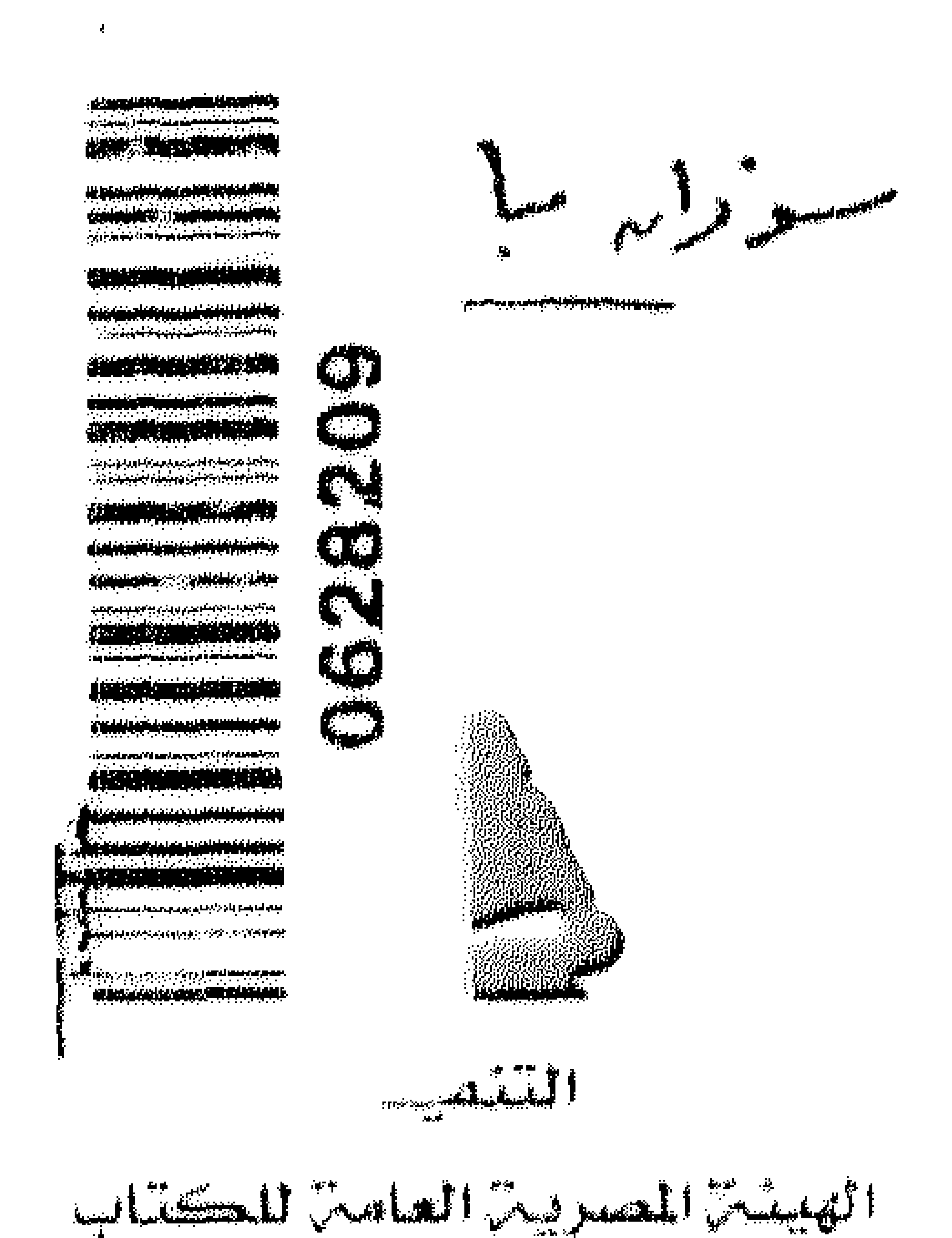
رقم الايداع ٢٠٠٣/١٣٣٧٨

I.S.B.N 977-01-8689-9



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن نؤكد أن جيلا كاملا من شباب مصر نشأ على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية والإنسانية النادرة وتقدم فى عامها الحادى عشر المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع والفكر زادا معرفيا للأسرة المصرية وعلامة فارقة فى مسيرتها الحضارية .

سوزان مبارك



التنمية

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن ٣ جنيهاً